سلسلة الأفكار التقريبية في التفاسير

١

الوحدة الإسلامية

في تفسير العلّامة الطباطبائي

فرج اللّه مير عرب







سلسلة الأفكار التقريبية في التفاسير (١)

الوحدة الإسلامية في تفسير العلّامة الطباطبائي

فرج الله مير عرب



دار الصفوة



تلفاكس : (+9611) 27 49 42 ـ (+9611) 55 29 00
جوال : (+9613) 80 01 49 ص.ب : 25/91 بيروت ـ لبنان
E-mail : dar_asafwa@hotmail.com



هوية الكتاب

- اسم الكتاب: الوحدة الإسلامية في تفسير العلاّمة الطباطبائي
- تأليف: فرج الله مير عرب
- المراجعة: سيد مصطفى الحسيني الرودباري
- تقويم النص: صلاح حسين المظفر
- الناشر: المركز العالي للدراسات التقريبية التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية
- الطبعة: الأولى ـ ١٤٣٣هـ ق / ٢٠١٢م
- العنوان: الجمهورية الإسلامية في ايران ـ طهران ـ ص.ب: ٦٩٩٥ـ ١٥٨٧٥

  تلفكس: ١٤ـ٨٨٣٢١٤١١ ـ٢١ـ ٠٠٩٨
- المركز العالي: تلفكس: ٧٧٥٤٩٦٦ ـ ٧٧٥٥٤٤٨ ـ ٠٢٥١ ـ ٠٠٩٨
- البريد الالكتروني: **Qomtaghrib@yahoo.com**

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

﴿وَلتَكُن مِّنكُمْ أُمّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

آل عمران: ١٠٤

كلمة المركز

لا شك أنّ القرآن هو الكتاب السماويّ للأمّة الإسلامية جميعاً، ويمثّل أيضاً أحد أبرز المعالم المشتركة بين المدرستين الاسلاميتين العظيمتين: الشيعة والسنّية، إضافة إلى ما حفل به هذا الكتاب من الدعوة إلى الوحدة بين كافّة مكوّنات الأمّة الإسلاميّة بجميع توجّهاتها وانتماءاتها، وطرح سبل توحيد صفوفها.

والحقيقة أنّه ـ فضلاً عن تلك الآيات الداعية إلى الوحدة والمؤكّدة عليها والآمرة بها، والآيات الواردة في ذمّ التفرقة ـ ثمّة مفاهيم في القرآن الكريم تشير إلى ضرورة تحقيق الوحدة بين مكونات وعناصر المجتمع الإسلامي، ومفاهيم أخرىٰ يمكن أن تعدّ أساساً ومباني لوحدة هذا المجتمع، كما أنّ هناك آيات تتضمّن الدعوة إلى تشكيل مجتمع تكون الوحدة أحد أبرز معالمه ومواصفاته.

إلّا أنّه من المؤسف أنّ مقوّمات وحيثيّات الوحدة الإسلاميّة الموجودة في القرآن الكريم لم يتمّ التعرّف عليها جيداً، ولا الإحاطة بها بصورة كاملة وبشكل عميق، وإنّما جرىٰ الاكتفاء بالتعرّض إلى بعض آيات قرآنية في هذا الخصوص، على المستوىٰ النظري والإجمالي.

إلّا أنّه لايعني خلوّ التفاسير، سواء الشيعيّة منها والسنيّة، من أية إشارات تصبّ في هذا الإطار ولو بعنوان أنّها تفسير موجز.

فقد قام المفسّرين من الشيعة والسنّة بالاشارة إلى الوحدة، وعوامل تقويتها ضمن تفسير بعض الآيات القرآنيّة، ممّا كان لها الأثر في رفع شعار الوحدة بين المسلمين، وتقديم بعض الإيضاحات عن مفهوم الوحدة، والمجتمع الإسلامي الواحد، والأمّة الإسلاميّة الواحدة.

وانطلاقاً من ذلك، ارتأى مركزنا: مركز الدراسات العلمية التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة القيام بمشروع مراجعة أهم وأبرز تفاسير المدرستين، بهدف استخراج كلّ نقطة وبحث يثيرها كلّ كتاب تفسير على حدة، ويشتمل على رؤية إيجابيّة بشأن الوحدة، والاهتمام بها من خلال وضعها في قالب دراسة تحليلة مستقلّة، وتقديمها إلى القرّاء لأجل إبراز هذا الجانب الوحدويّ المشرق في التفاسير القرآنية، ممّا يمكن لهذا الموضوع أن يلعب دوراً حيويّاً على صعيد تمتين عرى الوحدة بين المذاهب الإسلامية، وتعزيز تعايشها في المجتمع الواحد، في ظلّ القرآن الكريم.

وهذا الكتاب الماثل بين يدي القارئ الكريم يتعقّب موارد الوحدة في تفسير الميزان للعلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي، الذي يعدّ من أهمّ وأفضل التفاسير في العالم الإسلامي:

١ ـ تميّزه في أنّ مؤلّفه سعى بكلّ إصرار إلى توفير فرصة فهم آيات القرآن في ضوء الآيات القرآنيّة الأخرى؛ أي تفسير القرآن بالقرآن نفسه، وهذا الحرص من قبل العلّامة الطباطبائي قد ساعد على فتح نوافذ عديدة إلى المعارف القرآنية التي قد غابت عن أقرانه.

لقد حالف النجاح «تفسير الميزان» في صياغة هذا النمط الرائع بشكل جيّد ومتميّز، محاولاً اتّباع أسلوب تبيان القرآن بالقرآن نفسه، وإيضاح بعض آياته بالبعض الآخر، ما جعل هذا التفسير يتّسم بالواقعيّة والأقرب إلى المراد من معاني الآيات.

إنّ هذا التفسير لم يغفل الرؤية الناظرة إلى البنية المعرفيّة في تفسير الآيات القرآنية، بل اعتمد المصنّف على تفسير الآيات في إطار معرفي، وهذا الأسلوب منح فرصة في إضفاء الانسجام الفكري الدقيق والواقعي على نظم الآيات الكريمة،

كما أتاح للقارئ أن يتوصّل إلى نقاط بديعة وغير مسبوقة أحياناً في هذا التفسير دون سواه.

٢ ـ إنّ هذا التفسير يعدّ حصيلة لدراسة تحليلية ومعرفية عميقة، ناظرة إلى الروايات فضلاً عن الآيات القرآنيّة؛ في سبيل الحصول على تفسير مستمدّ من أخبار موثّقة عن أهل البيت عليهم السلام؛ الأمر الذي يكسب الإنسان مزيداً من القدرة على التحليل إزاء هذا التفسير الروائي، ويهيئ المزيد من فرص الانسجام والتناغم بين العقل والنقل على هذا الصعيد.

٣ ـ أنّه يؤكّد على المسائل الاجتماعية، وبخاصّة المسائل المعاصرة؛ فالمرور على هذا الكتاب وإلقاء نظرة ـ ولو سريعة ـ عليه كفيلة بإيضاح أنّ هذا التفسير يركّز على هذه القضايا بصورة كبيرة، وأنّ شطراً كبيراً منه نشأ وتكوّن في ظلّ الرؤى والأفكار الإجتماعية القائمة في عصره.

وأنّ المرحوم الطباطبائي أيضاً ضمن رؤيته إلى القضايا الاجتماعية، سعى إلى طرح تحليل صحيح وغير منفعل عن تلك المسائل والقضايا، وفقاً للآيات القرآنية، وأنّه لم يتّبع منهج فرض أفكار مسبقة على الآيات القرآنية، بل أفصح أحياناً عن بعض التحليلات بشأن الآيات التي تهتم بالأمور الاجتماعية، وتحوي إشارات لتعكس الرؤية الاجتماعية العميقة للقرآن الكريم حيال المسائل والقضايا الانسانية والاجتماعية المختلفة.

ولاريب في أنّ الوحدة تشكّل إحدى أهم وأبرز هذه القضايا، فهي واحدة من المسائل المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع، كما أنّ التفرقة والطائفيّة من جملة تلك القضايا أيضاً.

من هنا نجد المرحوم العلّامة في رؤيته إلى المجتمع يتطرّق إلى مسألة الوحدة في مواضع كثيرة من تفسير الميزان باعتبارها حركةً يجب أن تكون راسخة وقويّة،

لا أنّها مجاملة وصورية، وشعار فارغ عن المحتوى، وبرنامج مطروح على هامش المواضيع الأساسية، ولذا نراه يطرح هذا الموضوع ويذبّ عنه بإتقان وإحكام، حتّى إنّ المتابع لهذا التفسير يشاهد كلاماً قاطعاً أحياناً في موضوع الوحدة، ومندّداً بجميع الترسّبات العصبيّة الموروثة.

إنّ مسألة الوحدة المطروحة في ثنايا تفسير الميزان جاءت بشكل يمكّنها من إحراز قصب السبق في الأوساط العلميّة، وتوفّر الفرصة للاستفادة منها في المحافل التي تخطّط لتعزيز وترسيخ دعائم الوحدة في الأمة الإسلامية؛ كما تمّ تناولها بطريقة جعلتها موضع اهتمام كبير عند الاجتماعيين والمصلحين من جهة انسجامها مع الظواهر الاجتماعية الأخرى، لدرجة يمكن أن تغدو منهجاً إسلاميّاً مدروساً وواضحاً للجميع إذ إنّه لم يقتصر بحثه في الوحدة المذهبية فحسب، بل كان بحثه يشمل مديات أخرىٰ لقضية الوحدة، كأن تكون على مستوىٰ الوحدة بين الأديان، والشعوب، والأمم، بل وحتّى الوحدة بين الحضارات الحيّة.

ولا شكّ في أنّه لايمكن لمن يسير في طريق التقريب بين المذاهب الإسلامية، ومن يحاول التوصّل إلى فهم أوضح للوحدة الإسلامية، الاستغناء عن تصوّرات وأفكار العلّامة في هذا المجال، وضرورة الرجوع إلى آرائه وبياناته في هذا الإطار.

كما أنّ تفسير الميزان يشتمل على بُعد تقريبي ووحدوي أيضاً؛ ذلك أنّه لم يتبنّ التعصّب والطائفية، أو إثارة الفرقة والاختلاف في طرحه للمسائل وتناوله للموضوعات المختلفة، بل هو عارٍ تماماً عن تلك النظرة الداعية إلى التعصب والتطرّف. وبهذا، تكون الرؤية العميقة للعلّامة إلى الوحدة قد تجلّت في أسلوبه في تفسير الميزان، ما يجعل القارئ لايشعر بما يسوقه من كلام يزيد فيه روح التعصّب والتشنج المذهبي، بل يشعر وهو يتصفّح الكتاب بأنّه في مناخ وحدويّ خالص، بعيد عن إثارة النعرات الطائفية والمذهبية.

وهذا الكتاب من تأليف أحد فضلاء الحوزة العلميّة في قم، يعدّ باكورة سلسلة مشروع المركز القاضي بتبني المؤلّفات التي من شأنها مراجعة تفاسير المدرستين، واستخراج الموارد التي تتحدّث عن الوحدة والتقارب الاسلامية من على لسان مصنّفيها، والذي من الممكن أنّ تشكّل الحظوة الأولى لبناء هرم تفسيري على هذا الصعيد.

وإذ نثمن جهود المؤلّف الكبيرة في هذا المجال، الذي يعدّ باكورة سلسلة مشروع دراسات قرآنية مبتكرة، وحسن تتبعه للموارد المطلوبة في كتاب الميزان بمجلّداته العشرين، نشكر قسم علوم القرآن والحديث التابع لمركزنا بكلّ أفراده على حسن تعامله وتصديّه، وتقديمه المشورة على مستوىٰ التنقيح والتصحيح والطباعة والإخراج حتّىٰ خرج بحلّته الجميلة، فجزاهم الله خيراً.

نسأل الله التوفيق لتقديم الأفضل لأبنائنا، والأجود لمثقفينا، والأعظم فائدة لأمتنا وكتابها المجيد، إنّه نعم المولى ونعم الوكيل.

أحمد المبلّغي

مدير المركز العالي للدراسات التقريبية

المقدمة

من العظماء مَن إذا تعمّقت في دراسة شخصيته، فإنَّك تجد ذاتك في نطاق دائرة محدودة وإن جعلت منه إنساناً عظيماً، سواء كان صاحب فكرٍ أو صاحب قوّةٍ أو مكانة أو...، ومن العظماء مَن إذا تعمّقت في داخل شخصيته فإنَّك تجد نفسك على العالم كلّه، وهو الفرق بين عظيم يجمع عناصر عظمته من أجل أن يؤكّد ذاته، وبين عظيم يجمع هذه العناصر من أجل أن يعطي الحياة عظمةً، وتكون عظمته حركة في حياة، الإنسان.

ويعدّ الحكيم الإلهي العلّامة محمد حسين الطباطبائي، الذي عاش لله فاكتشف الحياة والإنسان من خلاله، من القسم الثاني من العظماء.

نبذة عن نشأته وسيرته الذاتية

ينحدر السيّد الطباطبائي من بيت علم وفضل، وخدمة لشريعة الإسلام ومنهج الرسول وأهل بيته، إذ إنّ أربعة عشر من أجداده كانوا من العلماء البارزين في مدينة تبريز الإيرانية.

وُلد السيّد الاستاذ سنة ١٣٢١ للهجرة في تبريز من أكبر مدن إيران، وتابع دراسته الأوّلية هناك، ثمّ رحل إلى النجف الأشرف سنة ١٣٤٤ هـ، ومكث فيها مدة لاتقلّ عن عشرة سنوات، اكتسب خلالها مختلف العلوم الإسلامية، فدرس الفقه والأصول والفلسفة والرياضيات والأخلاق.

ولم يكتفِ بدراسة الفقه والأصول بشكلها المبسّط، وإنّما تعمّق في دراسة هذين العلمين، وتناول دراسة علم النحو والصرف أيضاً، ودراسة الأدب العربي، وتـطرّق إلى دراسة علم الرياضيات القديم كـ(اصول) اقليدس و(المـجسطي) لبـطليموس، والفلسفة، وعلم الكلام، والعرفان، والتفسير أيضاً. ثمّ رجع الى موطنه تبريز سـنة ١٣٥٤ هـ.

ذاعت شهرته في إيران، بعد أن هاجر من مسقط رأسه إلى مدينة قم إثر الحوادث السياسية التي وقعت عقب الحرب العالمية الثانية، فأقام فيها سنة ١٣٦٥ هـ، وبدأ بتدريس التفسير والحكمة والمعارف الإسـلامية، ولم يـدّخر وسـعاً فـي مـناقشة ومحاججة المخالفين، فأرشد العديد منهم إلى طريق الحقّ والصواب.

وكانت لمحاضراته في الحوزة العلمية أثرها البليغ على طلّابه، بل شملت المثقفين أيضاً، فكانت لقاءاته مع الاستاذ الفرنسي "هنري كربن" في كل خريف، يحضرها جمع من الفضلاء والعلماء، تطرح فيها المسائل الدينية والفلسفية، وكانت نـتائجها مثمرة جداً.

ومن الجدير بالذكر أنّ تلك اللقاءات والمباحثات لم يكن لها نظير فـي العـالم الإسلامي بأجمعه منذ القرون الوسطى، حين كان التلاقح الفكـري بـين الإسـلام والمسيحية يأخذ منحى تصاعدي، إلّا أنّ جذوته بدأت تخمد رويداً رويداً، إلى أن أوقدها السيّد الطباطبائي ثانية. فقد أحيا العلّامة الطباطبائي العلوم العقلية وتفسير القرآن، فاهتمّ بتدريس الحكمة، وشرع بتدريس كتابي (الشفاء) و(الأسفار) [1] فـي الحوزة العلمية بقم المقدّسة.

---

١ ـ كتاب (الشفاء) لمؤلفه الشيخ الرئيس أبي علي سينا وكتاب (الأسفار الأربعة في الحكـمة المـتعالية) لمؤلفه محمد إبراهيم الشيرازي المعروف بالملّا صدرا الشيرازي، والكتاب يقع فـي تسـع مـجلّدات، جمع المؤلف بين علم الكلام والفلسفة والعرفان، كما جمع بين آراء مذهب المشائين والإشراقيين.

كان سيّدنا الأستاذ يمتاز بدماثة الخلق، فكان ذلك عاملاً رئيسياً في شدّ الطلّاب إلى محاضراته القيّمة، اذ كان يحضرها المئات، وقد نال الكثير منهم درجة الاجتهاد في الحكمة، وأصبحوا أساتذة قادرين على تدريسها.

كان العلّامة يحرص على الأخلاق وتزكية النفس، فضلاً عن اهتمامه بالحكمة والعرفان، ويمكن القول بأنّه أسّس مدرسة جديدة في التربية وعلم الأخلاق، فقدّم للمجتمع نماذجاً تتّصف بأخلاق إسلامية عالية. وكان يؤكّد كثيراً على ضرورة تلازم التعاليم الإسلامية مع التربية المدرسية، ويعتبرها من المسائل الأساسية في المعارف الإسلامية، إلّا أنّه من المؤسف له عدم مراعاة ذلك في أغلب المدارس الموجودة في سائر بلدان العالم الإسلامي.

مؤلفاته

للسيد الطباطبائي مؤلّفات كثيرة في مجال الأصول والكلام والعرفان والفلسفة الإسلامية وتفسير القرآن، على مستوىٰ مجلدات من الكتب أو رسائل تخصّصية مختلفة، إضافة إلى الشروح والحواشي التي سجّلها في كتبٍ بالفارسية والعربية، والمقالات المتعددة المنشورة في المجلّات، نذكر أهمها:

١) تفسير الميزان ويقع في عشرين مجلداً باللغة العربية، وقد ترجم إلى اللغتين الفارسية والانجليزية، ٢) مبادي الفلسفة وطريقة المثالية، مع شرح وهوامش للعلّامة الفيلسوف مرتضى المطهري، ٣) شرح الأسفار لصدرالدين الشيرازي، في ستة مجلدات، ٤) حوار مع الاستاذ «هنري كربن» في مجلدين، ٥) رسالة في الحكومة الإسلامية، طبعت باللغات العربية والفارسية والالمانية، ٦) حاشية الكفاية في علم الأصول، ٧) رسالة في القوّة والفعل، ٨) رسالة في اثبات الذات، ٩) رسالة في الصفات، ١٠) رسالة في الأفعال، ١١) رسالة في الوسائط، ١٢) الإنسان قبل

الدنيا، ١٣) الإنسان في الدنيا، ١٤) الإنسان بعد الدنيا، ١٥) رسالة في النبوّة، ١٦) رسالة في الولاية، ١٧) عليّ عليه السلام والفلسفة الإلهية، ١٨) القرآن في الإسلام، ١٩) الشيعة في الإسلام، ٢٠) المنتقى من كتاب سنن النبي صلى الله عليه وآله.

ويعدّ هذا الكتاب هي محاولة استقصاء وتسجيل مسألة الوحدة في فكر العلّامة الطباطبائي التي أودعها في ثنايا كتابه التفسيري الكبير: الميزان في تفسير القرآن، وبيانه رؤيته تجاه هذه القضية المهمة، وعرض ما دوّنه قلمه الشريف حول الوحدة والتقارب، ليس على مستوىٰ المذاهب الإسلامية فحسب، بل على مستوىٰ الأديان والشعوب والأمم النابضة بالحياة.

كما يشير محور الكتاب إلى العلّامة الفيلسوف والمفسّر العارف السيّد محمد حسين الطباطبائي قدس سره، كان يعتقد بوجوب الوحدة، وحرمة التفرّقة على أساس تعاليم القرآن المجيد، ويبيّن في تفسيره القيّم (الميزان) طرقاً مختلفة لتحقّقها، ويبذل جهده لتوضيح آثار وفوائد الاتحاد والأخوّة، ويرسم عواقب الاختلاف والتفرقة.

ونظراً إلى الأوضاع والأزمات التي تمرّ بها الأمة، والتحديات التي تواجهها اليوم، نجد من الضروري عرض هذه الأفكار على شبابنا المسلم الذي هو اليوم بحاجة ماسة إلى التمسك بالوحدة، والإحاطة بآراء العلماء وتتبّع كلماتهم وآرائهم، ومطالعة أفكارهم في هذه المسألة الخطيرة.

وفي الختام نرجو من الله أن يوفّق جميع المسلمين نحو تحقيق عوامل الوحدة والتقارب بين المسلمين، ورفع كلّ أسباب المنازعات والتشتت، وأن يتذكّروا نعمة الله العظيمة عليهم التي بها ألّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً، لتعود إليهم العزّة التي وهبهم إيّاهم الله، والقوة التي منحها لهم إن شاء الله تعالى.

ولا ننسىٰ توجيه شكرنا وتقديرنا إلى مركز الدراسات العلمية التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية، على الخصوص سماحة حجة الاسلام

والمسلمين الشيخ أحمد المبلّغي مسؤول المركز الأغرّ، وأفراد قسم علوم القرآن والحديث، لا سيّما حجة الاسلام والمسلمين السيد مصطفى الحسيني الرودباري، والأخ الفاضل شوقي شالباف الذين لم يألوا جهداً في سبيل تصحيح وتهذيب ومراجعة متن الكتاب، والأفراد الذين لم يبخلوا بما لديهم من أجل طبع وإخراج هذا الكتاب بصورته الجميلة، ونشره بين الناس، فجزاهم الله جميعاً الجزاء الأوفىٰ.

قم المقدّسة

فرج الله مير عرب

الفصل الأول
العلّامة الطباطبائي ومنهج التقارب في التفسير

من المناسب أن نذكر كلمة العلّامة الطباطبائي التي دوّنها في تفسيره، يقول: «**الإسلام... يُعدُّ الاتحاد والاتفاق من أركان أحكامه وأصول قوانينه**»[1]، ثمّ نسأل:

أليس من البديهيات أنّ المسلمين أمّة واحدة؟ أفلسنا أمّة أعظم رسل الله عزّ وجلّ وهو يعلن قانونه: ﴿المؤمنون كنفس واحد﴾؟[2] وهل يراد من هذا القانون إلّا تحقيق الإحساس الديني المشترك، والتكاتف الديني الموحّد بين المؤمنين؟

أليس الذي قام به رسول الله بعد دخوله المدينة المنوّرة في عقد المؤاخاة بين المسلمين كافة: رجالاً ونساءً هو نوع من الاستراتيجية القيمية والاجتماعية للرسول الأعظمﷺ لأجل ايجاد وحدة إسلامية، تقوم على أساس بناء مشاعر اجتماعية ودينية مشتركة، ويكون الرسول الكريم بهذه المبادرة الرائعة قد أزال الخلافات بين بني بشر وأوجد فيها روح الوحدة الانسانية؟

لقد كان رسول الرحمةﷺ يؤكّد دائماً وبشكل خاصّ على هذا الموضوع، في مسار التضامن الايماني بين المسلمين، كما أكّده بعد فتح مكة في المسجد الحرام: «**المسلم أخو المسلم...**»[3]. وأنّ «**المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم، وهم يد على مَن**

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ٣٠٩.

٢ ـ نقلاً عن تفسير روح الجنان، أبو الفتوح الرازي ١: ٦٣١، وانظر أحاديث وقصص مثنوي: ١٥٩.

٣ ـ كنز العمّال ١: ١٤٩ح ٧٤٥، الكافي ١: ٤٠٤.

سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم...»[١].

وقد تبلورت هذه المعاهدة الأخوية على أساس إلغاء الدوافع القومية والقبيلية، على محور الحقّ والتعاون الاجتماعي، كما أمر الله عزّ وجلّ بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢].

إنّ المسلمين أمّة واحدة، ولعلّهم يعدّون ذلك من الزيادات التي لايجوز الكلام فيها؛ لأنّها أمر معلوم من الدين بالضرورة، وأنّها من الامور التي أقرّها الإسلام، لايماري فيه مؤمن، ولاينبغي أن يجادل فيه مسلم، ولكنّنا في عصر صارت حقائقه غريبة، حتّى إنّها في بيانها لتحتاج إلى استعداد نفسي خاص ليسهل تقبّلها وتزول غرابتها، وتذهب وحشتها، بل نحن في حاجة إلى أن نبيّنها وندافع عنها، غير وانين ولا متهاونين، ولابدّ أن تنفر منّا طائفة تجهر بالدعوة إليها، وتحثّ الناس عليها، فإنّه لا عزّة للإسلام إلّا بها، ولا قوّة للمسلمين إلّا بوجودها.

وإذا كنّا غافلين عنه في الماضي، فعلينا أن نستيقظ في الحاضر، فقد أدّى بنا إهمالنا إلى أن التهمنا ذئاب البشر، وأعني بهم الدول العظمى، بلداً بلداً، وصرنا نهباً مقسوماً بينهم، يختلفون في أمرنا أو يتّفقون، فنحن لا حول لنا ولا طَول.

ولقد تنبّهت المشاعر، وتحرّكت النفوس، وإن كان ذلك في الدوائر الإقليمية والنزعات الوطنية، إلّا أنّه محمود في ذاته على أنّه خطوة لا غاية، وسير في الابتداء، وليس هو غاية الانتهاء، فهو أمراً لابدّ منه؛ لأنّ أعداء الإسلام لايسمحون لنا أن نجتمع، فهم قابضون على النواصي في كل الأمّة الإسلامية، ولايسمحون لنا أن نتلاقى على مائدة الإسلام، لأنّهم يرون فيها انتهاء استغلالهم وذهاب استعمارهم،

---

١ ـ الكافي ١: ٤٠٤ ح ٢.

٢ ـ الحجرات: ١٠.

فكان الطريق للخلاص أن يتحرك كل قطر من موضعه، حتى ينزع من نفسه عقدة الخوف، فإذا تخلّص الجميع من ذلك أمكن لهم أن يتلاقوا على عزّة وحرّية، وأن يتدبّروا شوؤن دينهم الذي ارتضوا، ويسمعوا صوت الحقّ يناديهم بندائه الخالد إلى يوم القيامة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١].

لقد كنّا معشر المسلمين في سبات عميق، حتّى صرنا وقود الحروب، نؤكل فيها، وتستغل كلّ قوانا، ولا ننتفع بشيء من أمورنا، وتستنزف كل طاقاتنا وخيراتنا، ولا ننال منها إلّا النزر اليسير، يجود به علينا المتحكّمون فينا، فقد جعلونا زرّاعاً وهم الحاصدون وعمّالاً وهم المستثمرون.

كانت هذهِ حالنا في الحروب التي يشنّها بعضنا على بعض، غير أنّ الله أفاض علينا بنعمة الاعتزاز بعد ذلك، فجعلنا نراهم على حقيقتهم، فعرفنا هؤلاء الذين كانوا يسوموننا الهوان، ويذيقوننا عذاب الهون، بما كسبنا وبما أهملنا. فإنّه بعد الحربين العالميتين أخذت عقول الشعوب تتنوّر، وعزائمها تتحرّك؛ فحصلت مصادمات ومواجهات للمطالبة بحقوقها الشرعية، واستقلال بلدانها.

فنهضت البلدان الإسلامية، فاستقلّ بعضها استقلالاً كاملاً، وبعضها استقلالاً نسبياً اختفت فيها الأيادي الأجنبية في الظاهر وإن كانت تعمل من وراء الستار، ولكن الشعوب لها إرادة صلبة، فهي تريد الإسلام وعزّته، وتريد الاستقلال الكامل وحرّيته.

---

١ ـ آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣.

التقارب الاجتماعي الإسلامي

وهذا العصر هو عصر تسابق الدول، ويحسّ كلّ بلد أنّه سيؤكل إن لم ينضمّ في جماعة من الدول، وأنّه مغلوب على أمره إن لم يتّجه مختاراً إلى تجمّع دولي، وقد نشأت التجمّعات الدولية والأحلاف العسكرية، التي يريد كلّ حلف فيها أن يكون هو المسيطر علىٰ الساحة الدولية، فهل لنا نحن المسلمون أن نتلاقى في تجمّع روحي، لايبنى على الغلبة وحبّ السلطان، ولكن يبنى على الإيمان وطاعة الديّان؟!

إنَّ هذه التجمّع ليس شيئاً موسوماً ضدّ الفطرة، كتلك التجمّعات التي تبنى على مقاومة الفطرة، ولكنّه نداء الفطرة، ونداء الحقيقة الخالدة التي نطق بها القرآن في قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [١].

لقد آن لنا أن نتجمّع؛ لأنّ الإسلام يدعو إلى هذا التجمّع، ولأنّنا إن لم نجتمع تحت شعار الإسلام وحده، وذهب كلّ بلد إلى تجمّع لايرفع شعار الإسلام، ستقع الحروب بين المسلمين، وسيقاتل المسلمون إخوانهم المسلمين، والله يقول:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٢].

إذن فلابدّ من أن يجتمع المسلمون ولايختلفوا، وأن تتكون منهم أمّة واحدة، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [٣].

ولا نقصد بأن نكون أمّة واحدة، في أن تحكمنا حكومة واحدة، فإنّ ذلك

---

١ ـ الحجرات: ١٣.

٢ ـ الحجرات: ١٠.

٣ ـ الأنبياء: ٩٢.

لايمكن أن يتحقّق، ولكن يمكن أن يتحقق منّا تجمّع واحد، تقوم الروابط فيه على وحدة الدين والعقيدة، ووحدة المبادئ الإسلامية، العبادية منها والاخلاقية، وكلّ يومٍ يمرّ يشعر المؤمن بالوحدة الإسلامية إن أدّى العبادات اليومية على وجهها الصحيح، فسوف تكون الوحدة في قلبه آناء الليل وأطراف النهار، بالصلوات الخمس التي يؤدّيها المسلمون جميعاً إلى قبلة واحدة، فإذا تصوّر المسلم عند أداء الصلاة أنّه واحد من الملايين الذين يتّجهون إلى مثل اتّجاهه، ويولّون وجوههم شطر بيت الله الحرام أينما تكون مثابتهم وأين تكون جماعاتهم، فعندئذٍ يدرك أنّه لبنة في بناء مجتمع كبير، يضم أقطاراً من الشرق والغرب، يقوم على الفضيلة والاتّجاه إلى الله تعالى، وإنّك لترى ذلك المظهر السامي في الصوم، وتراه كذلك في الحج أوضح إشراقاً وأعظم نوراً، إن أدركت القلوب معنى العبادة.

إنّ قيام التجمّع الإسلامي على مبادئ الفضيلة والأخلاق هو أمثل الطرق لتكوين المنظمات الدولية، ولايعدّ الاجتماع العنصري أو الاقتصادي أمثل المجتمعات لتكوّن الأمم، وذلك لأنّ الجماعة الواحدة لاتتكون منها أمّة إلّا إذا اتّحدت المشاعر والأهواء والنوازع النفسية، ولاتتكون هذه المشاعر تحت سلطان تبادل المنافع فقط، وذلك لأنّ تبادل المنافع يكون عند قيامها، ويزول عند زوالها.

أمّا الاجتماع باسم الإسلام، فهو اجتماع لايقوم على الغلبة والكسب المادّي، بل على الأخوّة العامة والمودّة الراحمة، التي يحثّ عليها ذلك الدين القويم، فهذا الاجتماع الإسلامي يكوّن أمّةً تتّحد فيها المشاعر نحو الفضيلة والمثل العليا.

والوحدة التي يكون أساسها الدين الإسلامي، تكون العدالة الحقيقية التي لاتفرّق بين جنس وجنس، ولا لون ولون.

ولئن تقصّينا أسباب التفرّق فسنجدها في أمور تتعلّق بتلك العنصرية الجنسية، والأهواء الفكرية، فإنّها هي التي تقطع ما أمر الله تعالى بوصله، وتفرّق ما أوجب

سبحانه وتعالى جمعه، وتبدّد ما ألزمنا سبحانه وتعالى بحفظه وصيانته، قال النبي ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة»[١].

التقارب في الفكر والمشاعر أولاً

إنّ الافتراق الواقع لم يكن خلافاً مجرداً في النظر وإن كان كذلك، بل صار افتراقاً في الفكر والإحساس والمشاعر، وقد أدّى كلّ هذا إلى شقاق، حتى صار المسلم ينظر إلى المسلم الذي يخالفه في المعتقد الفكري نظرة الخصم المتربّص، لا المخالف الذي يتّجه كلاهما لطلب الحقيقة في شرع الله تعالى، وإنّ التعصّب للفكرة المذهبية قد أضلّ صاحبه، حتى صار يهمّه نصرتها بدل أن ينصر لبّ الدين وأصل اليقين، وهذه الخصومة أحدثت المذابح والفتن بين أتباع المذاهب المختلفة، ذكرها المؤرّخون في كتبهم.

وإذا كنّا في الماضي نختلف بدوافع العنصرية، أو بدوافع التنازع الفكري، أو بدوافع من رواسب خلّفتها القرون الماضية قبل الإسلام، فإنّنا نختلف اليوم لأنّ الذين يريدوننا مختلفين يبثّون بيننا أسباب الخلاف، ولأنّنا نتّخذ من غيرنا ولايةً نتولاها ونصرةً نبتغيها، والقرآن الكريم ينادينا بصوته الخالد:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢].

---

١ ـ سنن أبي داود ٢: ٣٩٠ ح ٤٥٩٦، وبهذا المضمون روايات كثيرة في مصادر السنّة والشيعة.

٢ ـ آل عمران: ١١٨ ـ ١١٩.

لقد كان ضعف الإيمان، والقناعة بضرورة الاتصال بغير المسلمين، وتـخيّل أنّ ذلك هو التقدّم، وأنّه مسايرة للحضارة، وأنّه النجاة في صحراء الحياة، وأنّه المـعبر إلى العزّة، سبباً في أنّ المسلمين لم يتطلّعوا إلى الرابطة التي تربطهم بأهل القـبلة، ولم يعرفوا أنّ الإسلام دعا إلى الإخوّة الإسلامية الحقيقة في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [١]، ومثل قول النبي ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يـظلمه ولا يسـلمه ولايخذله**» [٢].

إنّ التقارب الذي نبتغيه لايمسّ حاكماً يحكم بالحقّ والعدل بين المسلمين، ولا شكل الحكم في البلدان الإسلامية، فلكل بلد أسلوب حكمه مادام يؤدّي إلى إقامة الحق والعدل فيه، ويحقّق المعاني الإسلامية السامية، وإنّما معنى الجماعة الإسلامية أن نعتبر أنفسنا ـ مهما تناءت الديار ـ مرتبطين بروابط وثيقة تمتدّ جـذورها فـي أعماق أنفسنا، وهي أحكام الإسلام وشعائره وعباداته وعقائده، إذ هو دين الوحدة الجامعة الشاملة، كما هو دين التوحيد الخالص من كل شرك أيّاً كان نـوعه، وأيّاً كان مظهره.

ويتحقّق ذلك في أمور كثيرة:

(أ) أن تتّحد مشاعرنا جميعاً في الإحساس بأنّنا إخـوة بـحكم الإسـلام، وأنّ الأخوّة الإسلامية فوق الجنسية والعنصرية، وأن نتذكّر أنّ أوّل حكم تكليفي نفّذه النبي ﷺ بعد الهجرة هو الأخوّة الإسلامية، ضمن نظام الإخاء والتقارب الذي قام به، فقد آخى بين المهاجرين والأنصار، وآخى بين الأنصار بعضهم مع بعض، وآخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، وذلك ليشعر الجميع بأنّ الأخوّة الإسلامية هي التـي

---

١ ـ الحجرات: ١٠.

٢ ـ وسائل الشيعة ١٢: ٢٧٩ ح ٣، مسند أحمد ٥: ٣٨١ ح ١٦٣٠.

تجمع، وغيرها يفرّق، وأنّ أسباب هذه الأخوّة قائمة، والعقائد والعبادات وحدها كفيلة لذلك.

وهذا التقارب يوجب أن يعرف المسلمون بعضهم بعضاً، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

فالأولى بالتعارف هم أهل القبلة، الذين يدينون بدين الوحدانية، ودين الوحدة، ودين الاجتماع، وهم أمّة واحدة بحكم القرآن.

لقد كان المسلمون في الصدر الأول أمّةً واحدةً في الواقع، كما كانوا أمّةً واحدةً بحكم القرآن وهدي النبيﷺ، وكان النبيﷺ يقول: **«ليس منّا مَن دعا إلى عصبية»**[2] وبيّن أنّ مَن دعا إلى عصبية إقليمية أو جنسية أو نسبية فإنّما يكبّ على وجهه في النار.

وقد تفاخر قوم أمام سلمان الفارسي بأنسابهم، وهو صامت لايتكلّم، حتى ألّحوا عليه بالسؤال، وقالوا له: ابن مَن أنت؟ فقال: أنا ابن الإسلام، فوجموا جميعاً، ولم ينبسوا ببنت شفة؛ لأنّه بيّن لهم حقيقة النسب الذي يجب أن يتلاقى عنده أهل الإيمان[3].

(ب) تقارب ثقافي وفكري واجتماعي يجمع بين المشاعر والأحاسيس والفكر، حتّى يقرأ كل مسلم ما يقرأه الآخر، ويحاربوا كلّ ما كان فيه هدم للإسلام، ويتّفقوا على ما فيه رفعة له، واعزاز للمسلمين، وأن يكون المجتمع الإسلامي قائماً على

---

١ ـ الحجرات: ١٣.

٢ ـ بحار الأنوار ٧٠: ٢٨٣، كنز العمّال ٣: ٥١٠ ح ٧٦٥٧.

٣ ـ كنز العمّال ١٣: ٤٢١ ح ٣٧١٢١.

مبادئ الإسلام الصحيحة.

إنّ التقارب الفكري والثقافي والنفسي لايحتاج إلى انشاء، وإنّما يحتاج إلى توجيه وجمع، فإنّ الأصل قائم ثابت، وحيثما اتجهت إلى أيّ بلد إسلامي فإنّك تحسّ بأنس التوافق النفسي والفكري، وتجد الفكرة الجامعة بين المسلمين قائمة، لدرجة أنّه لايوجد بين أهل دين أو أهل مذهب اقتصادي كان أو اجتماعي، مَن تتلاقى أفكارهم حول اتجاه معيّن لايحول ولايزول كما تجده بين المسلمين.

فقد اتّفق المسلمون جميعاً على أنّ الإسلام له مصدر واحد، هو نصوصه المحكمة، وهي نصوص القرآن التي لاتقبل تغييراً ولاتبديلاً، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] وأقوال النبي ﷺ، وإذا كانت بعض الطوائف تختلف في طريقة روايتها، فإنّ الأصل الذي يقوم عليه عمود الدين وفقه الإسلام وأحكامه متّفق عليها، وإذا كانوا ينتهون إلى حكم واحد في أصول الإسلام، والإقرار بجملة السنّة التي تدلّ على هذه الأصول، فإنّ الغاية قد اتّحدت، وأصل الوحدة الثقافية قد ثبت من غير نكير، ومن غير عناد ولاتنابز بالألقاب، وإذا كانت بعض أنواع الجدل قد وقعت وما زالت تقع، فذلك ضرّ في شيء، وسببه أحياناً قلّة الثقافة وضيق الفكر، لا من اختلاف الثقافات وتباينها.

إنّ هذه حقيقة ثابتة لا مجال للريب فيها، وهي وجود نواة التقارب الفكري والثقافي والنفسي في كل البلاد الإسلامية، مهما اختلفت الطوائف والمذاهب، ولكنّ الأمر الذي نريده هو تقوية هذا التقارب والعمل على إنمائه، وإيجاد مجتمع فكري موحّد يبني دعائم الإسلام، ويقف حاجزاً دون النزعات المنحرفة التي تتغلغل بين صفوفه، وتلقي بالريب على حقائقه، ويكشف زيغ أولئك الذين اصطنعهم الأعداء المغرضون.

---

١ ـ فصّلت: ٤٢.

ونريد مع هذا جمع تراث الماضين، لا فرق في ذلك بين التراث الذي تركه السابقون من الشيعة أو غيرهم من أئمة المذاهب المعروفة، فكلّ ذلك تراث السابقين، وثمرات غرس الموحّدين، فهو تراثنا جميعاً، لا فرق في ذلك بين سنّي وغيره.

(ج) أن لايحارب بلد إسلامي بلداً إسلامياً آخر، أيّاً كانت أساليب هذه الحرب، سواء كانت اقتصادية أو إعلامية أو حرباً حقيقية، فهي في كل أشكالها إضعاف لقوى الإسلام وحطّ من شأنه، وقد أمرنا ديننا أن نصلح بين المسلمين إن تنازعت منهم طائفتان، وأمرنا بأن يقضي كل مسلم حاجة أخيه المسلم، فقد قالﷺ: **«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»**[1].

(د) ألا يكون العالم الإسلامي منحازاً إلىٰ جانب من الجوانب، ولايحاول أن يتّجه إلى جانب دون جانب، فتلك عصبية مذهبية أو طائفية، تلتقي مع العصبية الجاهلية في نتائجها وثمراتها وإن خالفتها في منهجها وأساليبها، فتلك نعرة عصبية نَسَبية، وهذه انحراف فكري وتعصّب مذهبي.

(هـ) تأكيد التقارب بين الطوائف الإسلامية، عن طريق دراسة التراث الإسلامي دراسة شاملة لاتقبل التجزئة، بحيث تدرس كل طائفة ما عند الطائفة الأخرى، لكي يتمّ التقارب ما بين الطوائف، وتزول تلك النفرة غير الطبيعية التي خلفتها الأيام السابقة.

إنّ محو الفوارق الطائفية يجب أن يكون غاية تسعى كلّ المذاهب الإسلامية للوصول إليها، ذلك لأنّ أسباب الخلاف قد زالت، ومن الخطأ أن نتمسّك بالاختلاف الطائفي وأسبابه قد زالت، والخلاف الطائفي في الوقت الحاضر يشبه أن يكون نزعة عنصرية، ولأنّ الذين يريدون الكيد للإسلام يتّخذون من الخلاف بين الطوائف منفذاً

---

١ ـ الكافي ٢: ١٦٠ ح ٥، وسائل الشيعة ١٦: ٣٧١ ح ٢.

يتسلّلون من خلاله لتهديم الوحدة الإسلامية، فيجب أن نسدّ عليهم هذا المنفذ.

و ـ التفاهم على أنّا لسنا نقصد بمحو الطائفية محو المذهبية، ودمج المذاهب الإسلامية في مذهب واحد، فإنّ ذلك لن يكون عملاً مفيداً في حدّ ذاته، وقد يكون ذلك مستحيلاً.

كما أنّ الاتفاق في الفروع الفقهية كلّها على رأي واحد أمر غير ممكن كذلك، بل هو من قبيل المستحيل أيضاً، فإذا تجرّد الفقهاء من التعصّب المذهبي ـ وذلك شرط أساسي ـ لا يمكن أن نقرّر اتّفاق نزعاتهم الفكرية وبيئاتهم الاجتماعية.

فإذا دعونا إلى محو الطائفية، فمعنى ذلك: ألّا تكون تلك الجماعة التي تتحيّز في موضع من الأرض بعنوان طائفي، وتعتبر نفسها فكراً منفصلاً عن غيره من المسلمين بما تتّجه إليه، وإنّما المذهب باقٍ يعتنقه مَن يشاء، ويتمذّهب به مَن يريد، بل وجود الاختلاف ينمّي المذهب ويحييه، وإنّ الانحياز إلى طائفة معيّنة قد يكون حجاباً يمنع غيره من أن يدرك ما في هذا المذهب من آراء صالحة ذات فائدة خاصّة، أو ذات دليل أقوى، أو أقرب ملائمة للناس من غير مخالفة للنصوص، ولا إهمال لها، ولا مخالفة للأوامر الشرعية الثابتة التي لا يصحّ لمسلم أن يخالفها [١].

إهتمام العلّامة بمسائل المجتمع ووحدته في تفسيره

للعلّامة الطباطبائي ﷺ اهتمام خاصّ بأمر المجتمع، وقد بحث في مسائل الاجتماعية في تفسيره في كل مناسبة منحت له بذلك، فقد خصّص باباً ثابتاً فيه لبحث القضايا الاجتماعيه المعاصرة منها والقديمة وسمّاه (البحث الاجتماعي)، وسنورد بعضاً من آرائه في المجتمع الإسلامي لاحقاً.

---

١ ـ أنظر مقالات الشيخ محمد أبو زهرة المنشورة في مجلة رسالة الاسلام، السنة العاشرة، الأعداد: ٣٧، ٣٨، ٣٩.

يؤكّد العلّامة بأنّ الإنسان نوع اجتماعي، وأنّ كلّ فرد من هذا النوع منفطر على ذلك، وقد أنبأ القرآن الكريم عن هذا أحسن إنباء في آيات كثيرة، كقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[١].

ويعتقد بأنّ الإسلام دين اجتماعي، والوحدة الاجتماعية حاجة حقيقية للإنسانية، والدعوة إلى الوحدة لاتكون ضرورة عصرية بل سعادة بشرية لتذوّق لذّة الحياة، والوصول إلى أهداف الخلقة متوقّف عليها.

وهو يعتقد بأنّ المجتمع الانساني يتكامل بتكامل الانسان في حياته المادية والمعنوية، ويجب أن تكون تدريجية حتى يصل الإنسان إلى الكمال المنشود.

كان يرى المجتمع الإنساني وحدة واحدة في التركيب تحت سيطرة الواحد، كأعضاء الإنسان، فأفراد الإنسان على كثرتهم إنسان واحد، وأفعالهم كثيرة عدداً واحداً نوعاً، وهي تجتمع وتأتلف كالماء الذي يقسّم في أواني متعدّدة فهي مياه كثيرة ذات نوع واحد، وهي ذات خواصّ كثيرة ولكن نوعها واحد، وكلّما جمعت المياه في مكان واحد قويت تلك الخاصيّة وعظم أثرها.

والقرآن الكريم يخبر أنّ أوّل ما نبّه الإنسان بالاجتماع تفصيلاً، واعتنى بحفظه استقلالاً نبّهته به النبوّة، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[٢].

وقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ...﴾[٣].

---

١ ـ الحجرات: ١٣.

٢ ـ يونس: ١٩.

٣ ـ البقرة: ٢١٣.

حيث ينبئ أنّ الانسان في أقدم عهوده كان أمّة واحدة ساذجة، لا اختلاف بينهم، حتى ظهرت الاختلافات وبانت المشاجرات، فبعث الله الأنبياء وأنزل معهم الكتاب؛ ليرفع به الاختلاف، ويردّهم إلى وحدة المجتمع محفوظين بالقوانين المشرّعة، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدّينِ... أَن أَقيموا الدّينَ ولَاتَتَفَرَّقوا فيهِ...﴾[١].

فلم تبدأ الدعوة إلى الاجتماع كدعوة مستقلّة صريحة، إلّا من ناحية النبوّة في قالب الدين، كما يصرّح به القرآن، والتاريخ يصدّقه على ذلك.

ولا ريب أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي أسّس بنيانه على الاجتماع صريحاً، ولم يهمل أمر المجتمع في أقلّ شأن من شؤونه، وأنفذ روح الاجتماع في أحكامه وتعاليمه غاية ما يمكن من الانفاذ.

فأوّل نداء قرع سمع النوع الإنساني، ودعاه الى الاعتناء بأمر المجتمع، بجعله موضوعاً مستقلاً خارجاً عن زاوية الإهمال وحكم التبعية، هو الذي نادى به صادع الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام، فدعى الناس بما نزل عليه من آيات ربّه إلى سعادة الحياة وطيب العيش مجتمعين، فقد قال تعالى:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا... وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ (يشير إلى حفظ المجتمع عن التفرّق والتشرذم) وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا

---

١ ـ الشورى: ١٣.

٢ ـ الأنعام: ١٥٣.

جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١] إلى غير ذلك من الآيات الاخرى الداعية إلى أصل الاجتماع والاتحاد.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٢].

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [٣].

وقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [٤].

إلى غير ذلك من الآيات الآمرة ببناء المجتمع الإسلامي على الاتفاق والاتحاد في حيازة منافعها ومزاياها المعنوية والمادية والدفاع عنها.

وهذه الرابطة الحقيقية بين الفرد والمجتمع لا محالة تؤدي إلى كينونة أخرى فيه حسب ما يمدّه الأشخاص من وجودهم وقواهم وخواصّهم وآثارهم، ولذلك اعتبر القرآن للأمّة وجوداً وأجلاً، وكتاباً وشعوراً، وفهماً وعملاً، وطاعة ومعصية، فقال تعالى: ﴿ولِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ اَجَلُهُم لَا يَستَأخِرونَ سَاعَةً ولَا يَستَقدِمون﴾ [٥].

وهذا هو الملاك في اهتمام الإسلام بشأن المجتمع، ذلك الاهتمام الذي لا نجد ولن نجد ما يماثله في واحد من الأديان الأخر، ولا في سنن الأمم المتمدّنة. فوضع أهمّ أحكامه وشرائعه، كالحج والصلاة والجهاد والانفاق... على مبنى التقوى التى هي اللبنة الأولى في أساس بناء المجتمع، وعلى هذا فإنّ الإسلام تفوّق سنّة سائر الأديان في اهتمامه في بناء المجتمع الصالح.

---

١ ـ آل عمران: ١٠٣ ـ ١٠٥.

٢ ـ الحجرات: ١٠.

٣ ـ الأنفال: ٤٦.

٤ ـ المائدة: ٢.

٥ ـ الأعراف: ٣٤.

وقد نبّه العلّامة بأنّ المجتمع الإسلامي شعاره الوحيد هو اتّباع الحق عملياً ونظرياً، والمجتمع المدني الحاضر شعاره اتّباع ما يراه ويريده الأكثر، وهذان الشعاران يوجبان اختلاف الغاية في المجتمع المتكوّن.

ولا ريب أنّ المجتمع ـ أيّ مجتمع كان ـ إنّما يتحقّق ويحصل بوجود وغاية واحدة مشتركة بين أفراده المتشتتة، وهي الروح الواحدة السارية في جميع أطرافه، التي تتّحد بها بشكل من الأشكال، وهذه الغاية والغرض في نوع المجتمعات المتكوّنة غير الدينية، إنّما هي غاية الحياة الدنيوية للإنسان، لكن على نحو الاشتراك بين الأفراد، لا على الأشخاص والافراد، وهي التمتع من مزايا الحياة المادّية على نحو الاجتماع. ولكنّ الإسلام لما كان يرى أنّ الحياة الإنسانية أوسع مداراً من الحياة الدنيا المادّية، بل في مدار حياته الحياة الأخروية التي هي الحياة، ويرى أنّ هذه الحياة لاتنفع فيها إلّا المعارف الإلهية التي تنحل بجملتها إلى التوحيد، ويرى أنّ هذه المعارف لاتحفظ وتدوم إلّا بمكارم الاخلاق وطهارة النفس من كل رذيلة. ويرى أنّ هذه الاخلاق لاتتمّ ولاتكتمل إلّا بحياة اجتماعية صالحة، معتمدة على عبادة الله سبحانه والخضوع لما تقتضيه ربوبيته، ومعاملة الناس على أساس العدل الاجتماعي، أخذ ـ أعني الإسلام ـ الغاية التي يتكوّن عليها المجتمع البشري ويتوّحد بها دين التوحيد، ثمّ وضع القانون الذي وضعه على أساس التوحيد، ولم يكتفِ فيه على تعديل الإرادات والأفعال فقط، بل تمّمه بالعباديات، وأضاف إليها المعارف الحقّة والأخلاق الفاضلة.

ويؤكّد العلّامة بأنّ الإسلام حال دون أصل التفرّق من أن يؤثر في تكون المجتمع أثره، ذلك التفرّق الذي كان سببه الأصلي الحياة البدوية والعيش على شكل قبائل وبطون، أو اختلاف منطقة المعيشة والوطن، وهذان ـ أعني البدوية واختلاف مناطق الأرض في طبائعها الثانوية، من حرارة وبرودة وجدب وخصب

وغيرهما ـ هما العاملان الأصليان لتفرّق النوع الانساني شعوباً وقبائل، واختلاف ألسنتهم وألوانهم على ما بيّن في محله، ثمّ صارا عاملين لحيازة كل قوم قطعة من قطع الأرض، على حسب مساعيهم في الحياة وبأسهم وشدتهم، وتخصيصها لأنفسهم وتسميتها وطناً يألفونه ويذّبون عنه بكل قوّتهم.

وهذا وإن كانت الحاجة ساقتهم إلى تلك الطبيعية، التي تدفعهم الفطرة إلى تحصيلها، غير أنّ فيها خاصيّة تنافي ما يستدعيه أصل الفطرة الإنسانية من حياة النوع في مجتمع واحد، فإنّ من الضروري أنّ الطبيعة تدعو إلى اجتماع القوى المتشتته وتآلفها وتقويها بالتقارب والوحدة لتنال ما تطلبه من غايتها الصالحة بوجه أتمّ وأصلح، وهذا أمر مشهور من حال المادة الأصلية حتى تصير عنصراً ثم... ثمّ نباتاً ثمّ حيواناً ثمّ إنساناً.

والتفرّق في الأوطان تسوق الأمة إلى الوحدة في مجتمعهم بحيث ينفصل عن المجتمعات الأخرى، فيصير واحداً منفصل الروح والجسم عن المجتمعات الوطنية الأخرى، فتنعزل الإنسانية عن الوحدة والتجمّع، وتبتلى بالتفرّق والتشتت، التي كانت تفرّ منه، ويتسلّط أحد المجتمعات فيسيطر على بقية المجتمعات الاخرى بما يعامل به الإنسان سائر الأشياء الكونية من استخدام واستثمار، وغير ذلك، والتجربة الممتدة بامتداد العصور منذ أوّل الدنيا إلى يومنا هذا تشهد بذلك. وهذا هو السبب في أن الغى الإسلام هذا التفرّق والتشتت وحتى الفروق، وبنى المجتمع على العقيدة دون الجنسية والقومية والوطن ونحو ذلك.

كيف يتّقي المجتمع مهلكة الاختلاف؟

يؤكّد العلّامة بأنّ اختلاف العوامل الذهنية والخارجية مؤثّرة في اختلاف الأفهام، من حيث تصوّرها وتصديقها ونيلها وقضائها، وهذا يؤدّي إلى الاختلاف في الأصول التي بني على أساسها المجتمع الإسلامي، إلّا أنّ الاختلاف بين شخصين

في الفهم ـ على ما يقضي به علم معرفة النفس والأخلاق والاجتماع ـ يرجع إلى أحد أمور:

(١) اختلاف الأخلاق النفسية والصفات الباطنة من الملكات الفاضلة والرديئة، فإنّ لها تأثيراً كبيراً في العلوم والمعارف الانسانية، من حيث الاستعدادات المختلفة التي تودعها في الذهن.

(٢) اختلاف الأفعال، فإنّ الفعل المخالف للحقّ كالمعاصي وأقسام الخطايا الانسانية، ومن هذا القبيل أقسام الإغواء والوساوس، يلقّن الإنسان وخاصّة العامّي الساذج الأفكار الفاسدة، ويُعدّ ذهنه لدبيب الشبهات وتسرّب الآراء الباطلة فيه، وتختلف إذ ذاك الأفهام وتتخلّف عن اتّباع الحقّ!

(٣) الاختلاف من جهة العوامل الخارجية، كبعد الموطن وعدم بلوغ المعارف الدينية إلّا يسيرة أو محرّفة، أو قصور فهم الإنسان عن تعقّل الحقائق الدينية تعقّلاً صحيحاً، وعلاجه تعميم التبليغ والإرفاق في الدعوة والتربية، وهذان من خصائص السلوك التبليغي في الإسلام، قال تعالى:

﴿قُل هـٰذِهِ سَبيلي أَدعوا إِلَى اللّٰهِ عَلىٰ بَصيرَةٍ أَنا ومَنِ اتَّبَعَني﴾ [١].

فهذه الأسباب هي ما يتقّى به وقوع الاختلاف في العقائد، أو يعالج بها إذا وقعت، وقد قرّر الإسلام لمجتمعه دستوراً اجتماعياً فوق ذلك، يقيه عن دبيب الاختلاف المؤدّي إلى الفساد والانحلال، فقد قال تعالى:

﴿وأَنَّ هـٰذا صِرٰطي مُستَقيماً فَاتَّبِعوهُ ولاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبيلِهِ ذٰلِكُم وصـّٰكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقون﴾ [٢].

---

١ ـ يوسف: ١٠٨.

٢ ـ الأنعام: ١٥٣.

فوضّح لهم أنّ وحدتهم في اتّباع الصراط المستقيم، وحذّرهم عن اتباع سائر السبل فبهذا السلوك يحفظهم عن التفرّق ويضمن لهم الاتحاد والاتفاق.

وتدلّ الآيات على وجوب أن يجتمعوا على معارف الدين ويوحّدوا أفكارهم ويمتزجوا في التعليم والتعلم، فيستريحوا من كلّ حادث فكري أو شبهة ملقاة في الآيات المتلوّة عليهم، والتدبّر فيها لحسم شبهة الاختلاف، وقد قال تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرونَ القُرءانَ ولَو كانَ مِن عِندِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدوا فيهِ اختِلافاً كَثيراً﴾ [١]، ويؤكّد القرآن بأنّ التدبّر فيه، أو الرجوع إلى مَن يتدبّر فيه، يرفع الاختلاف من الموضوع بشكل كامل.

ويدلّ على أنّ الرجوع إلى الرسول ـ وهو الحامل لثقل الدين ـ يرفع من بينهم الاختلاف، ويبيّن لهم الحقّ الذي يجب عليهم أن يتّبعوه، قوله تعالى: ﴿وأَنزَلنا إِلَيكَ الذِّكرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيهِم ولَعَلَّهُم يَتَفَكَّرون﴾ [٢].

وقريب منه قوله تعالى: ﴿ولَو رَدّوهُ إِلَى الرَّسولِ وإِلىٰ أُولِي الأَمرِ مِنهُم لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَستَنبِطونَهُ مِنهُم﴾ [٣].

ومنه يظهر أنّ هذا الدين، كما يعتمد بأساسه على المحافظة على معارفه الخاصّة الإلهية،كذلك يسمح للناس بالحرية التامّة في الفكر،ويرجع سببه إلى أنّ من الواجب على المسلمين أن يتفكّروا في حقائق الدين ويجتهدوا في معارفه، تفكّراً واجتهاداً، بالاجتماع والمرابطة، وإن حصلت لهم شبهة في شيء من حقائقه ومعارفه أو لاح لهم ما يخالفها فلا بأس به، وإنّما يجب على صاحب الشبهة أو النظر المخالف أن يعرض ما عنده على كتاب الله، بالتدبّر في البحث، والتقصّي عن حقائقه الاجتماعية،

---

١ ـ النساء: ٨٢.

٢ ـ النحل: ٤٤.

٣ ـ النساء: ٨٣.

فإن لم يداوِ داءَه عرضه على الرسول أو من أقامه مقامه حتى تنحلّ شبهته، أو يظهر بطلان ما لاح له إن كان باطلاً، قال تعالى:

﴿أَلَّذينَ يَستَمِعونَ القَولَ فَيَتَّبِعونَ أَحسَنَهُ أُولئكَ الَّذينَ هَدئهُمُ اللّـهُ وأُولئكَ هُـم أولوا الأَلبْاب﴾ [1].

وهذا أحسن ما يمكن أن يدبّر به أمر المجتمع، في فتح باب الارتقاء الفكـري على مصراعيه مع الحفاظ على حياته الشخصية، وأمّا تحميل الاعتقاد على النفوس، والختم على القلوب، وإماتة غريزة الفكر في الانسان عنوةً وقهراً، واستخدام العنف والقوة في الاجبار على قبول فكرة الغير، سواء كان أو بالتكفير أو بالتهجير، فحاشا ساحة الحق والدين القويم أن يرضى به أو يشرّع ما يؤيده [2].

تفسير الميزان ومنهج التقارب

تفسير الميزان هو تفسير جامع حافل بمباحث نظرية تحليلية، ذات صبغة علمية فلسفية في الأغلب، جمع فيه المؤلّف إلى جانب الأنماط التفسيرية السائدة، أموراً ممّا أثارته النهضة الحديثة في التفسير، فقد تصدّى لما يثيره أعـداء الإسـلام مـن شبهات، وما يضلّلون به من تشويه للمفاهيم الإسلامية، بروح اجتماعية واعية، على أساس القرآن الكريم، وفهم عميق لنصوصه الحكيمة.

قال الدكتور محمد علي علوبة ـ من علماء أهل السنة ـ في شأن هذا التفسير حينما صدر منه جزآن:

«تفسير جديد للقرآن الكريم لسماحة العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي، من

---

١ ـ الزمر: ١٨.

٢ ـ ما كتبنا ملخّص كتاب: قضايا المجتمع والأسرة والزواج على ضوء القرآن الكريم، للعلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي: ٦ ـ ٦٢.

علماء الإمامية الأجلّاء... قرأنا مقدّمة هذا التفسير وبعض موضوعاته، ونحن على نية أن نستوعب الجزئين قراءةً وتدبّراً إن شاء الله تعالى، وقد وجدنا فيما قرأناه قوّة علمية متعمّقه في البحث، مع السهولة واليسر والبعد عن التشدّد، والتخفّف من المذهبية الخاصّة إلى حدّ بعيد، والرجوع إلى القرآن نفسه بتفسير بعضه ببعض، والنأي به عن الأقوال التي لاتصحّ من الروايات الكثيرة المختلفة، وعن الآراء التي ترجع إلى تأويل آياته، حتى توافق نظراً علمياً، أو تقليداً مذهبياً، أو أصلاً كلامياً، أو فلسفةً خاصّة، أو تجديداً حديثاً... إلى غير ذلك ممّا تلمحه في بعض التفاسير القديمة والحديثة».

ثمّ قال الأستاذ علوبة:

«ومن أبرز مزايا هذا التفسير أنّه يعنى ـ بعد شرح الآيات وبيان معناها ـ ببحث الموضوعات الهامّة، والقضايا التي كثيراً ما شغلت الأذهان في القديم والحديث، بحثاً مستمدّاً من آيات القرآن نفسها، وقد قرأنا من هذا ما كتبه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[1]، إذ بحث بحثاً جيداً في إعجاز القرآن من جهاته المختلفة، في بلاغته وقوّة أسلوبه، وتحدّيه بالعلم، وبالإخبار عن الغيب، وبمن أنزل عليه القرآن، وبعدم الاختلاف فيه، ثمّ تحدّث عمّا يثبته القرآن من قوانين وسنن كونية، كتصديقه لقانون العلّية العامّة، وإثباته ما يخرق العادة، ومن كون المؤثّر الحقيقي في الأشياء بتمام معنى الكلمة ليس إلّا الله عزّ سلطانه، ومن أنّ القرآن يعدّ المعجزة برهاناً على صحّة الرسالة لا دليلاً عامّياً، إلى غير ذلك من الجزئيات الهامّة التي تضمّنها هذا البحث الدقيق»[2].

---

١ ـ البقرة: ٢٣ ـ ٢٤.

٢ ـ رسالة الإسلام: ٢١٧ السنّة الثامنة، العدد ٣٠.

ولهذا التفسير القيّم مزايا جمّة نشير إلى أهمها:

١ ـ جمع بين نمطي التفسير الموضوعي والترتيبي، فقد فسّر القرآن آية فآية وسورة فسورة، لكنّه إلى جنب ذلك نراه يجمع الآيات المتناسبة بعضها مع بعض، ليبحث عن الموضوع الجامع بينها، فكلّما مرّ بآية ذات هدف موضوعي، وكانت لها نظائر منبثّة في سائر القرآن جاء بها ودرجها إلى جنبها.

٢ ـ عنايته التامّة بجانب الوحدة الموضوعية السائدة في القرآن، كلّ سورة ذات هدف أو أهداف معيّنة، تشكّل بنيان السورة بالذات، فلا تتمّ السورة إلّا عند اكتمال الهدف الموضوعي الذي رامته السورة، وبذلك نجد السور تتفاوت في عدد آياتها، يقول العلّامة في ذلك:

«إنّ لكلّ طائفة من هذه الطوائف من كلامه تعالى التي فصّلها قطعاً قطعاً، وسمّى كلّ قطعة سورة، نوعاً من وحدة التأليفالالتئام، لايوجد بين أبعاض من سورة، ولا بين سورة وسورة، ومن هنا نعلم أنّ الأغراض والمقاصدالمحصّلة من السور مختلفة، وأنّ كلّ واحدة منها مسوقة لبيان معنىً خاصّ ولغرض محصّل، لاتتم السورة إلّا بتمامه» [١].

٣ ـ اهتمامه بنظرية (الوحدة الكلّية) الحاكمة على القرآن كلّه، من خلال اشتماله على روح كلّية سارية في جميع آياته وسوره، وهي التي تشكّل حقيقة القرآن الأصلية السائدة على أبعاضه وأجزائه، يرى المؤلّف: أنّ وراء هذا الظاهر من ألفاظ وكلمات وحروف روحاً كلّية، كانت هي جوهر القرآن الأصيل، وكانت بمثابة الروح من الجسد في الانسان، قال في ذلك:

«فالمحصّل من الآيات الشريفة أنّ وراء ما نقرؤه ونعقله من القرآن أمراً، هو من القرآن بمنزلة الروح من الجسد، والمتمثّل من المثال، وهو الذي يسمّيه تعالى بالكتاب

---

١ ـ تفسير الميزان ١: ١٤.

الحكيم، وهو الذي تعتمد عليه معارف القرآن، وليس من سنخ الألفاظ ولا المعاني» [١].

٤ ـ الاستعانة بمنهج «تفسير القرآن بالقرآن» فقد حقّق المؤلّف هذا الأمر وأوجده بعيان، إذ نراه يعتمد في تفسيره على القرآن ذاته، فيرى أنّ غير القرآن غير صالح لتفسير القرآن، بعد أن كان هو تبياناً لكل شيء، فيا ترى كيف يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولايكون تبياناً لنفسه؟ لكن التزام تفسير القرآن بنفسه، يتطلّب جهداً بالغاً وإحاطة تامّة، وقد لمسناه في مفسّرنا العلّامة، ووجدناه على قدرة فائقة في ذلك. يقول هو في ذلك:

«الطريقة المرضية في التفسير هي أن نفسّر القرآن بالقرآن، ونشخّص المصاديق ونتعرّفها بالخواصّ التي تعطيها الآيات، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [٢] وحاشا القرآن أن يكون تبياناً لكلّ شيء ولايكون تبياناً لنفسه» [٣].

وقال ﷺ في منهجه:

«إنّ الاتّكاء والاعتماد على الأنس والعادة في فهم معاني الآيات يشوّش المقاصد منها، ويختلّ به أمر الفهم، كقوله تعالى: **﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ...﴾** [٤] وقوله: **﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** [٥] وقوله: **﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** [٦]. وهذا هو الذي دعا الناس أن لايقتصروا على الفهم العادي، والمصداق المأنوس به الذهن في فهم معاني الآيات، كما كان غرض

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ٥٥.

٢ ـ النحل: ٨٩.

٣ ـ تفسير الميزان ١: ٩.

٤ ـ الشورى: ١١.

٥ ـ الأنعام: ١٠٣.

٦ ـ الصافات: ١٥٩.

الاجتناب عن الخطأ والحصول على النتائج المجهولة، هو الذي دعا الإنسان إلى أن يتمسّك بذيل البحث العلمي، وأجاز ذلك للبحث أن يداخل في فهم حقائق القرآن وتشخيص مقاصده العالية، وذلك على أحد وجهين:

أحدهما: أن نبحث بحثاً علمياً أو فلسفياً أو غير ذلك عن مسألة من المسائل التي تتعرّض له الآية حتى نقف على الحقّ في المسألة، ثمّ نأتي بالآية ونحملها عليه، وهذه طريقة يرتضيها البحث النظري، غير أنّ القرآن لايرتضيها، كما عرفت.

وثانيهما: أن نفسّر القرآن بالقرآن، ونستوضح معنى الآية من نظيرتها، بالتدبّر المندوب إليه في نفس القرآن، ونشخّص المصاديق ونتعرّفها بالخواصّ التي تعطيها الآيات، كما قال تعالى: ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ...﴾[1].

وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولايكون تبياناً لنفسه، وقال تعالى: ﴿هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ...﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾[3]، وكيف يكون القرآن هدىً وبينةً وفرقاناً ونوراً مبيّناً للناس في جميع ما يحتاجون ولايكفيهم في احتياجهم إليه، وهو أشدّ الاحتياج ! وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[4]. وأيّ جهاد أعظم من بذل الجهد في فهم كتابه؟! وأيّ سبيل أهدى إليه من القرآن؟!...

ثمّ إنّ النبي ﷺ الذي علّمه الله القرآن، وجعله معلّماً للناس لتعليم كتابه، كما يقول تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ * عَلَىٰ قَلبِكَ﴾[5]، ويقول: ﴿وأَنزَلنا اِلَيكَ الذِّكرَ

---

١ ـ النحل: ٨٩.

٢ ـ البقرة: ١٨٥.

٣ ـ النساء: ١٧٤.

٤ ـ العنكبوت: ٦٩.

٥ ـ الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤.

لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيهِم﴾ [١] ويقول: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [٢] وعترته وأهل بيته الذين أقامهم النبيﷺ هذا المقام، في الحديث المتّفق عليه بين الفريقين: «**إنّي تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض**» [٣]، وصدّقه الله تعالى في علمهم بالقرآن، حيث قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [٥]، وكانت طريقتهم في التعليم والتفسير هذه الطريقة بعينها، على ما وصل إلينا من أخبارهم في التفسير...».

ثم يقول:

«وقد تحصّل من هذه البيانات الموضوعة على هذه الطريقة من البحث استفراغ الكلام فيما نذكره:

١ ـ المعارف المتعلّقة بأسماء الله سبحانه وصفاته، من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والوحدة وغيرها، وأمّا الذات فستطّلع أنّ القرآن يراه غنياً عن البيان.

٢ ـ المعارف المتعلّقة بأفعاله تعالى من الخلق والأمر، والإرادة والمشية، والهداية والإضلال، والقضاء والقدر، والجبر والتفويض، والرضا والسخط، إلى غير ذلك من متفرّقات الأفعال.

٣ ـ المعارف المتعلّقة بالوسائط الواقعة بينه وبين الإنسان، كالحجب واللوح

---

١ ـ النحل: ٤٤.

٢ ـ الجمعة: ٢.

٣ ـ بصائر الدرجات: ٤٣٣ ح ٣، ينابيع المودّة: ٣٨.

٤ ـ الأحزاب: ٣٣.

٥ ـ الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩.

والقلم، والعرش والكرسي، والبيت المعمور والسماء والأرض، والملائكة والشياطين والجن وغير ذلك.

٤ ـ المعارف المتعلّقة بالإنسان قبل الدنيا.

٥ ـ المعارف المتعلّقة بالإنسان في الدنيا، كمعرفة تاريخ نوعه، ومعرفة نفسه، ومعرفة أصول اجتماعه، ومعرفة النبوّة والرسالة، والوحي والإلهام، والكتاب والدين والشريعة، ومن هذا الباب مقامات الأنبياء المستفادة من قصصهم المحكيّة.

٦ ـ المعارف المتعلّقة بالإنسان بعد الدنيا، وهو البرزخ والمعاد.

٧ ـ المعارف المتعلّقة بالأخلاق الإنسانية، ومن هذا الباب ما يتعلّق بمقامات الأولياء في صراط العبودية، من الإسلام والإيمان، والإحسان والإخبات والإخلاص، وغير ذلك. وأمّا آيات الأحكام، فقد اجتنبنا تفصيل البيان فيها؛ لرجوع ذلك إلى الفقه.

وقد أفاد هذه الطريقة من البحث ارتفاع التأويل، بمعنى الحمل على المعنى المخالف للظاهر من بين الآيات، وأمّا التأويل بالمعنى الذي يثبته القرآن في مواضع من الآيات، فسترى أنّه ليس من قبيل المعاني. ثمّ وضعنا في ذيل البيانات متفرّقات من أبحاث روائية نورد ما تيسّر لنا إيراده من الروايات، المنقولة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام من طرق العامّة والخاصّة. وأمّا الروايات الواردة عن مفسّري الصحابة والتابعين، فإنّها على ما فيها من الخبط والتناقض لا حجّة فيها على مسلم. ويطلع الباحث المتدبّر في الروايات المنقولة عنهم عليهم السلام، أنّ هذه الطريقة الحديثة التي بنيت عليها بيانات الكتاب، أقدم الطرق المأثورة في التفسير التي سلكها معلّموه عليهم السلام.

ثم وضعنا أبحاثاً مختلفة، فلسفية وعلمية وتأريخية واجتماعية وأخلاقية، حسب ما تيسّر لنا من البحث، وقد أثرنا في كل بحث قصر الكلام على المقدّمات المسانخة له، من غير تعدّ عن طور البحث»[1].

---

١ ـ تفسير الميزان ١: ١١.

ما هو منهج التقارب في التفاسير؟

التقارب من مادة (قرب) التي تدلّ على معنى الدنوّ من الشيء، وإذا ضعّف الفعل كان من معانيه: محاولة القرب والتقارب أو التقريب بين المذاهب، وفقاً للمعنى اللغوي [1]، يعني: محاولة أن يكون بينها تعارف والتقاء، وهذا يومئ إلى أنّ بينها من زمنٍ حالةً من التنافر والتباعد، وإلّا لما كان لإطلاق لفظ التقارب معنى.

ولا اختلاف بين فِرَق المسلمين، بأنّ القرآن كتاب منزّل من الله، وهو آخر كتاب سماوي فيه ما يحتاج البشر للسعادة والفلاح، وأنّه حقّ، كما قال الله تعالى: ﴿وبِالحَقِّ أَنزَلنـهُ وبِالحَقِّ نَزَلَ﴾ [2] فيجب على الأمّة اتّباعه، كما أمر الله وترك ما يصرفهم عنه.

وقد نعلم أنّ الوحدة الفكرية مقدّمة ضرورية للوحدة السياسية، والأمّة الإسلاميّة يوحّد بينها ـ فكرياً ـ القيم الخالدة لدينها، والأصول الأساسية لعقيدتها، ولكنّ التعصّب المذهبي جعل بين أبناء هذه الأمّة وأصول عقيدتها وقيم دينها ستاراً كثيفاً من الجهل والنسيان، فلم يفرّقوا بين ما يجب الإيمان به وبين المعارف الفكرية التي تختلف فيها الآراء دون أن تمس القيم والأصول الكلّية للعقيدة، ولذا تفرّقوا وتنازعوا، وأصبح بأسهم بينهم شديداً، قديماً وحديثاً، ولن تتحقّق الوحدة الفكرية دون تقارب بين المذاهب، يُلغي التعصّب الكريه من جهةٍ، ويقود الأمّة إلى الوحدة الجامعة من جهةٍ أخرى.

فالتقارب ـ إذن ـ وسيلة لجمع الشمل ورأب الصدع، وتبادل حسن الظنّ والتقدير من أجل صيانة وحدة الأمّة. فما كان لأحدٍ أن يحجر على عقولٍ دعاها الله إلى النظر في ملكوته، أو يقصر الناس على إحدى طرائق الفهم أو بعض وسائل النظر، ولا يعني هذا تحبيذاً للاختلاف أو دعوةً إليه.

---

١. الصحاح ١: ١٩٨.

٢ ـ الإسراء: ١٠٥.

فيجب أن نعرف أنّ هذا النهي منصبّ على التفرّق في أصل الدين والتوحيد، وما يُطلب فيه القطع دون الظنّ، وأن ندرك أنّ الاختلافات التفسيرية لاتنسحب عليها دلالة ذلك النهي، فلا ضرر على المسلمين في أن يختلفوا، مع مراعاة الأصول والمباني التي نذكرها، فالاختلاف سنّة من سنن المجتمع، ولكنّ الضرر كلّ الضرر في أن يفضي بهم الخلاف إلى القطيعة والعداوة.

شروط تحقّق التقارب بين المفسّرين

١ ـ الاعتقاد بإسلام العلماء والمفسرين من المذاهب الإسلامية

إنّ أصول الإسلام التي لا اختلاف عليها بين المسلمين جميعاً، والتي لايكون المسلم مسلماً إلّا إذا أيقن بها، هي: الإيمان بالله رباً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وبالقرآن كتاباً، وبالكعبة قبلة وبيتاً محجوجاً، وبأركان الإسلام المعروفة، وبكل ما هو معلوم من الدين بالضرورة، وبأنّه ليس بعد الإسلام دين، ولا بعد رسوله نبي ولا رسول، وبأنّ كلّ ما جاء به محمّد ﷺ حقّ.

إنّ هذه الأصول المجمع عليها بين الأمّة تمثّل جوهر الإسلام أو أساسياته، وكلّ مَن يؤمن بها فهو مسلم، قد انعقدت بينه وبين سائر المسلمين في كلّ مكان أخوّة في الله ورسوله، مهما يكن المذهب الذي ينتمي إليه، وهذه الأخوّة يحرم معها أن يخذل مسلماً أو يعاديه أو يؤذيه، أو ينحاز إلى مَن يعاديه أو مَن يؤذيه.

وإذا كانت هذه الأصول هي الحدّ الفاصل بين المسلمين وغيرهم، أو هي فيصل التفرقة في الإيمان والكفر، فإنّ على أتباع المذاهب أن يعوا أنّ كلّ من حافظ على تلك الأصول وأخذ نفسه بها فهو مسلم، تجب مودّته ومحبّته ونصرته، وتحرم معاداته أو الإساءة إليه.

وممّا لا جدال فيه أنّ أتباع المذاهب المعتبرة الآن يطبقون على الإيمان بهذه

الأصول، فلا اختلاف بينهم فيها، فهم مسلمون جميعاً مهما يكن بينهم من اختلاف في غير تلك الأصول.

٢ ـ الاعتقاد بحرية الفكر والاجتهاد في الإسلام

الإسلام دين الدعوة إلى التفكّر والتدبّر والاجتهاد. ولاشكّ لأحد بأنّ الإسلام بنى نهضة علمية، ومهّد مجالات لتوسعة العلوم وتربية العلماء وأهل الفكر والنظر.

يقول العلّامة الطباطبائي:

«إنّ هذا الدين كما يعتمد بأساسه على التحفّظ على معارفه الخاصّة الإلهية، كذلك يسمح للناس بالحرية التامّة في الفكر، ويرجع محصّله إلى أنّ من الواجب على المسلمين أن يتفكّروا في حقائق الدين ويجتهدوا في معارفه، تفكّراً واجتهاداً بالاجتماع والمرابطة، وإن حصلت لهم شبهة في شيء من حقائقه ومعارفه، أو لاح لهم ما يخالفها فلا بأس به، وإنّما يجب على صاحب الشبهة أو النظر المخالف، أن يعرض ما عنده على كتاب الله، بالتدبّر في بحث اجتماعي، فإن لم يداوِ داءه عرضه على الرسول أو مَن أقامه مقامه، حتى تنحلّ شبهته، أو يظهر بطلان ما لاح له إن كان باطلاً، قال تعالى: ﴿أَلَّذينَ يَستَمِعونَ القَولَ فَيَتَّبِعونَ أَحسَنَهُ أُولئكَ الَّذينَ هَدئٰهُمُ اللهُ وأُولئكَ هُم أولوا الأَلبٰاب﴾[١]»[٢].

وينبّه العلّامة هنا إلى نقطة لايجوز الغفلة عنها، لأنّها سبب وقوع الاختلاف والنزاع بين أهل النظر، وفي النهاية الحرية في العقيدة والفكر على النحو الذي بيّناه، غير الدعوة إلى هذا النظر وإشاعته بين الناس قبل العرض، فإنّه مفضٍ إلى الاختلاف المفسد لأساس المجتمع القويم[٣].

---

١ ـ الزمر: ١٨.

٢ ـ تفسير الميزان ٤: ١٢٧.

٣ ـ المصدر السابق.

٣ ـ اعتماد الدراسة العلمية والعقلية في التفسير

وإذا كان الايمان ـ بأنّه لا اختلاف بيننا في الأصول ـ يعدّ البداية الصحيحة للتقارب، فإنّ الاختلاف في غيره يجب أن يدرس دراسة علمية، تبتغي المعرفة الصحيحة لأسبابه وملابساته وطبيعته، فهذه الدراسة تعدّ الوسيلة العملية لجعل التقارب حقيقة واقعية.

وإذا قامت دراسة اختلافات المفسّرين على مباني علمية تنتهي ـ لا محالة ـ إلى أنّ هذه الاختلافات لاتمثّل عقبة في طريق التقارب، فهي آية من آيات الحرية الفكرية في الإسلام، وكلّ من رأى كلاماً على هذا المنهج ـ وإن لم يتوافق مع رأي ذلك المفسّر ـ لايحكم عليه بالتعصّب، ولاتحركه العواصف التعصبية المذهبية على المقابلة بالمثل، بل يجعل جُهده بأن يبطل ما قاله على أساس علمي، أو أن يأتي بتفسير ورأي أحسن منه.

ولا شكّ أنّ الله قد جعل للإنسان العقل الذي هو حجّة الله على الإنسان يوم القيامة، يقول الله تعالى:

﴿ولَقَد أَضَلَّ مِنكُم جِبِلّاً كَثيراً أَفَلَم تَكوُنوا تَعقِلون﴾[1].

ولا إشكال أنّ قضايا العقول متّحدة، فإذا اتّبعتها الفرق فلابدّ أن تتّحد في مواضيع القضايا العقلية كلّها، وقد وقع التفرّق بسبب إهمال العقل في بعض المسائل من بعض الفرق. فتبيّن من هذا أنّ أوّل طريق من طرق الاتحاد هو الرجوع إلى قضايا العقل كلّها، والمراد القضايا المبتوتة لا المشروطة.

وعلى هذا يجب ترك التقليد في التفسير للواحد من المفسّرين، بل وللكثرة إذا كان سببها تقبّل التفسير من بعضهم بدون تأمّل وحريّة فكر، فيترك التقليد في

---

١ ـ يٰس: ٦٢.

التفسير على الإطلاق. ولازم ذلك الفهم الكامل والتأنّي حتى يحصل الفهم بلا تردّد، ومن المهم جعل القرآن فوق الأغراض والتعصّبات المذهبية، حتى لايفسّر القرآن على هواه، والله تعالى يقول: ﴿وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [١].

ومضافاً إلى ما قلنا، يجب مراعاة ما يلي:

أ) عدم فرض رأي مذهب معيّن على القرآن الكريم، استناداً إلى تأويل وفهم ذلك المذهب للقرآن.

ب) التفريق بين تأويل القرآن وتفسيره، وعدم الاستناد إلى التأويل لغرض إثبات العقيدة لمذهب معيّن.

ج) عدم الاعتماد على قطعية أسباب نزول الآيات القرآنية، ونقد ما خالف السياق القرآني، خصوصاً ما فقد الدليل القطعي منها.

٤ ـ التوسّع في مجال الدراسة التفسيرية

إذا كان الحكم على الشيء فرعاً من تصوّره، وكان الأمر كما يقال: «إنّ من جهل شيئاً عاداه»، وكان منهج الإسلام الدقيق يقوم على التثبّت من كلّ خبر، ومن كلّ ظاهرة، ومن كلّ حركة قبل الحكم عليها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [٢] إذا كان الأمر كذلك، فإنّ كثيراً من مظاهر التعصّب والازدراء بين أتباع المذاهب مردّها إلى جهل أتباع كلّ مذهب ما لدى غيرهم بوجه عامّ، وحصر أنفسهم في دائرة المؤلّفات المذهبية الخاصّة، والنتيجة الحتمية لهذا الانكماش، هو القناعة بأنّ ما لدى المفسّر من الآراء المذهبية هي الحقّ، والدين الذي لايجوز لأحد أن يفرّط فيه أو يخالفه،

---

١ ـ ص: ٢٦.

٢ ـ الإسراء: ٣٦.

ويترتّب على هذا تبادل التهم بين أتباع المذاهب، وزعم كلّ طائفةٍ أنّها على الحقّ دون سواها.

ويساعد على إزالة جفوة الجهل بين أتباع المذاهب، والانكباب على مؤلّفات مذهب دون غيره، والوقوف على الآراء والاجتهادات في التراث كلّه: الاهتمام بجميع الآراء التفسيرية، وحفظ الحياد والابتعاد التامّ عن الجدال المذهبي المقيت.

٥ ـ وعي الرأي العامّ بالثوابت

وما دامت الأمّة لاتختلف حول الأصول الثابتة، والتي بها يكون المسلم مسلماً، ويرجع اختلافها في الأمور الظنيّة إلى أسباب علمية، ولاتمثّل هذه الاختلافات مشكلة جوهرية للتقريب، إذا فهمت على وجهها الصحيح، وما دام الواجب على أتباع المذاهب أن يجنّبوا بأنفسهم عن القول في أمرٍ دون علمٍ به، وينسبوا لأحدٍ رأياً دون تحقيق أو توثيقٍ، أو أن يظلّوا في حالة نفورٍ وازورارٍ عن تراث غير المذهب الذي يقلّدونه، فلايلمّون به أو يدرسونه، فإنّ على المفسّرين والعلماء أن يهتموا بتوعية الرأي العامّ، بالثوابت التي تجمع بين أبناء الأمّة الإسلاميّة، وأن يوضّحوا لهم أنّ قاعدة الالتقاء بين هؤلاء الأبناء عريضة، وأنّ مظاهر الاتفاق أكثر من مظاهر الاختلاف، وأنّ هذه المظاهر لاينبغي أن تفرّق بينهم، فهي رحمة وسعة وتيسير، فلايجوز أن تصبح مصدر فتنةٍ وتمزيق.

٦ ـ الكفّ عن التشنيع والاستفزاز

ولكي تنجح تلك الخطوات في تحقيق التقارب بين المذاهب، ينبغي أن تتوقّف الأقلام، وتكفّ الألسن عن لغة التشنيع والاستفزاز والاستخفاف والتحامل، وإثارة المشاعر والخواطر، على نحوٍ يعمّق سوء الظنّ والنفور والتباعد بين أتباع المذاهب، وذلك بترديد ما اشتمل عليه التراث التفسيري، سيما في عصور الضعف، والتقليل من

آراء وأقوالٍ لو صدّقها المسلمون الآن لاستحلّ بعضهم دماء بعضٍ، كما حدث في الماضي، بل وكما حدث في الحاضر القريب.

إنّ على العلماء والمفكّرين أن يكفّوا عن اجترار الروايات والآراء التي لاتعبّر إلّا عن تعصّب كريه وفقهٍ سقيمٍ، والتي لا نجني من وراء إحيائها وترديدها إلّا المزيد من التفرّق والتنازع، والأمّة في عصر أحوج ما تكون فيه لجمع شملها، والوقوف صفاً واحداً أمام الذين يتربّصون بها ويصطادون في الماء العكر، ويزعمون أنّهم يقدّمون لنا حقائق تاريخنا مدعمة بالأدلة العلمية، وهم في الواقع ثعالب ماكرة يتحسّسون في خبث طريقهم، من أجل التهام الفريسة والقضاء عليها.

٧ ـ ترك الأحقاد عند كتابة التفسير

ومن اللوازم الأخرى: أن ينسى العلماء والمفسّرون أحقادهم التي أورثهم الاهتمام باللجاجات المذهبية ونسيان واجبهم الشرعي، وهو كشف القناع عن أستار حقائق كتاب الله، والتوغّل في آيات الله، حتى يتبيّن لهم المعاني بالاستناد إلى نفس القرآن؛ لأنّه يفسّر بعضه بعضاً، فيعودوا كما تركهم رسول الله ﷺ أمّةً واحدةً عزيزةً كريمةً تشعر بعزتها وكرامتها.

٨ ـ الاعتقاد بمنهج التقارب والاهتمام بوحدة المسلمين

وفي النهاية: أن يعتقد المفسّرون وعلماء المسلمين، بأنّ الوحدة الإسلاميّة واجبة شرعاً، فليست عملاً ترغيبياً يُدعى إليه، وإنّما هي أمر واجب يلزم كلّ مسلمٍ، وسيُسألُ عنه يوم الدين، ولهذا كان كلّ ما يؤدّي إلى الوحدة فهو واجب؛ لأنّ ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب، والتقارب بين المذاهب يجمع الأمّة على الأصول الكلّية، ولا يجعل للاختلافات الجزئية أثراً في الوحدة، فهو بهذا يكون أمراً مطلوباً شرعاً؛ لأنّه وسيلة إلى غايةٍ مفروضةٍ، والوسيلة تأخذ حكم الغاية ما دامت تنتهي إليها.

العلّامة ومنهج التقارب في التفسير

لقد بذل السيّد العلّامة نهاية جهده لتفسير القرآن على المنهج العلمي والعـقلي، وعلى أساس المباني المتّفق عليها بين المفسّرين، مع إلغاء كلّ تعصّب كريه. وهو من العلماء الذين عملوا في دأب وإخلاص حتى يتخلّص علماء الأمّة من الخصومات التعصبية.

إنّ العلّامة الطباطبائي من المعتقدين بحرية الفكر والنظر في الإسلام، حيث يقول: **«إنّ هذا الدين كما يعتمد بأساسه على التحفّظ على معارفه الخاصّة الإلهية، كذلك يسمح للناس بالحرية التامّة في الفكر، ويرجع محصّله إلى أنّ من الواجب على المسلمين أن يتفكّروا في حقائق الدين ويجتهدوا في معارفه، تفكّراً واجتهاداً بالاجتماع والمرابطة»** [1].

ويتعامل مع آراء المفسّرين من غير مذهبه، معاملة آراء العالم المفسّر المسلم، ولا يلوح من كلماته في تفسيره كلّه أن يعتقد بعدم جريان حكم المسلم على واحد من المفسّرين من غير الشيعة الإمامية، بل لا يرى تفاوتاً في نقل الآراء وترجيح رأي، بأن كان صاحب الرأي من أهل مذهبه أم لا.

فهو يدرس الاختلاف في الآراء التفسيرية دراسة علمية، تبتغي المعرفة الصحيحة لأسبابه وملابساته وطبيعته، ويعتقد بالحرية الفكرية في المجالات النظرية ووضعَ آرائه على أساس القضايا العقلية المسلّمة. ولا إشكال أنّ قضايا العقول متّحدة فإذا أتّبعها عالم فلابدّ أن يتّحد في مواضيع القضايا العقلية كلّها، وقد وقع التفرّق بسبب إهمال العقل.

وترك السيّد التقليد في التفسير لواحد من المفسّرين، ولا يقبل التفسير بدون تأمّل وتحرير فكر.

وتستند آراء العلّامة على أسس ثابتة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ١٢٧.

إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [١]، وما حصر نفسه في دائرة المؤلّفات المذهبية الخاصة، وهو واضح لمن شاهد منهجه هذا في تفسيره الميزان.

ويأبى السيّد العلّامة عن القول في أمرٍ دون علمٍ به، وأن ينسب لأحدٍ رأياً دون تحقيق أو توثيقٍ، أو أن يظلّ في حالة نفورٍ وازورارٍ عن تراث غير المذهب الذي يعتقد به، ويهتمّ بتوعية الرأي العامّ بالثوابت التي تجمع بين أبناء الأمّة الإسلاميّة ولايمكن أن ترى في تفسيره "الميزان في تفسير القرآن" لغة التشنيع والاستفزاز والاستخفاف والتحامل، وإثارة المشاعر والخواطر، على نحوٍ يعمّق سوء الظنّ والنفور والتباعد بين أتباع المذاهب.

وإذا قرأت كلمات العلّامة في تفسيره لاتحسّ حقداً ولا عداوة باللجاجات المذهبية، وأوجب على نفسه كشف القناع عن أستار حقائق كتاب الله ودراسة آياته فقط.

ويشهد له الدكتور محمد علي علوبة ـ من أجلّاء علماء أهل السنّة ـ في مقالته في شأن تفسير "الميزان" حين صدر جزآن منه في حياة العلّامة الطباطبائي، يقول:

«تفسير جديد للقرآن الكريم، لسماحة العلّامة السيّد محمد حسين الطباطبائي، من علماء الإمامية الأجلّاء... قرأنا مقدّمة هذا التفسير وبعض موضوعاته،... وقد وجدنا فيما قرأناه قوّة علمية متعمّقة في البحث، مع السهولة واليسر والبعد عن التشدّد، والتخفّف من المذهبية الخاصّة إلى حدٍ بعيد، والرجوع إلى القرآن نفسه بتفسير بعضه ببعض، والنأي به عن الأقوال التي لاتصحّ من الروايات الكثيرة المختلفة، وعن الآراء التي ترجع إلى تأويل آياته حتى توافق نظراً علمياً، أو تقليداً مذهبياً، أو أصلاً كلامياً، أو فلسفةً خاصّة، أو تجديداً حديثاً.. إلى غير ذلك ممّا تلمحه في بعض التفاسير القديمة والحديثة» [٢].

---

١ ـ الإسراء: ٣٦.

٢ ـ رسالة الإسلام: ٢١٧ السنة الثامنة، العدد ٣٠.

الفصل الثاني
مفهوم الوحدة وأهميتها في تفسير الميزان

المعنى اللغوي للوحدة

قال الخليل: الوحد: المنفرد... ووحد الشيء فهو يحد حدة، وكل شيء على حدة بائن من آخر، والرجل الوحيد: ذو الوحدة، وهو المنفرد لا أنيس معه... والوحدان: جماعة الواحد [1].

وقال الجوهري: الوحدة: الانفراد. تقول: رأيته وحده [2]. وقال الفيروز آبادي: وحد... وحدا ووحدة وحدة: بقي مفرداً، كتوحد. ووحّده توحيداً: جعله واحداً، ويطرد إلى العشرة. ورجل وحد وأحد، محرّكتين، ووحد ووحيد ومتوحّد: منفرد، وهي وحدة [3].

وعلى هذا يكون معنى الاتحاد قبول الوحدة والالتزام بها، لأنّه من باب الافتعال الذي أخذ فيه معنى المطاوعة. وتحقّق الوحدة يحتاج الى غاية مشتركة كما، يقول السيّد العلّامة:

«... لا ريب أن الاجتماع، أي اجتماع كان، إنّما يتحقّق ويحصل بوجود غاية واحدة

---

١ ـ كتاب العين ٣: ٢٨٠ ـ ٢٨١.

٢ ـ الصحاح ٢: ٥٤٧.

٣ ـ القاموس المحيط ١: ٣٤٣.

مشتركة بين أفراده المتشتتة، وهو الروح الواحد الساري في جميع أطرافه التي تتحد بها نوع اتحاد» [١].

وأيضاً يقول في موضع آخر في بيان معنى الأمة:

«والأمة: الجماعة من الناس، وأصل الكلمة من أمّ يأمّ إذا قصد، فأُطلق على الجماعة، لكن لا على كلّ جماعة، بل على جماعة كانت ذات مقصد واحد وبغية واحدة، هي رابطة الوحدة بينها» [٢].

فالوحدة: ما تحصل بين جماعة على أساس غاية مشتركة.

معنى الاختلاف

للاختلاف معانٍ والمقصود منه هاهنا ما يقابل الاتفاق والاتحاد، ولذا نذكر من كلام اللغويين ما يؤيّد المراد. قال الجوهري: «خلف: نقيض قدّام، [٣] والخلاف: المخالفة، وقوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِم خِلَافَ رَسُولِ اللهِ﴾ [٤] أي: مخالفة رسول الله» [٥]. وقال الخليل: «وخلاف رسول الله ﷺ: مخالفته في القرآن، ورجل خالف وخالفة أي: يخالف، ذو خلاف، وخلفة. واختلفت اختلافة واحدة... ورجل خالفة: كثير الخلاف» [٦].

وقال ابن المنظور: «الخلف ضد قدّام... وخلفه يخلفه: صار خلفه، واختلفه: أخذه من خلفه، واختلفه وخلفه وأخلفه: جعله خلفه... والتخلّف: التأخّر... ومنه الحديث:

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ١٠٧.

٢ ـ المصدر السابق ٢: ١٢٤.

٣ ـ الصحاح ٤: ١٣٥٣.

٤ ـ توبه: ٨١.

٥ ـ الصحاح ٤: ١٣٥٧، مجمع البحرين ١: ٦٨٤.

٦ ـ كتاب العين ٤: ٢٦٥ ـ ٢٩٦.

«سوّوا صفوفكم ولاتختلفوا فتختلف قلوبكم» أي: إذا تقدّم بعضهم على بعض في الصفوف، تأثرت قلوبهم ونشأ بينهم الخلف. وفي الحديث: «لتسوّنّ صفوفكم أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم» يريد: أنّ كلّاً منهم يصرف وجهه عن الآخر، ويوقع بينهم التباغض، فإنّ إقبال الوجه على الوجه من أثر المودة والألفة... وفي حديث السقيفة: «وخالف عنّا علي والزبير، أي تخلفا»... وخالفه إلى الشي: عصاه إليه أو قصده بعدما نهاه عنه، وهو من ذلك. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا أُريدُ أَن أُخالِفَكُم إِلىٰ ما أَنهٰكُم عَنهُ﴾... وتخالف الأمران واختلفا: لم يتفقا،وكل ما لم يتساو فقد تخالف واختلف»[1].

وللعلّامة ﷺ كلمات تفيد في بيان معنى الاختلاف، وما هو المراد من الاختلاف المنهي، قال:

«معنى اختلاف الناس أن يقابل بعضهم بعضاً بالنفي والاثبات»[2].

وقال:

«الاختلاف ويقابله الاتفاق من الأمور التي لايرتضيها الطبع السليم؛ لما فيه من تشتّت القوى وتضعيفها، وآثار أخرى غير محمودة من نزاع ومشاجرة وجدال وقتال وشقاق، كل ذلك يذهب بالأمن والسلام»[3].

الاجتماع والاتحاد بمعنى واحد

الاجتماع والاتحاد مترادفان أو متلازمان معنى في رأي العلّامة الطباطبائي، ولذا حين يقول السيد: الإسلام يدعو إلى الاجتماع، يعني به: أنّه يدعو إلى الاتحاد. ولنا شواهد من كلامه ﷺ:

---

١ ـ لسان العرب ٩: ٨٢ – ٨٣.

٢ ـ تفسير الميزان ١١: ٦٢.

٣ ـ المصدر السابق: ٦٠.

١ ـ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [١]:

«فأنبأ أنّ رفع الاختلاف من بين الناس وإيجاد الاتحاد في كلمتهم، إنّما كان في صورة الدعوة إلى إقامة الدين وعدم التفرق فيه، فالدين كان يضمن اجتماعهم الصالح. والآية ـ كما ترى ـ تحكي هذه الدعوة، دعوة الاجتماع والاتحاد عن نوح عليه السلام ... فلم تبدأ الدعوة إلى الاجتماع دعوة مستقلة صريحة إلّا من ناحية النبوة في قالب الدين، كما يصرّح به القرآن، والتاريخ يصدّقه...» [٢].

٢ ـ وقال أيضاً: «لا ريب أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي أسّس بنيانه على الاجتماع صريحاً... فأول نداء قرع سمع النوع الإنساني، ودعا به هذا النوع إلى الاعتناء بأمر الاجتماع، بجعله موضوعاً مستقلاً خارجاً عن زاوية الإهمال وحكم التبعية، هو الذي نادى به صادع الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام، فدعا الناس ـ بما نزل عليه من آيات ربه ـ إلى سعادة الحياة وطيب العيش مجتمعين، قال تعالى: ﴿وأَنَّ هٰذا صِرٰطي مُستَقيماً فَاتَّبِعوهُ ولَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم﴾ [٣]، وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [٤]،... إلى غير ذلك من الآيات المطلقة، الداعية إلى أصل الاجتماع والاتحاد» [٥].

٣ ـ وقال أيضاً: «... وهو ذا الإسلام يدعو إلى الاجتماع والتآلف، ويتصرف في

---

١ ـ الشورىٰ: ١٣.

٢ ـ تفسير الميزان ٤: ٩٢.

٣ ـ الأنعام: ١٥٣.

٤ ـ آل عمران: ١٠٣.

٥ ـ تفسير الميزان ٤: ٩٥.

جميع شؤون المجتمع الإنساني وأفراده من غير استثناء...»[١]. فنرى أنّ السيّد الأستاذ يأتي بواو العطف بين الاجتماع والاتحاد والتآلف.

تاريخ الوحدة والاختلاف بين النوع الإنساني في الدين

يقول سيّدنا العلّامة: «والذي يرتضيه القرآن من تقسيم تاريخ الإنسان، هو تقسيمه إلى عهد السذاجة ووحدة الامم، وعهد الحس والمادة»[٢].

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً...﴾[٣]:

«... ظاهر الآية يدلّ على أنّ هذا النوع قد مرّ عليهم في حياتهم زمان كانوا على الاتحاد والاتفاق، وعلى السذاجة والبساطة، لا اختلاف بينهم بالمشاجرة والمدافعة في أمور الحياة، ولا اختلاف في المذاهب والآراء، والدليل على نفي الاختلاف قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، فقد رتّب بعثة الأنبياء وحكم الكتاب في مورد الاختلاف على كونهم أمةً واحدةً، فالاختلاف في أمور الحياة ناشٍ بعد الاتحاد والوحدة، والدليل على نفي الاختلاف الثاني قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾، فالاختلاف في الدين إنّما نشأ من قبل حملة الكتاب بعد إنزاله بالبغي.

وهذا هوالذي يساعد عليه الاعتبار، فإنّا نشاهد النوع الإنساني لايزال يرقى في العلم والفكر، ويتقدم في طريق المعرفة والثقافة، عاما بعد عام، وجيلاً بعد جيل، وبذلك يستحكم أركان اجتماعه يوماً بعد يوم، ويقوم على رفع دقائق الاحتياج، والمقاومة قبال

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ١٠٠.

٢ ـ المصدر السابق ١: ٤٢٤.

٣ ـ البقره: ٢١٣.

مزاحمات الطبيعة، والاستفادة من مزايا الحياة، وكلما رجعنا في ذلك القهقرى وجدناه أقل عرفاناً برموز الحياة، وأسرار الطبيعة، وينتهي بنا هذا السلوك إلى الإنسان الأولي الذي لايوجد عنده إلّا النزر القليل من المعرفة بشؤون الحياة وحدود العيش، كأنّهم ليس عندهم إلّا البديهيات، ويسير من النظريات الفكرية، التي تهيىء لهم وسائل البقاء بأبسط ما يكون، كالتغذي بالنبات أو شيء من الصيد، والإيواء إلى الكهوف، والدفاع بالحجارة والأخشاب ونحوذلك، فهذا حال الإنسان في أقدم عهوده، ومن المعلوم أنّ قوماً حالهم هذا الحال لايظهر فيهم الاختلاف ظهورا يعتدّ به، ولايبدو فيهم الفساد بدواً مؤثراً، كالقطيع من الغنم لا همّ لأفراده إلّا الاهتداء لبعض ما اهتدى إليه بعض آخر، والتجمّع في المسكن والمعلف والمشرب.

غير أنّ الإنسان لوجود قريحة الاستخدام فيه... لايحبسه هذا الاجتماع القهري ـ من حيث التعاون على رفع البعض حوائج البعض ـ عن الاختلاف والتغالب والتـغلّب، وهوكل يوم يزداد علماً وقوة على طرق الاستفادة، ويتنبه بمزايا جديدة، ويتيقظ لطرق دقيقة في الانتفاع، وفيهم الأقوياء وأولوا السطوة وأرباب القدرة، وفيهم الضعفاء ومَن في رتبتهم، وهومنشأ ظهور الاختلاف، الاختلاف الفطري الذي دعت إليـه قـريحة الاستخدام، كما دعت هذه القريحة بعينها إلى الاجتماع والمدنية.

ولا ضير في تزاحم حكمين فطريين، إذا كان فوقهما ثالث يحكم بينهما، ويعدل أمرهما، ويصلح شأنهما، وذلك كالإنسان تتسابق قواه في أفعالها، ويـؤدي ذلك إلى التزاحم، كما أنّ جاذبة التغذّي تقضي بأكل ما لاتطيق هضمه الهاضمة ولاتسعه المعدة، وهناك عقل يعدل بينهما، ويقضي لكل بما يناسبه، ويقدر فعل كل واحدة من هذه القوى الفعالة بما لايزاحم الأخرى في فعلها.

والتنافي بين حكمين فطريين فما نحن فيه من هذا القبيل، فسلوك فطرة الإنسان إلى المدنية ثمّ سلوكها إلى الاختلاف يؤديان إلى التنافي، ولكن الله يرفع التنافي برفع

الاختلاف الموجود ببعث الأنبياء بالتبشير والإنذار، وإنزال الكتاب الحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه...»[١].

وقال في موضع آخر:

«والقرآن الكريم يخبر أن أول ما نبّه الإنسان بالاجتماع تفصيلاً واعتنى بحفظه استقلالاً، نبهته به النبوة قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوار...﴾[٢]، وقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾[٣]، حيث ينبىء أن الإنسان في أقدم عهوده كان أمة واحدة ساذجة لا اختلاف بينهم، حتى ظهرت الاختلافات وبانت المشاجرات، فبعث الله الأنبياء وأنزل معهم الكتاب ليرفع به الاختلاف، ويردهم إلى وحدة الاجتماع محفوظة بالقوانين المشرعة. وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾[٤]، فأنبأ أنّ رفع الاختلاف من بين الناس وإيجاد الاتحاد في كلمتهم، إنّما كان في صورة الدعوة إلى إقامة الدين وعدم التفرق فيه، فالدين كان يضمن اجتماعهم الصالح.

والآية ـ كما ترى ـ تحكي هذه الدعوة، دعوة الاجتماع والاتحاد عن نوح عليه السلام، وهو أقدم الأنبياء أولي الشريعة والكتاب، ثمّ عن إبراهيم، ثمّ عن موسى، ثمّ عيسى عليهم السلام، وقد كان في شريعة نوح وإبراهيم النزر اليسير من الأحكام، وأوسع هؤلاء الأربعة شريعة موسى، وتتبعه شريعة عيسى على ما يخبر به القرآن، وهو ظاهر الأناجيل، وليس في

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١٢٣.

٢ ـ يونس: ١٩.

٣ ـ البقرة: ٢١٣.

٤ ـ الشورى: ١٣.

شريعة موسى ـ على ما قيل ـ إلّا ستمائة حكم تقريباً. فلم تبدأ الدعوة إلى الاجتماع دعوة مستقلّة صريحة، إلّا من ناحية النبوة في قالب الدين، كما يصرّح به القرآن، والتاريخ يصدقه» [١].

وأكّد في موضع آخر: **«أنّ الدين أول ما ظهر، ظهر رافعاً للإختلاف الناشىء عن الفطرة، ثمّ استكمل رافعاً للإختلاف الفطري وغير الفطري معاً...»** [٢].

تاريخ وحدة الأمة الإسلامية

لاشك بأنّ الرسول الأعظم بدأ دعوته على أساس التوحيد، ولا ريب إذا كان التوحيد ركيزة تفكير أمة وجماعة، فلايمكن الافتراق بينهم، وهذا هو السبب الوحيد في الأخوة الإسلامية. ولهذا كان المسلمون لايرون فضيلة لأحد على أحد إلا بالتقوى، لأنّهم في أساس العقيدة كانوا على سواء.

ونعلم أنّ أول حكم تكليفي نفّذه النبيﷺ بعد الهجرة هو الأخوة الإسلامية، في نظام الإخاء الذي قام به، فقد آخى بين المهاجرين والأنصار، وآخى بين الأنصار بعضهم مع بعض،وآخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض،فصار المسلمون في الصدر الأول أمةً واحدةً في الواقع، كما كانوا أمة واحدة بحكم الشرع والقرآن، وهدى النبيﷺ، وكان النبيﷺ يقول: **«ليس منا من دعا إلى عصبية»** [٣] وبيّن أنّ مَن دعا إلى عصبية إقليمية أو جنسية أو نسبية، فإنّما يكبّ على وجهه في النار.

قال الطباطبائي في بيان قوله تعالى: **﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوآمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمْ**

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ٩٣.

٢ ـ المصدر السابق ٢: ١٣٠.

٣ ـ بحار الأنوار ٧٠: ٢٨٣، كنز العمّال ٣: ٥١٠ ح ٧٦٥٧.

الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١]:

«والآية تمدح حال المؤمنين في أول ظهور الإسلام من السابقين الأولين من المهاجرين والانصار، والمراد بالإيمان هوالإيمان بدعوة الاجتماع على الاعتصام بحبل الله وعدم التفرّق... فيؤول المعنى إلى أنكم معاشر أمة الإسلام كنتم في أول ما تكوّنتم وظهرتم للناس خير أمة ظهرت؛ لكونكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتعتصمون بحبل الله، متفقين متحدين كنفس واحدة»[٢].

ويؤكّد العلّامة في موضع آخر بأنّ الأمة الإسلامية كانوا على وحدة في زمن رسول الله ﷺ، ومع الأسف وقع الخلاف بينهم بعد عروج رسول الرحمة ﷺ كما أخبر ﷺ عن ذلك قال:

«وقد أكّد القرآن الدعوة إلى الاتحاد، وبالغ في النهي عن الاختلاف، وليس لك إلّا لمّا كان يتفرس من أمر هذه الأمة، أنّهم سيختلفون كالذين من قبلهم، بل يزيدون عليهم في ذلك، وقد تقدم مراراً أن من دأب القرآن أنّه إذا بالغ في التحذير عن شيء والنهي عن اقترافه، كان ذلك آية وقوعه وارتكابه، وهذا أمر أخبر به النبي ﷺ أيضا كما أخبر به القرآن، وأنّ الاختلاف سيدبّ في أمته ثمّ يظهر في صورة الفرق المتنوعة، وأنّ أمته ستختلف كما اختلفت اليهود والنصارى من قبل... وقد صدق جريان الحوادث هذه الملحمة القرآنية، فلم تلبث الأمة بعد رسول الله ﷺ دون أن تفرقوا شذر مدر، واختلفوا في مذاهب شتى، بعضهم يكفّر بعضاً، من لدن عصر الصحابة إلى يومنا هذا، وكلّما رام أحد أن يوفّق بين مختلفين منها أولد ذلك مذهباً ثالثاً»[٣].

---

١ ـ آل عمران: ١١٠.

٢ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٦.

٣ ـ المصدر السابق: ٣٧٤.

القرآن الكريم والوحدة

إنّ القرآن كتاب الوحدة ونفي الخلاف والتعارض والتنازع، وفي القرآن آيات متعددة تصرّح بلزوم الوحدة بين آحاد الإنسان، وبالأخص المسلمين والمؤمنين، وهذه بعض الآيات:

١ ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[١].

٢ ـ ﴿وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[٢].

٣ ـ ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾[٣].

٤ ـ ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٤].

٥ ـ ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[٥].

٦ ـ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٦].

٧ ـ ﴿وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٧].

---

١ ـ الصف: ٤.

٢ ـ المؤمنون: ٥٢.

٣ ـ الإسراء: ٥٣.

٤ ـ آل عمران: ١٠٣.

٥ ـ آل عمران: ١٠٥.

٦ ـ الأنعام: ١٥٣.

٧ ـ الأنفال: ٤٦.

٨ ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[١].

٩ ـ ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٢].

١٠ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٣].

١١ ـ ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾[٤].

١٢ ـ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٥].

وفي كلمات العلّامة الطباطبائي مواضع متعددة يؤيّد هذا:

قال: «وقد أكّد القرآن الدعوة إلى الاتحاد وبالغ في النهي عن الاختلاف، وليس ذلك إلّا لما كان يتفرّس من أمر هذه الأمة أنّهم سيختلفون كالذين من قبلهم، بل يزيدون عليهم في ذلك، وقد تقدّم مراراً أنّ من دأب القرآن أنّه إذا بالغ في التحذير عن شيء والنهي عن اقترافه، كان ذلك آية وقوعه...»[٦].

---

١ ـ الروم: ٣٠ ـ ٣٢.

٢ ـ الشورى: ١٠.

٣ ـ النساء: ٥٩.

٤ ـ الإسراء: ٥٣.

٥ ـ الحجرات: ١٠.

٦ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٤.

ويؤكّد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١] قال: «**يشير إلى حفظ المجتمع عن التفرق والانشعاب**» [٢].

كما يؤكد بأنّ القرآن ألغى جميع أسباب الخلاف والتعارض والفساد بين الناس، لاسيما المسلمين حتى يتحقّق دستوره ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، حيث يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ...﴾ [٣]: «**(إنّ الآية) إشارة إلى المساواة المجعولة بين المؤمنين جميعاً بإلغاء جميع الصفات المميزة التي هي المصادر لبروز أنواع الفساد بين الناس في اجتماعهم، من الاستعباد والاستضعاف والاستذلال والاستكبار وأنواع البغي والظلم، وبذلك يحصل التوازن بين اثقال الاجتماع، والمعادلة بين اليتيم الضعيف والولي القوي، وبين الغني المثري والفقير المعدم، وكذا كل ناقص وتام، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾** [٤]».

ويقول السيّد الأستاذ في بيان قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [٥]:

«**وتوصيف الذين آمنوا بهذا الوصف ـ كونهم مخرَجين من ديارهم ـ وهو وصف بعضهم وهم المهاجرون، من باب توصيف الكل بوصف البعض، بعناية الاتحاد**

---

١ ـ آل عمران: ١٠٤.

٢ ـ تفسير الميزان ٤: ٩٥.

٣ ـ البقرة: ٢٢٠.

٤ ـ الحجرات: ١٠.

٥ ـ الحج: ٣٩ ـ ٤٠.

والائتلاف، فإنّ المؤمنين إخوة، وهم يد واحدة على مَن سواهم...»[١].

والقرآن لايحصر الدعوة الى الاتحاد بالمسلمين، بل تعرّض لحال أهل الكتاب عامة، وبدعوتهم الى الاتحاد مع المسلمين، والسيد العلّامة يأتي بنماذج من الآيات، التي يعتقد بدلالتها على هذه الدعوة: «بقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسلام﴾[٢]، وبقوله: ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ﴾[٣]، ثمّ انعطف البيان إلى شأن النصارى خاصة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ الخ[٤]...»[٥].

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٦]:

«الخطاب لعامة أهل الكتاب، والدعوة في قوله: تعالوا إلى «كلمة» بالحقيقة إنّما هي إلى الاجتماع على معنى الكلمة بالعمل به، وإنّما تنسب إلى الكلمة لتدلّ على كونها دائرة بألسنتهم، كقولنا: اتفقت كلمة القوم على كذا، فيفيد معنى الإذعان والاعتراف والنشر والإشاعة، فالمعنى: تعالوا نأخذ بهذه الكلمة متعاونين متعاضدين في نشرها والعمل بما توجبه»[٧].

---

١ ـ تفسير الميزان ١٤: ٣٨٥.

٢ ـ آل عمران: ١٩.

٣ ـ آل عمران: ٢٣.

٤ ـ آل عمران: ٣٣

٥ ـ تفسير الميزان ٣: ٢٤٦.

٦ ـ آل عمران: ٦٤

٧ ـ تفسير الميزان ٣: ٢٤٦.

ويقول السيّد الأستاذ في بيان قوله تعالى ﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [١]:

«ومحصّل معنى هذا الشطر أن اتقوا الله من جهة عظمته وعزّته عندكم، وذلك من شؤون الربوبية وفروعها، واتقوا الوحدة الرحمية التي خلقها بينكم، والرحم شعبة من شعب الوحدة، والسنخية السارية بين أفراد الانسان... وقد اعتنى القرآن الشريف بأمر الرحم، كما اعتنى بأمر القوم والأمة، فإنّ الرحم مجتمع صغير، كما أن القوم مجتمع كبير، وقد اعتنى القرآن بأمر المجتمع وعدّه حقيقة ذات خواص وآثار...

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيكُم رَقيباً﴾ الرقيب الحفيظ، والمراقبة المحافظة... وفي تعليل الأمر بالتقوى في الوحدة الانسانية، السارية بين أفراده وحفظ آثارها اللازمة لها، بكونه تعالى رقيباً، أعظم التحذير والتخويف بالمخالفة وبالتدبر، فيه يظهر ارتباط الآيات المتعرضة لأمر البغي والظلم والفساد في الأرض والطغيان وغير ذلك، وما وقع فيها من التهديد والانذار بهذا الغرض الإلهي، وهو وقاية الوحدة الانسانية من الفساد والسقوط» [٢].

أهمية الوحدة والاجتماع في الإسلام

يقول السيّد الطباطبائي ﷺ:

«الإسلام... يُعدُّ الاتحاد والاتفاق من أركان أحكامه وأصول قوانينه» [٣].

ويقول أيضاً: **«صفة الاجتماع مرعية، مأخوذة في الإسلام في جميع ما يمكن أن يؤدي بصفة الاجتماع من أنواع النواميس والأحكام، بحسب ما يليق بكل منها من نوع**

---

١ ـ النساء: ١.

٢ ـ تفسير الميزان ٤: ١٣٨ ـ ١٣٩.

٣ ـ المصدر السابق ٢: ٣٠٩.

الاجتماع، وبحسب ما يمكن فيه من الأمر والحث الموصل إلى الغرض... نرى أنّ الشارع شرّع وجوب الاجتماع في أشياء بلا واسطة... وألزم على الاجتماع في أمور أخرى غير واجبة، لم يوجب الاجتماع فيها مستقيماً، كصلاة الفريضة مع الجماعة، فإنها مسنونة مستحبة، غير أن السنة جرت على أدائها جماعة، وعلى الناس أن يقيموا السنة. وقد قال رسول الله ﷺ في قوم من المسلمين تركوا الحضور في الجماعة: «ليوشك قوم يدعون الصلاة في المسجد، أن نأمر بحطب فيوضع على أبوابهم، فتوقد عليهم نار، فتحرق عليهم بيوتهم». وهذا هو السبيل في جميع ما سنّه رسول الله ﷺ، فيجب حفظ سنته على المسلمين بأي وسيلة أمكنت لهم، وبأي قيمة حصلت»[1].

ويقول في موضع آخر:

«فأول نداء قرع سمع النوع الإنساني، ودعي به هذا النوع إلى الاعتناء بأمر الاجتماع، بجعله موضوعاً مستقلاً خارجاً عن زاوية الإهمال وحكم التبعية، هوالذي نادى به صادع[2] الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام، فدعا الناس بما نزل عليه من آيات ربه إلى سعادة الحياة وطيب العيش مجتمعين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾[3]، وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾، إلى أن قال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾، يشير إلى حفظ المجتمع عن التفرق والانشعاب ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ١٢٧.

٢ ـ إشارة إلى الآية: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ (الحجر: ٩٤). وصدع بالحق: إذا تكلّم به جهاراً، ومعنى الآية: أعلن الدعوة وأظهر الحق. أنظر تفسير الميزان ١٢: ١٩٤ ـ ١٩٥. وعلى هذا فالمعنى بصادع الإسلام هو رسول الله ﷺ.

٣ ـ الأنعام: ١٥٣.

لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [٢]، إلى غير ذلك من الآيات المطلقة، الداعية إلى أصل الاجتماع والاتحاد...» [٣].

الفرق بين اختلاف الانبياء واختلاف الامم

إذا كان الاختلاف مستنداً إلى البغي، فكيف نرى الاختلاف بين الأنبياء والرسل؟ يجيب السيّد العلّامة عن هذهِ الشبهة، ضمن تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ [٤] بقوله:

«قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ إشارة إلى فخامة أمر الرسل وعلو مقامهم، ولذلك جيء في الإشارة بكلمة تلك، الدالة على الإشارة إلى بعيد، وفيه دلالة على التفضيل الإلهي الواقع بين الأنبياء عليهم السلام ففيهم مَن هو أفضل، وفيهم من هو مفضّل عليه، وللجميع فضل، فإن الرسالة في نفسها فضيلة، وهي مشتركة بين الجميع، ففيما بين الرسل أيضاً اختلاف في المقامات وتفاوت في الدرجات، كما أن بين الذين بعدهم اختلافاً على ما يدل عليه ذيل الآية، إلّا أنّ بين الاختلافين فرقاً، فإن الاختلاف بين الأنبياء اختلاف في المقامات وتفاضل في الدرجاتِ مع اتحادهم في أصل الفضل وهوالرسالة، واجتماعهم في مجمع الكمال وهوالتوحيد، وهذا بخلاف الاختلاف الموجود بين أمم الأنبياء بعدهم، فإنه اختلاف بالإيمان والكفر، والنفي والإثبات، ومن المعلوم أن لا جامع في هذا النحو من الاختلاف، ولذلك فرّق تعالى بينهما من حيث التعبير، فسمى ما للأنبياء تفضيلاً ونسبه إلى نفسه، وسمى ما عند الناس بالاختلاف

---

١ ـ آل عمران: ١٠٣ ـ ١٠٥.

٢ ـ الأنعام: ١٥٩.

٣ ـ تفسير الميزان ٤: ٩٥.

٤ ـ البقرة: ٢٥٣.

ونسبه إلى أنفسهم، فقال في مورد الرسل (فضلنا)، وفي مورد أممهم (اختلفوا)» [١].

ضرورة الوحدة

لا شك بأنّ الوحدة بين آحاد الأمة الإسلامية ضرورية، وحاجة المسلمين والمجتمع الإسلامي اليها كحاجة الإنسان الى الهواء لدوام حياته. أكد القرآن على هذه الضرورة في آيات متعددة كما أشرنا إليها، وقد بيّن وفسّر العلّامة الطباطبائي ﵀ تلك الآيات في تفسيره، بحيث إذا تأملنا في كتابه نذعن بأنّه حريص على وحدة المسلمين، وقد بذل نهاية جهده لتنبّه ويقظة المسلمين عن الغفلة، التي جعلتهم على شفا حفرة من نار العداوة، وإحساس بالحاجة الى الوحدة والأخوة:

١ ـ المسلمون مأمورون بالوحدة والجماعة

يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصبِرُوا وصابِرُوا ورَابِطوا واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٢]:

«الأوامر مطلقة... والمصابرة هي التصبّر وتحمّل الأذى جماعة، باعتماد صبر البعض على صبر آخرين، فيتقوّى الحال ويشتدّ الوصف ويتضاعف تأثيره، وهذا أمر محسوس في تأثير الفرد، إذا اعتبرت شخصيته في حال الانفراد وفي حال الاجتماع والتعاون، بإيصال القوى بعضها ببعض...» [٣].

فعلى هذا: المؤمنون مأمورون بالتّصبّر جميعهم بأمر الله تعالى، وهو تكليف الهي. وأقوى من هذا الأمر في إثبات ضرورة الوحدة، ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾ في الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران:

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ٣١٠.

٢ ـ آل عمران: ٢٠٠.

٣ ـ تفسير الميزان ٤: ٩١.

«قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾ أعم معنى من المصابرة، وهي إيجاد الجماعة الارتباط بين قواهم وأفعالهم في جميع شؤون حياتهم الدينية، أعم من حال الشدة وحال الرخاء ولمّا كان المراد بذلك نيل حقيقة السعادة المقصودة للدنيا والآخرة، وإلّا فلايتمّ بها إلّا بعض سعادة الدنيا وليست بحقيقة السعادة، عقّب هذه الأوامر بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني الفلاح التامّ الحقيقي» [١].

وقال في موضع آخر: **«وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾، إلى أن قال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يشير إلى حفظ المجتمع عن التفرّق والانشعاب»** [٢].

و قال أيضاً: **«وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [٣]، وقال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [٤]، وقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [٥]،... إلى غير ذلك من الآيات،، الآمرة ببناء المجتمع الإسلامي على الاتفاق والاتحاد، في حيازة منافعها ومزاياها المعنوية والمادية والدفاع عنه...»** [٦].

كما يقول السيّد العلّامة في بيان خلاصة ما دلّت عليه الآية ٢٠٧ من سورة البقرة ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً...﴾:

«"السلم" و"الإسلام" و"التسليم" واحدة، و"كافة" كلمة تأكيد بمعنى جميعاً، ولمّا كان الخطاب للمؤمنين وقد أمروا بالدخول في السلم كافة، فهو أمر متعلّق بالمجموع وبكل

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ٩١.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ الحجرات: ١٠.

٤ ـ الأنفال: ٤٦.

٥ ـ المائدة: ٢.

٦ ـ تفسير الميزان ٤: ٩٥.

واحد من أجزائه، فيجب ذلك على كل مؤمن، ويجب على الجميع أيضاً أن لايختلفوا في ذلك، ويسلموا الأمر لله ولرسوله ﷺ » [1].

٢ ـ ضرورة ردّ المختلفين الى ساحة الاتحاد

يبيّن السيّد الطباطبائي أنّ الاختلاف في الآراء أمر ضروري لإختلاف الأفهام، ولكن المحاولة والسعي لردّ المختلفين إلى ساحة الاتحاد أيضاً ضروري؛ لأنّ بقاء الاختلاف من البغي، وفيه إلقاء النفوس في التهلكة، وللمانعة عن وقوع هذا الأثر المشؤوم فقد أكد القرآن الدعوة إلى الاتحاد، وبالغ في النهي عن الاختلاف، يقول:

«... إنّ ظهور الاختلاف في العقائد والآراء ضروري بين الأفراد؛ لإختلاف الأفهام؛ لكن كما أنّ ظهور هذا الاختلاف ضروري، كذلك دفع الاجتماع لذلك، ورده المختلفين إلى ساحة الاتحاد أيضاً ضروري، فرفع الاختلاف ممكن مقدور بالواسطة، وإعراض الأمة عن ذلك بغي منهم، وإلقاء لأنفسهم في تهلكة الاختلاف.

وقد أكّد القرآن الدعوة إلى الاتحاد، وبالغ في النهي عن الاختلاف، وليس ذلك إلّا لمّا كان يتفرّس من أمر هذه الأمة، أنهم سيختلفون كالذين من قبلهم، بل يزيدون عليهم في ذلك، وقد تقدم مراراً أنّ من دأب القرآن أنّه إذا بالغ في التحذير عن شيء والنهي عن اقترافه، كان ذلك آية وقوعه وارتكابه، وهذا أمر أخبر به النبي ﷺ أيضاً كما أخبر به القرآن، وأنّ الاختلاف سيدبّ في أمته، ثمّ يظهر في صورة الفِرَق المتنوعة، وأنّ أمته ستختلف كما اختلفت اليهود والنصارى من قبل... وقد صدق جريان الحوادث هذه الملحمة القرآنية، فلم تلبث الأمة بعد رسول الله ﷺ دون أن تفرقوا شذر مدر، واختلفوا في مذاهب شتى، بعضهم يكفر بعضا، من لدن عصر الصحابة إلى يومنا هذا، وكلّما رام أحد أن يوفّق بين مختلفين منها، أولد ذلك مذهبا ثالثاً» [2].

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١٠١.

٢ ـ المصدر السابق ٣: ٣٧٤.

وليس معنى ذلك أنّه لابّد من الاختلاف، بل معناه يؤول إلى تحذير عامة المسلمين عن التساهل في أمر الاختلافات، التي تهدّد وحدتهم وتوجب شقّ عصاهم واختلاف كلمتهم.

٣ ـ نظام الأخوة في الإسلام يوجب الاتحاد

نظام الأخوة من أحكم النُظم في هذا السبيل، والأُخوّة في الإسلام ليست كلمة مرسلة لا مدلول لها، أو شعاراً أجوف لا معنى من ورائه، بل هي حقيقة راسخة في الحياة الإسلامية، وهي قائمة بين المسلمين، لها آثارها في واقعهم، ولها مظاهرها في سلوكهم ومختلف أحوالهم، لأنّها لازمة للإيمان ومنبثقة عنه، ومن ثمّ فهي تابعة له في الوجود والعدم، وفي الظهور والخفاء.

وقد وضع الإسلام نظام الحقوق بين أبناء الإسلام، فشرّع الإسلام نظام الحقوق بين المسلمين، وجعل العمل به أمراً لازماً للأخوة في الدين، ومظهراً لقوة اليقين وصدق الإيمان، وهي حقوق شملت كلّ جوانب الحياة، وأحوال المسلمين كافةً ما ظهر منها وما بطن، وما خفي منها وما انتشر. ثمّ وضع الإسلام نظام التكافل والتآزر بين الأُخوة في الله، وهو من لوازم الأُخوة وشعبها، كما يفيده قول النبيﷺ: «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1].

وعلى هذا الأساس يقول السيّد الأستاذ في بيان قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾[2]:

---

١ ـ صحيح مسلم ٨: ٢٠.

٢ ـ الحج: ٣٩ ـ ٤٠.

«وتوصيف الذين آمنوا بهذا الوصف ـ كونهم مخرجين من ديارهم ـ وهو وصف بعضهم وهم المهاجرون، من باب توصيف الكل بوصف البعض، بعناية الاتحاد والائتلاف، فإن المؤمنين إخوة، وهم يد واحدة على من سواهم...»[١].

فهل يوجد نظام ومجتمع متحد بعضه مع بعض، أقوى وأحكم من هذا النظام؟ ولم يرض الإسلام بوقوع الخدشة في هذه الأخوة، ولذلك أمرنا الله تعالى بحفظها، ولو كان بالقتال مع الذين لم يراعوا أصول الأخوة، وبغوا على سائر إخوانهم، يقول السيّد العلّامة بعد إتيان معنى مفردات[٢] الآيتين (٩ و ١٠) من سورة الحجرات: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

«فإن تعدّت إحدى الطائفتين على الأخرى بغير حق، فقاتلوا الطائفة المتعدية حتى ترجع إلى ما أمر به الله وتنقاد لحكمه. وقوله: ﴿فَإِن فاءَت فَأَصلِحوا بَينَهُما بِالعَدلِ﴾ أي فإن رجعت الطائفة المتعدية إلى أمر الله فأصلحوا بينهما...».

وتظهر النقطة المهمّة المثبتة لضرورة الوحدة حينما نسأل الأستاذ الطباطبائي، لماذا يجب علينا الإصلاح بين المقاتلين من المؤمنين؟ ولماذا لايجوز وقوع القتال أو استمراره بينهم؟ يجيب الأستاذ:

«قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ استئناف مؤكّد لما تقدم من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين، وقصر النسبة بين المؤمنين في نسبة الإخوة مقدمة ممهدة لتعليل ما في قوله: ﴿أَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ من حكم

---

١ ـ تفسير الميزان ١٤: ٣٨٥.

٢ ـ يقول ﷺ: «الاقتتال والتقاتل بمعنى واحد... البغي الظلم والتعدي بغير حق، والفيء: الرجوع، والمراد بأمر الله: ما أمر به الله».

الصلح، فيفيد أن الطائفتين المتقاتلتين لوجود الإخوة بينهما يجب أن يستقر بينهما الصلح، والمصلحون لكونهم إخوة للمتقاتلتين يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما.

وقوله: ﴿أَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ولم يقل: فأصلحوا بين الأخوين، من أوجز الكلام وألطفه، حيث يفيد أن المتقاتلتين بينهما أخوة، فمن الواجب أن يستقر بينهما الصلح، وسائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين، فيجب عليهم أن يسعوا في الإصلاح بينهما»[1].

فأمر الله المؤمنين برفع موانع الأخوة، التي هي من أحكم عوامل الوحدة الاجتماعية وأظهر مصاديقها الواقعية.

كما يعتقد العلّامة بأنّ إقامة الدين وعدم التفرق فيه: كما يجب علينا، كذلك يجب على جميع الناس في جميع الأزمنة، وهم مكلّفون بإقامة الدين وعدم التفرق فيه. وبهذا الصدد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيموا الدِّينَ ولَا تَتَفَرَّقوا...﴾[2]:

«إقامة الدين حفظه بالاتباع والعمل، واللام في الدين للعهد، أي: أقيموا هذا الدين المشروع لكم، وعدم التفرق فيه حفظ وحدته بالاتفاق عليه، وعدم الاختلاف فيه.

ولمّا كان شرع الدين لهم في معنى أمرهم جميعاً باتّباعه، والعمل به من غير اختلاف، فسّره بالأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه، فكان محصّله أن عليهم جميعاً إقامة الدين جميعاً، وعدم التفرق والتشتت فيه بإقامة بعض وترك بعض، وإقامته الإيمان بجميع ما أنزل الله، والعمل بما يجب عليه العمل به. فجميع الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه دين واحد، يجب إقامته وعدم التفرّق فيه. فأمّا الأحكام السماوية المشترك فيها، الباقية ببقاء التكليف فمعنى الإقامة فيها ظاهر، وأمّا الأحكام المشرّعة في بعض هذه الشرائع المنسوخة في الشريعة اللاحقة، فحقيقة الحكم المنسوخ أنّه حكم ذو أمد خاص بطائفة من الناس في زمن خاص، ومعنى نسخه تبين انتهاء أمده، لا ظهور بطلانه، قال تعالى:

---

١ ـ تفسير الميزان ١٨: ٣١٤.

٢ ـ الشورى: ١٣.

﴿واللّهُ يَقولُ الحَقَّ وهُوَ يَهدِى السَّبيل﴾ [١]. فالحكم المنسوخ حقّ دائماً، غير أنّه خاص بطائفة خاصة في زمن خاص، يجب عليهم أن يؤمنوا به ويعملوا به، ويجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل، وهذا معنى إقامته وعدم التفرّق فيه.

فتبيّن أنّ الأمر بإقامة الدين وعدم التفرّق فيه في قوله: ﴿أَن أَقيموا الدّينَ ولا تَتَفَرَّقوا فيه﴾ مطلق شامل لجميع الناس في جميع الأزمان» [٢].

٤ ـ الشريعة الواحدة ووحدة المسلمين

يعتقد السيّد العلّامة بأنّ النوع الإنساني في كل عصر يكون على شريعة واحدة، وأنّهم أتباع نبي واحد، فلايجوز لهم الاختلاف في الشريعة، واختلاف الشرائع طيلة القرون، ليس دليلاً على جواز اختلاف أصحاب شريعة واحدة، وأتباع نبيّ واحد.

هذا ما استفاده الطباطبائي من آية ﴿... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوشَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [٣] فيقول في معنى الشريعة في عرف القرآن:

«فكان الشريعة هي الطريقة الممهّدة لأمة من الأمم أو لنبي من الأنبياء، الذين بعثوا بها، كشريعة نوح، وشريعة إبراهيم، وشريعة موسى، وشريعة عيسى، وشريعة محمد ﷺ ...» [٤].

ثم قال في معنى قوله تعالى: ﴿ولَو شاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحِدَةً ولٰكِن لِيَبلُوَكُم في ما ءاتٰكُم﴾:

«بيان لسبب اختلاف الشرائع، وليس المراد بجعلهم أمة واحدة، الجعل التكويني

---

١ ـ الأحزاب: ٤.

٢ ـ تفسير الميزان ١٨: ٢٩.

٣ ـ المائدة: ٤٨.

٤ ـ تفسير الميزان ٥: ٣٥٠.

بمعنى النوعية الواحدة، فإنّ الناس أفراد نوع واحد يعيشون على نسق واحد، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ولَولا أن يَكونَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلنا لِمَن يَكفُرُ بِالرَّحمـٰنِ لِبُيوتِهِم سُقُفاً مِن فِضَّةٍ ومَعارِجَ عَلَيها يَظهَرون﴾ [١]. بل المراد أخذهم بحسب الاعتبار أمة واحدة، على مستوى واحد من الاستعداد والتهيؤ، حتى تشرّع لهم شريعة واحدة لتقارب درجاتهم الملحوظة. فقوله: ﴿ولَو شاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحِدَةً﴾ من قبيل وضع علّة الشرط موضع الشرط؛ ليتضح باستحضارها معنى الجزاء، أعني قوله: ﴿ولـٰكِن لِيَبلُوَكُم في ما ءاتئكُم﴾، أي ليمتحنكم فيما أعطاكم وأنعم عليكم... وبالجملة لما كانت العطايا الإلهية لنوع الإنسان من الاستعداد والتهيؤ مختلفة باختلاف الأزمان، وكانت الشريعة والسنة الإلهية الواجب إجراؤها بينهم لتتميم سعادة حياتهم، وهي الامتحانات الإلهية، تختلف لا محالة باختلاف مراتب الاستعدادات وتنوعها، أنتج ذلك لزوم اختلاف الشرائع، ولذلك علل تعالى ما ذكره من اختلاف الشرعة والمنهاج، بأنّ إرادته تعلّقت ببلائكم وامتحانكم فيما أنعم عليكم، فقال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلنا مِنكُم شِرعَةً ومِنهاجاً ولَو شاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً وٰحِدَةً ولـٰكِن لِيَبلُوَكُم في ما ءاتئكُم﴾. فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ: لكل أمة جعلنا منكم جعلاً تشريعياً شرعة ومنهاجاً...» [٢].

فعلى هذا، لمّا كان للأمة الإسلامية شريعة واحدة، فلايجوز وقوع الاختلاف بينهم، ويجب عليهم الاستباق في العمل بأحكام الشريعة الإسلامية التي فيها صلاحهم، والحذر من الاشتغال بالاختلافات. هذا ما يقوله الطباطبائي ﷺ في بيان قوله تعالى: ﴿...فَاستَبِقُوا الخَيرٰتِ إلَى اللّٰهِ مَرجِعُكُم جَميعاً﴾ [٣]:

«والكلام متفرع على قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلنا مِنكُم شِرعَةً ومِنهاجاً﴾ بما له من لازم

---

١ ـ الزخرف: ٣٣.

٢ ـ تفسير الميزان ٥: ٣٥٢.

٣ ـ المائدة: ٤٨.

المعنى، أي: وجعلنا هذه الشريعة الحقّة المهيمنة على سائر الشرائع شريعة لكم، وفيه خيركم وصلاحكم لا محالة، فاستبقوا الخيرات وهي الأحكام والتكاليف، ولاتشتغلوا بأمر هذه الاختلافات التي بينكم وبين غيركم، فإنّ مرجعكم جميعاً إلى ربكم تعالى، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون، ويحكم بينكم حكماً فصلاً، ويقضي قضاء عدلاً» [1].

٥ ـ الوحدة وحفظ أفضلية هذه الأمة على سائر الأمم

يرىٰ العلّامة الطباطبائي بأنّ الأمة الإسلامية، كانت في أوّل تكوّنها خير أمة ظهرت لملاكات كانت فيها، واليوم أيضاً إذا أرادت الأمة أن تكون خير الأمم، فيجب أن تكون فيها تلك الملاكات، ومنها: الوحدة والإعتصام بحبل الله متفقين متحدين.

يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَو آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [2]:

«... والآية تمدح حال المؤمنين في أول ظهور الإسلام، من السابقين الأولين من المهاجرين والانصار، والمراد بالايمان هوالايمان بدعوة الاجتماع على الاعتصام بحبل الله وعدم التفرّق فيه، في مقابل الكفر به، على ما يدل عليه قوله قبل أكفرتم بعد إيمانكم ﴿... أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [3]**، وكذا المراد بإيمان أهل الكتاب ذلك أيضا، فيؤل المعنى إلى أنكم معاشر امة الإسلام، كنتم في أول ما تكونتم وظهرتم للناس خير أمة ظهرت؛ لكونكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتعتصمون بحبل الله، متفقين متحدين كنفس واحدة، ولوكان أهل الكتاب على**

---

١ ـ تفسير الميزان ٥: ٣٥٣.

٢ ـ آل عمران: ١١٠.

٣ ـ آل عمران: ١٠٦.

هذا الوصف أيضا لكان خيرا لهم لكنهم اختلفوا، منهم أمة مؤمنون وأكثرهم فاسقون»[١].

٦ ـ ضرورة الوحدة لرفع خوف النبي على أمته

نعلم أنّ رسول الله ﷺ كان أول مناد للوحدة الاجتماعية، فأول نداء قرع سمع النوع الإنساني ودعي به هذا النوع إلى الاعتناء بأمر الاجتماع بجعله موضوعاً مستقلاً خارجاً عن زاوية الإهمال وحكم التبعية هوالذي نادى به الرسول الأعظم الإلهي ﷺ، فدعا الناس بما نزل عليه من آيات ربه إلى سعادة الحياة وطيب العيش مجتمعين وجعل المختلفين والمتفرقين بمنزلة اليهود.

يأتي العلّامة بروايات مضمونها تأسّف النبيّ ﷺ على تفرّق أمّته وتشابه الأمة الإسلامية باليهود، وهي تدلّ علي وجوب الوحدة إن كنّا معتقدين برسالته ووجوب اطاعته وحرمة إيذائه:

«في الدر المنثور: أخرج ابن ماجة وابن جرير وابن أبي حاتم، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة وإنّ أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في النار، إلّا واحدة قالوا: يا رسول الله، ومَن هذه الواحدة؟ قال: الجماعة، ثمّ قال: ﴿اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً﴾»[٢].

قال السيّد: «أقول: والرواية أيضاً من المشهورات، وقد روتها الشيعة بنحو آخر، كما في الخصال، والمعاني، والاحتجاج، والأمالي، وكتاب سليم بن قيس، وتفسير العياشي، واللفظ لما في الخصال بإسناده إلى سليمان بن مهران، عن جعفر بن محمد، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أمّة موسى افترقت بعده على إحدى وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية وسبعون في النار، وافترقت

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٦.

٢ ـ الدر المنثور ٢: ٦٠ والروايات بهذا المضمون متعددة فيه.

أمّة عيسى بعده على اثنتين وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية وإحدى وسبعون في النار، وإنّ أمّتي ستفترق بعدي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية واثنتان وسبعون في النار» [١].

«وفي الدر المنثور: أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة».

وفيه أخرج الحاكم، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على امتي ما أتى على بني إسرائيل، حذوالنعل بالنعل، حتى لوكان فيهم من نكح أمّه علانية كان في أمّتي مثله، إنّ بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملّة، وتفترق امتي على ثلاث وسبعين ملّة، كلها في النار إلّا ملّة واحدة، فقيل له: ما الواحدة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي» [٢].

ثم قال: «والروايات على كثرتها وتفنّنها تصدق ما استفدناه من ظاهر الآيات الكريمة، وتوالي الحوادث والفتن يصدّق الروايات» [٣].

ثمّ يأتي برواية دالّة على لزوم الجماعة، وعدم جواز التفرّق:

«وفي الدر المنثور أخرج الحاكم وصححه، عن ابن عمر: أنّ رسول الله ﷺ قال: من خرج من الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتى يراجعه، ومن مات وليس عليه إمام جماعة، فإنّ موتته ميتة جاهلية [٤]» [٥].

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٩، وانظر الخصال، الصدوق: ٥٨٥ ح ١١.

٢ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٩، عن الدر المنثور ٢: ٦١.

٣ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٨٠.

٤ ـ الدر المنثور ٢: ٦١.

٥ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٨١.

٧ ـ الاختلاف والتفرّق من المحرمات التي نهى الله عنها

إن الله تبارك وتعالى ذكر في آيات من سورة الأنعام محرمات، ويعتقد العلّامة الطباطبائي بأنّ الآية ١٥٣ من هذه السورة أيضاً في سياق واحد مع تلك الآيات وهي: ﴿وأَنَّ هَذَا صِرَطِي مُستَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولاَ تَتَّبِعُوا السبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُم بِهِ لَعَلَّكمْ تَتَّقُونَ﴾، فعلى هذا يكون الاختلاف والتفرّق من المحرّمات والمعاصي.

يقول السيّد الأستاذ: «والذي يعطيه سياق الآيات، أن يكون مضمون هذه الآية أحد الوصايا التي أمر النبي ﷺ أن يتلوها عليهم ويخبرهم بها، حيث قيل: ﴿قُل تَعالَوا أَتلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم﴾، ولازم ذلك أن يكون قوله: ﴿وأَنَّ هـذا صِرٰطى مُستَقيماً فَاتَّبِعوهُ﴾ مسوقا لا لتعلق الغرض به بنفسه؛ لأن كليات الدين قد تمت في الآيتين السابقتين عليه، بل ليكون توطئة وتمهيداً لقوله بعده: ﴿ولاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، كما أنّ هذه الجملة بعينها كالتوطئة لقوله: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبيلِهِ﴾، فالمراد بالآية أن لاتتفرقوا عن سبيله ولاتختلفوا فيه، فتكون الآية مسوقة سوق قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدّينِ ما وصّىٰ بِهِ نوحاً والَّذى أَوحَينا اِلَيكَ وما وصَّينا بِهِ إبرٰهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ أَن أَقيموا الدّينَ ولاَ تَتَفَرَّقوا فيهِ﴾[1]، فالأمر في الآية بإقامة الدين هوما وصّى من الدين المشروع، كأنّه أعيد ليكون تمهيداً للنهي عن التفرق بالدين.

فالمعنى: ومما حرم ربكم عليكم ووصاكم به: أن لاتتبعوا السبل التي دون هذا الصراط المستقيم، الذي لايقبل التخلّف والاختلاف وهي غير سبيل الله، فإنّ اتباع السبل دونه يفرّقكم عن سبيله فتختلفون فيه، فتخرجون من الصراط المستقيم، إذ الصراط المستقيم لا اختلاف بين أجزائه ولا بين سالكيه»[2].

---

١ ـ الشورى: ١٣.

٢ ـ تفسير الميزان ٧: ٣٧٧.

٨ ـ وجوب قبول الدعوة إلى الوحدة على جميع الأمة

إنّ الرجوع إلى كلمات النبي الأعظم ﷺ يرشدنا بأنّهﷺ كان يدعو إلى الوحدة ويؤكّد عليها في كلّ مجال؛ لأنّه ﷺ كان يرى حياة الأمة في الوحدة، وهلاكهم في التفرق. هذا ما نبّه الله تعالى عليه في القرآن الكريم، على ما استفادهالطباطبائي من الآيتين ٢٤ و٢٥ من سورة الأنفال، حيث أكّد بأنّ الدعوة المذكورة في الآية التي تحي الأمة هي الدعوة إلى الاتفاق، ومعنى الكلام يؤول إلى تحذير عامة المسلمين من المساهمة في أمر الاختلافات الداخلية التي تهدد وحدتهم، وتوجب شق عصاهم واختلاف كلمتهم.

قال العلّامة في بيان الآية ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّـذِينَ ظَـلَمُوا مِـنْكُمْ خَـاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1]:

«... وقد تفطّن بعض المفسرين، بأن الآية تحذر الأمة، وتهددهم بفتنة تشمل عامتهم وتفرّق جمعهم، وتشتت شملهم، وتوعدهم بعذاب الله الشديد، وقد أحسن التفطّن... والآية ـ كما عرفت ـ تتضمن خطاباً اجتماعياً متوجهاً إلى مجموع الأمة، وذلك يؤيد كون الخطاب في الآية السابقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾، خطاباً اجتماعياً متوجهاً إلى كافة المؤمنين، ويتفرّع عليه أنّ المراد بالدعوة إلى ما يحييهم، الدعوة إلى الاتفاق على الاعتصام بحبل الله، وإقامة الدين، وعدم التفرق فيه، كما قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[2]، وقال: ﴿أَن أَقيموا الدّينَ ولَا تَتَفَرَّقوا فيهِ﴾[3]، وقوله: ﴿وأَنَّ هٰذا صِراطي مُستَقيماً فَاتَّبِعوهُ ولَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

---

١ ـ الأنفال: ٢٥.

٢ ـ آل عمران: ١٠٣.

٣ ـ الشورى: ١٣.

بِكُم عَن سَبيلِهِ﴾ [١] » [٢].

٩ ـ القرآن والاتحاد مع الصادقين

قال السيّد الأستاذ ـ بعد بيان معنى الصدق [٣] ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذينَ ءامَنوا اتَّقُوا اللّهَ وكونوا مَعَ الصّٰادِقين﴾:

«وما في الآية من إطلاق الأمر بالتقوى، وإطلاق الصادقين، وإطلاق الأمر بالكون معهم، والمعية هي المصاحبة في العمل وهوالاتباع، يدل على أنّ المراد بالصدق هو معناه الوسيع العام دون الخاص. فالآية تأمر المؤمنين بالتقوى واتباع الصادقين في اقوالهم وأفعالهم، وهوغير الأمر بالاتصاف بصفتهم، فإنّه الكون منهم لا الكون معهم، وهو ظاهر» [٤].

ثمّ يأتي العلّامة في بحثه الروائي بروايتين تعيّنان الصادقين، الذين يجب علينا الاتحاد معهم، باتباع أقوالهم وأفعالهم:

«في تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب من تفسير أبي يوسف بن يعقوب بن سفيان، حدثنا مالك بن انس، عن نافع، عن ابن عمر قال: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذينَ ءامَنوا اتَّقُوا اللّهَ﴾، قال: أمر الله الصحابة أن يخافوا الله، ثمّ قال: ﴿وكونوا مَعَ الصّٰادِقين﴾ يعني: مع محمد وأهل بيته عليهم السلام [٥]. **أقول: وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن أئمة إهل البيت عليهم السلام ،**

---

١ ـ الأنعام: ١٥٣.

٢ ـ تفسير الميزان ٩: ٥٣.

٣ ـ الصدق بحسب الأصل، مطابقة القول والخبر للخارج، ويوصف به الانسان إذا طابق خبره الخارج، ثمّ لما عدّ كل من الاعتقاد والعزم ـ الإرادة ـ قولاً توسع، في معنى الصدق، فعدّ الانسان صادقاً إذا طابق خبره الخارج، وصادقاً إذا عمل بما اعتقده، وصادقاً إذا اتى بما يريده ويعزم عليه على الجد.

٤ ـ تفسير الميزان ٩: ٤٠٢.

٥ ـ مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٨٨.

وقد روى في الدر المنثور، عن ابن مردويه، عن ابن عباس، وأيضا عن ابن عساكر، عن أبي جعفر في قوله: ﴿وكونوا مَعَ الصّادِقِين﴾ قالا: مع علي بن أبي طالب[1]»[2].

فالمسلمون مأمورون بالوحدة والجماعة، لأنّ الله ناداهم: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصبِرُوا وصابِرُوا ورَابِطوا واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]، وأنّ الصبر والتصبّر في حال الاجتماع والتعاون يشدّد القوى بعضها ببعض، وأمرهم الله تعالى بالمرابطة والارتباط بين قواهم وأفعالهم في جميع شؤون حياتهم الدينية، التي هي أعمّ من حال الشدة وحال الرخاء، وفي آيات مثل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَاتَفَرَّقُوا﴾، إلى أن قال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، أرشدهم إلى حفظ المجتمع عن التفرق والانشعاب، وفي القرآن آيات آمرة ببناء المجتمع الإسلامي على الاتفاق والاتحاد، في حيازة منافعها ومزاياها المعنوية والمادية والدفاع عنه.

والسيّد الطباطبائي يبيّن أنّ الاختلاف في الآراء أمر ضروري؛ لإختلاف الأفهام، ولكن المحاولة والسعي لردّ المختلفين الى ساحة الاتحاد أيضا أمر ضروري؛ لأنّ بقاء الاختلاف من البغي، وفيه إلقاء النفوس في التهلكة، وللممانعة عن وقوع هذا الأثر المشؤوم، فقد أكد القرآن على الدعوة إلى الاتحاد، وبالغ في النهي عن الاختلاف، وأمرنا بالتحفّظ على الإخوة الإيمانية ورفع عوامل تزلزلها، بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4]، حيث يفيد أنّ الطائفتين المتقاتلتين لوجود الإخوة بينهما، يجب أن يستقرّ بينهما الصلح،

---

١ ـ الدر المنثور ٣: ٢٨٩.

٢ ـ تفسير الميزان ٩: ٤٠٨.

٣ ـ آل عمران: ٢٠٠.

٤ ـ الحجرات: ١٠.

والمصلحون لكونهم إخوة للمتقاتلتين، يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما.

ويعتقد العلّامة بأنّ إقامة الدين وعدم التفرّق فيه كما يجب علينا، كذلك يجب على جميع الناس في جميع الأزمنة، وهم مكلّفون بإقامة الدين وعدم التفرّق فيه؛ لقوله تعالى: ﴿أَن أَقِيموا الدِّينَ ولَا تَتَفَرَّقوا...﴾[1]، فكان محصله: أنّ عليهم جميعاً إقامة الدين جميعاً، وأنّ الأمر بإقامة الدين وعدم التفرّق فيه في قوله: ﴿أَن أَقِيموا الدِّينَ ولَا تَتَفَرَّقوا فيه...﴾ مطلق شامل لجميع الناس في جميع الأزمان، والمسلمون ذوو شريعة واحدة ونبيّ واحد، فلايجوز وقوع الاختلاف بينهم.

مضافاً إلى ذلك المحافظة على كون الأمة الإسلامية مفضّلة على سائر الأمم، فهي منوطة بحفظ الوحدة، ومعاشر أمة الإسلام كانوا في أول تكونهم وظهورهم للناس خير أمة ظهرت؛ لكونهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويعتصمون بحبل الله، متفقين متحدين كنفس واحدة.

ويجب علينا تحصيل رضا رسول الله ﷺ حتى لايكون شاكياً منّا يوم القيامة؛ لأنّه ﷺ كان نبيّ الوحدة وقد حذّرنا عن التفرّق والاختلاف، ودعا الناس ـ بما نزل عليه من آيات ربه ـ إلى سعادة الحياة وطيب العيش مجتمعين، وجعل المختلفين والمتفرقين بمنزلة اليهودي، وهو الذي قال: «من خرج من الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتى يراجعه»[2].

ويعتقد العلّامة الطباطبائي بأنّ التفرقة والاختلاف من المحرمات الإلهية، والوحدة واجبة شرعاً؛ لأنّ آية ﴿وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُستَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولَا تَتَّبِعُوا السبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سبِيلِهِ...﴾[3] في سياق آيات المحرمات، فالمراد بالآية أن لاتتفرقوا عن

---

١ ـ الشورى: ١٣.

٢ ـ الدر المنثور ٢: ٦١.

٣ ـ الأنعام: ١٥٣.

سبيله ولاتختلفوا فيه، كأنّه أعيد ليكون تمهيداً للنهي عن التفرّق بالدين.

والسيّد الطباطبائي في بيان الآية ٢٤ و٢٥ من سورة الأنفال، أكّد بأنّ الدعوة المذكورة في الآية التي تحي الأمة هي الدعوة الى الاتفاق، ومعنى الكلام يؤول إلى تحذير عامة المسلمين عن التساهل في أمر الاختلافات الداخلية، التي تهدد وحدتهم، وتوجب شق عصاهم واختلاف كلمتهم. ويقول السيّد بوجوب مراعاة الوحدة على جميع المسلمين، ويعتقد بأنّ القرآن يأمرنا بالاتحاد الحقيقي مع الصادقين والدخول في زمرتهم.

الفصل الثالث

أقسام الوحدة والاختلاف في تفسير الميزان

أ) أقسام الوحدة:

١ ـ الوحدة الساذجة والبسيطة

يرى العلّامة في كتابه، عند ملاحظة الآيات: أنّ النوع الإنساني قد مرّ عليهم في حياتهم زمان كانوا على الاتحاد والاتفاق، وعلى السذاجة والبساطة، لا اختلاف بينهم بالمشاجرة والمدافعة في أمور الحياة، ولا اختلاف في المذاهب والآراء، فالاختلاف في أمور الحياة ناش بعد الاتحاد والوحدة.

وأمّا كيفية هذه الوحدة، فيقول الأستاذ خلال تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾ [1]:

«عبّر تعالى بالبعث دون الإرسال وما في معناه؛ لأنّ هذه الوحدة المخبر عنها من حال الإنسان الأولي حال خمود وسكون، وهو يناسب البعث الذي هو الإقامة عن نوم أو قنوط، ونحو ذلك، وهذه النكتة لعلّها هي الموجبة للتعبير عن هؤلاء المبعوثين بالنبيين، دون أن يعبّر بالمرسلين أو الرسل، على أنّ البعث وإنزال الكتاب ـ كما تقدم بيانه ـ حقيقتهما بيان الحقّ للناس، وتنبيههم بحقيقة أمر وجودهم وحياتهم، وإنبائهم أنّهم

---

١ ـ البقرة: ٢١٣.

مخلوقون لربّهم، وهوالله الذي لا إله إلّا هو، وأنّهم سالكون كادحون إلى الله، مبعوثون ليوم عظيم، واقفون في منزل من منازل السير، لا حقيقة له إلّا اللعب والغرور، فيجب أن يراعوا ذلك في هذه الحياة وأفعالها، وأن يجعلوا نصب أعينهم أنّهم من أين، وفي أين، وإلى أين...» [١].

فعلى هذا كان الناس في ذلك الزمان غير عارفين، وليس لهم علم تفصيلي بالحقائق، وقيمة وحدة هذه الأمة بحسب معرفتها.

٢ ـ الوحدة لغرض دنيوي

كما يرىٰ العلّامة أنّ هناك قسماً آخر للوحدة وعلى أساس آخر، يقول:

«... لا ريب أنّ الاجتماع، أيّ اجتماع كان، إنّما يتحقّق ويحصل بوجود غاية واحدة مشتركة بين أفراده المتشتتة، وهو الروح الواحد الساري في جميع أطرافه التي تتحد بها نوع اتحاد، وهذه الغاية والغرض في نوع الاجتماعات المتكونة غير الدينية، إنّما هي غاية الحياة الدنيوية للإنسان، وهي التمتع من مزايا الحياة المادية على نحو الاجتماع، والاجتماعات المدنية في القرن العشرين توحّدها الغاية الواحدة، التي هي التمتّع من مزايا الحياة الدنيا، وهي السعادة عندهم...» [٢].

٣ ـ الوحدة على أساس التوحيد

وقد عبّر العلّامة في كتابه الكبير، عند حديثه عن هذا القسم، فقال:

«لكن الإسلام لمّا كان يرى أنّ الحياة الإنسانية أوسع مداراً من حياة الدنيا المادية، بل في مدار حياته ـ الحياة الأخروية ـ التي هي الحياة، ويرى أنّ هذه الحياة لاتنفع فيها إلّا المعارف الإلهية، التي تنحلّ بجملتها إلى التوحيد، ويرى أنّ هذه المعارف لاتنحفظ

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١٢٧.

٢ ـ المصدر السابق ٤: ١٠٨.

إلّا بمكارم الأخلاق وطهارة النفس من كل رذيلة، ويرى أنّ هذه الأخلاق لاتتم ولاتكمل إلّا بحياة اجتماعية صالحة، معتمدة على عبادة الله سبحانه، والخضوع لما تقتضيه ربوبيته، ومعاملة الناس على أساس العدل الاجتماعي، أخذ ـ أعني الإسلام ـ الغاية التي يتكون عليها المجتمع البشري، ويتوحد بها، دين التوحيد...»[1].

٤ ـ الوحدة الحزبية

عبّر القرآن في مواضع عن جماعة من الناس بالحزب، فما صفة الحزب؟

يأتي العلّامة في موضع من تفسيره لمعنى الحزب نقلاً عن الراغب: «والحزب... جماعة فيها غلظ»[2 و3]،وفي موضعين بدون ذكر المستند: «والحزب هو العدّة من الناس يجمعهم غرض واحد»[4] و«الأحزاب جمع حزب، وهو الجمع المنقطع في رأيه عن غيره»[5].

فللحزب في رأيه أربع خصوصيات:

١ ـ الجمعية والاجتماع.

٢ ـ الغلظة والإستحكام.

٣ ـ الغرض الواحد.

٤ ـ الانقطاع بالرأي والنظر عن غيره من الجماعات.

هذه الجماعة مع الخصوصيات المذكورة تكون متحدة قطعاً، فالمقصود بالحزب في القرآن، هو الجماعة المتحدة على مدار واحد، ويجمعها غرض واحد.

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ١٠٨.

٢ ـ مفردات الراغب الإصفهاني: ١١٥.

٣ ـ تفسير الميزان ٦: ١٥.

٤ ـ المصدر السابق ١٧: ١٨.

٥ ـ المصدر نفسه ١٤: ٤٩.

٥ ـ الوحدة الرَحِمية

يقول الأستاذ الطباطبائي ﷺ عند شرح قوله تعالى ﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[١]:

«ومحصّل معنى هذا الشطر، أن اتقوا الله من جهة عظمته وعزّته عندكم، وذلك من شؤون الربوبية وفروعها، واتقوا الوحدة الرحمية التي خلقها بينكم، والرحم شعبة من شعب الوحدة، والسنخية السارية بين أفراد الانسان...»[٢].

ب) أقسام الاختلاف:

والاختلاف أيضاً على أقسام حسب رأي السيّد العلّامة الذي دوّنه في تفسيره، لاختلاف الحيثية، فنذكر أهمها:

١ ـ الاختلاف في المعاش

يقول العلّامة ضمن كلامه عن اختلاف الناس، وأنّه على نوعين:

أحدهما: **«الاختلاف من حيث المعاش، وهو الذي يرجع إلى الدعاوي، وينقسم به الناس إلى مدعٍ ومدّعى عليه، وظالم ومظلوم، ومتعدٍ ومتعدّى عليه، وآخذ بحقّه وضائع حقّه، وهذا هو الذي رفعه الله سبحانه بوضع الدين، وبعث النبيين، وإنـزال الكتاب معهم؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويعلّمهم معارف الدين، ويواجههم بالإنذار والتبشير»**[٣].

---

١ ـ النساء: ١.

٢ ـ تفسير الميزان ٤: ١٣٨ ـ ١٣٩.

٣ ـ وهذا ما قاله في تفسير الآية ١٩ من سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا

←

٢ ـ الاختلاف في الدين

وعن بيان القسم الثاني من اختلاف الناس يقول:

«الاختلاف في نفس الدين، وما تضمنه الكتاب الإلهي من المعارف الحقّة من الأصول والفروع، وقد صرّح القرآن في مواضع من آياته: أنّ هذا النوع من الاختلاف ينتهي إلى علماء الكتاب بغياً بينهم، وليس ممّا يقتضيه طباع الإنسان كالقسم الأول، وبذلك ينقسم الطريق إلى طريقي الهداية والضلال، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾[١].

وقد ذكر سبحانه في مواضع من كلامه ـ بعد ذكر هذا القسم من الاختلاف ـ أنّه لولا قضاء من الله سبق لحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، ولكن يؤخرهم إلى أجل، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات»[٣].

ثم يأتي بشواهد من القرآن للاختلافين المذكورين يقول:

«وسياق الآية السابقة، أعني قوله تعالى: ﴿ويَعبُدونَ مِن دونِ اللّهِ ما لَا يَضُرُّهُم ولا يَنفَعُهُم﴾ إلى آخر الآية، لايناسب من الاختلافين المذكورين إلّا الاختلاف الثاني، وهو الاختلاف في نفس الدين؛ لأنّها تذكر ركوب الناس طريق الضلال، بعبادتهم ما لايضرّهم ولاينفعهم، واتّخاذهم شفعاء عند الله، ومقتضى ذلك أن يكون المراد من كون الناس سابقاً أمة واحدة كونهم على دين واحد، وهو دين التوحيد ثمّ اختلفوا، فتفرقوا فريقين:

← كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، مع الاشارة الى ما قاله في تفسير الآية ٢١٣ من سورة البقرة.

١ ـ البقرة: ٢١٣.

٢ ـ الشورى: ١٤.

٣ ـ تفسير الميزان ١٠: ٣١.

موحّد ومشرك. فذكر الله فيها أنّ اختلافهم كان يقضي أن يحكم الله بينهم، بإظهار الحقّ على الباطل، وفيه هلاك المبطلين وإنجاء المحقّين، لكن السابق من الكلمة الإلهية منعت من القضاء بينهم، والكلمة هي قوله تعالى لما أهبط الإنسان إلى الدنيا: ﴿... وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[١] »[٢].

وقال في موضع آخر:

«وقد جمع الله الاختلافين في قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وهذا هو الاختلاف الأول في الحياة والمعيشة ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ وهذا هو الاختلاف الثاني في الدين ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ...﴾[٣]، فهذا ما يعطيه كلامه تعالى في معنى الاختلاف»[٤].

٣ ـ الاختلاف الطبيعي

قسّم السيّد الأستاذفي موضع آخر من تفسيره ـ على ما استفدنا من كلامه ـ الاختلاف إلى نوعين: طبيعي يدوم به العيش الإنساني، وغير طبيعي وهو ما لا يرتضيه العقل السليم، فقال:

«الاختلاف ويقابله الاتفاق من الأمور التي لايرتضيها الطبع... غير أنّ نوعاً منه لا مناص منه في العالم الإنساني، وهوالاختلاف من حيث الطبائع المنتهية إلى اختلاف البنى، فإنّ التركيبات البدنية مختلفة في الأفراد، وهو يؤدي إلى اختلاف الإستعدادات البدنية والروحية، وبإنضمام اختلاف الأجواء والظروف إلى ذلك يظهر اختلاف السلائق،

---

١ ـ البقرة: ٣٦.

٢ ـ تفسير الميزان ١٠: ٣١.

٣ ـ البقرة: ٢١٣.

٤ ـ تفسير الميزان ١١: ٦٠.

والسنن والآداب، والمقاصد والأعمال النوعية والشخصية في المجتمعات الإنسانية، وقد أوضحت الأبحاث الاجتماعية أن لولا ذلك لم يعش المجتمع الإنساني طرفة عين.

وقد ذكره الله تعالى في كتابه ونسبه إلى نفسه، حيث قال: ﴿... نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً...﴾[1]، ولم يذمّه تعالى في شيء من كلامه إلّا إذا صحب هوى النفس وخالف هدى العقل. وليس منه الاختلاف في الدين، فإنّ الله سبحانه يذكر أنّه فطر الناس على معرفته وتوحيده، وسوّى نفس الإنسان فألهمها فجورها وتقواها، وأنّ الدين الحنيف هو من الفطرة التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله، ولذلك نسب الاختلاف في الدين في مواضع من كلامه إلى بغي المختلفين فيه وظلمهم: ﴿فما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ »[2].

٤ ـ الاختلاف المخالف للطبع السليم

يقول السيّد العلّامة في هذا الصدد: «الاختلاف ويقابله الاتفاق، من الأمور التي لايرتضيها الطبع السليم؛لما فيه من تشتّت القوى وتضعيفها،وآثار أخرى غير محمودة، من نزاع ومشاجرة وجدال وقتال وشقاق، كلّ ذلك يذهب بالأمن والسلام»[3].

٥ ـ الاختلاف في الباطن

وقد يقع الاختلاف بين الناس لإختلاف باطنهم، ولذلك تختلف مواجهتم مع كتاب الله، يقول السيّد في بيان قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ

---

١ ـ الزخرف: ٣٢.

٢ ـ تفسير الميزان ١١: ٦٠.

٣ ـ المصدر السابق.

مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[1]:

«والمعنى: أنّ الناس في الأخذ بالكتاب قسمان: فمنهم من يتّبع ما تشابه منه، ومنهم من يقول إذا تشابه عليه شيء منه: آمنّا به كلٌّ من عند ربنا، وإنّما اختلفا لإختلافهم من جهة زيغ القلب ورسوخ العلم»[2].

٦ ـ الاختلاف في الإدراك

ربّما يقع الاختلاف بين الناس من جهة قوة التعقّل والإدراك، يقول السيّد العلّامة:

«أنّه لمّا كانت عامة الناس لايتجاوز فهمهم المحسوس، ولايرقى عقلهم إلى ما فوق عالم المادة والطبيعة، وكان من ارتقى فهمه منهم بالارتياضات العلمية، إلى الورود في إدراك المعاني وكليات القواعد والقوانين، يختلف أمره باختلاف الوسائل التي يسرت له الورود في عالم المعاني والكليات، كان ذلك موجباً لإختلاف الناس في فهم المعاني الخارجة عن الحسّ والمحسوس اختلافاً شديداً، ذا عرض عريض على مراتب مختلفة، وهذا أمر لاينكره أحد»[3].

ويقول أيضاً في هذا المجال:

«إنّ للناس بحسب مراتب قربهم وبعدهم منه تعالى مراتب مختلفة من العمل والعلم، ولازمه أن يكون ما يتلقّاه أهل واحدة من المراتب والدرجات، غير ما يتلقّاه أهل المرتبة والدرجة الأخرى، التي فوق هذه أو تحتها، فقد تبيّن أنّ للقرآن معاني مختلفة مترتّبة. وقد ذكر الله سبحانه أصنافاً من عباده، وخصّ كلّ صنف بنوع من العلم

---

١ ـ آل عمران: ٧.

٢ ـ تفسير الميزان ٣: ٢٧.

٣ ـ المصدر السابق: ٦٠.

والمعرفة لايوجد في الصنف الآخر، كالمخلصين... وكـالموقنين... وكـالمنيبين و... وكالأولياء... وكالمقرّبين والمجتبين والصدّيقين والصالحين والمؤمنين، ولكلٍّ مـنهم خواصّ من العلم والإدراك يختصّون بها... ونظير هذه المقامات الحسنة مقامات سوء في مقابلها، ولها خواص رديئة في باب العلم والمعرفة، ولها أصـحاب كـالكافرين والمنافقين والفاسقين والظالمين وغيرهم، ولهم أنصباء من سوء الفهم ورداءة الإدراك لآيات الله ومعارفه الحقّة...»[1].

٧ ـ الاختلاف في الأزمان والاستعداد والتهيّؤ

يقول الأستاذ في تفسير قوله تعالى: ﴿... لِكلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شرْعَةً ومِنْهَاجاً ولَوشاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكمْ أُمَّةً وَحِدَةً ولَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ في مَا ءَاتَاكُمْ فَاستَبِقُوا الْخَيرَتِ إِلى اللَّهِ مَرْجِعُكمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تخْتَلِفُونَ﴾[2]:

«بيان لسبب اختلاف الشرائع، وليس المراد بجعلهم أمة واحدة الجعل التكويني، بمعنى النوعية الواحدة... بل المراد أخذهم بحسب الاعتبار أمة واحدة، على مستوى واحد من الاستعداد والتهيؤ، حتى تشرّع لهـم شـريعة واحـدة لتـقارب درجـاتهم الملحوظة... وليست هي الاختلافات بحسب المساكن والألسنة والألوان، فإنّ الله لم يشرّع شريعتين أوأكثر في زمان واحد قط، بل هي الاختلافات بحسب مرور الزمان، وارتقاء الإنسان في مدارج الاستعداد والتهيؤ...

وبالجملة: لّما كانت العطايا الإلهية لنوع الإنسان من الاستعداد والتـهيؤ مـختلفة باختلاف الأزمان، وكانت الشريعة والسنّة الإلهية الواجب إجراؤها بينهم لتتميم سعادة حياتهم، وهي الامتحانات الإلهية، تختلف لا محالة باختلاف مـراتب الاسـتعدادات

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ٦٦.

٢ ـ المائده: ٤٨.

وتنوعها، أنتج ذلك لزوم اختلاف الشرائع...»[١].

٨ ـ الاختلاف في الفضيلة والمقامات

يقول السيّد في تفسيره:

«قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ وفيه دلالة على التفضيل الإلهي الواقع بين الأنبياء عليهم السلام ففيهم من هو أفضل وفيهم من هو مفضّل عليه، وللجميع فضل، فإنّ الرسالة في نفسها فضيلة وهي مشتركة بين الجميع، ففيما بين الرسل أيضاً اختلاف في المقامات وتفاوت في الدرجات، كما أنّ بين الذين بعدهم اختلافاً، على ما يدلّ عليه ذيل الآية، إلّا أنّ بين الاختلافين فرقاً، فإنّ الاختلاف بين الأنبياء اختلاف في المقامات وتفاضل في الدرجات، مع اتحادهم في أصل الفضل وهوالرسالة، واجتماعهم في مجمع الكمال وهوالتوحيد، وهذا بخلاف الاختلاف الموجود بين أمم الأنبياء بعدهم، فإنّه اختلاف بالإيمان والكفر، والنفي والإثبات، ومن المعلوم أن لا جامع في هذا النحو من الاختلاف، ولذلك فرّق تعالى بينهما من حيث التعبير، فسمّى ما للأنبياء تفضيلاً ونسبه إلى نفسه، وسمّى ما عند الناس بالاختلاف ونسبه إلى أنفسهم، فقال في مورد الرسل: (فضّلنا)، وفي مورد أممهم: (اختلفوا)»[٢].

٩ ـ الاختلاف في مدار الوحدة

يقول السيّد في توضيح هذا القسم من الاختلاف:

«وهي أنّ الاجتماع الإسلامي شعاره الوحيد هو اتّباع الحق في النظر والعمل، والاجتماع المدني الحاضر شعاره اتّباع ما يراه ويريده الأكثر، وهذان الشعاران يوجبان اختلاف الغاية في المجتمع المتكون، فغاية الاجتماع الإسلامي السعادة الحقيقية العقلية،

---

١ ـ تفسير الميزان ٥: ٣٥٢.

٢ ـ المصدر السابق ٢: ٣١٠.

بمعنى: أن يأخذ الإنسان بالاعتدال في مقتضيات قواه، فيعطي للجسم مشتهياته مقدار ما لايعوقه عن معرفة الله من طريق العبودية، بل يكون مقدمة توصله إليها، وفيه سعادة الإنسان بسعادة جميع قواه، وهي الراحة الكبرى...»[1].

ثم يقول: «وبالجملة: الاجتماعات المدنية توحّدها الغاية الواحدة، التي هي التمتع من مزايا الحياة الدنيا، وهي السعادة عندهم، لكن الإسلام لمّا كان يرى أنّ الحياة الإنسانية أوسع مداراً من الحياة الدنيا المادية، بل في مدار حياته الحياة الأخروية التي هي الحياة، ويرى أنّ هذه الحياة لاتنفع فيها إلّا المعارف الإلهية، التي تنحلّ بجملتها إلى التوحيد... أخذ ـ أعني الإسلام ـ الغاية التي يتكوّن عليها المجتمع البشري ويتوحّد بها، دين التوحيد...»[2].

١٠ ـ الاختلاف في شؤون الحياة

يقول السيّد الاستاذ في هذا القسم من الاختلاف:

«وأمّا الاختلاف المؤدي إلى نزول الشريعة، وهو الاختلاف في شؤون الحياة، والتفرّق في أمور المعاش، فهو أمر عائد إلى اختلاف طبائع الناس في مقاصدهم، وهو الذريعة إلى نزول الوحي وتشريع الشرع لرفعه، كما يشير إليه قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾[3]»[4].

الوحدة هي المعروف والخير

ويقول السيّد العلّامة ﷺ في تبيين قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾، مع الإعتقاد بأنّ الكلام مبني على ما في

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ١٠١.

٢ ـ المصدر السابق: ١٠٨.

٣ ـ البقرة: ٢١٣.

٤ ـ تفسير الميزان ١٨: ٣١.

الآية السابقة من قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾:

«التجربة القطعية تدلّ على أنّ المعلومات التي يهيؤها الإنسان لنفسه في حياته ـ ولا يهيىء ولايدخر لنفسه إلّا ما ينتفع به ـ من أيّ طريق هيأها، وبأيّ وجه ادخرها، تزول عنه إذا لم يذكرها، ولم يدم على تكرارها بالعمل، ولا نشك أنّ العمل في جميع شؤونه يدور مدار العلم، يقوى بقوته ويضعف بضعفه، ويصلح بصلاحه ويفسد بفساده، وقد مثّل الله سبحانه حالهما في قوله: ﴿البَلَدُ الطَّيِّبُ يَخرُجُ نَباتُهُ بِإِذنِ رَبِّهِ والَّذى خَبُثَ لا يَخرُجُ اِلّا نَكِداً...﴾[1]. ولا نشكّ أنّ العلم والعمل متعاكسان في التأثير، فالعلم أقوى داعٍ إلى العمل، والعمل الواقع المشهود أقوى معلّم يعلّم الإنسان.

وهذا الذي ذكر، هوالذي يدعو المجتمع الصالح، الذي عندهم العلم النافع والعمل الصالح، أن يتحفظوا على معرفتهم وثقافتهم، وأن يردّوا المتخلّف عن طريق الخير المعروف عندهم إليه، وأن لايدعوا المائل عن طريق الخير المعروف، وهو الواقع في مهبط الشرّ، والمنكر عندهم أن يقع في مهلكة الشرّ وينهوه عنه. وهذه هي الدعوة بالتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي التي يذكرها الله في هذه الآية بقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾.

ومن هنا يظهر السرّ في تعبيره تعالى عن الخير والشر بالمعروف والمنكر؛ فإنّ الكلام مبنيّ على ما في الآية السابقة من قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾.

ومن المعلوم أنّ المجتمع الذي هذا شأنه [الإعتصام بحبل الله والإجتناب من التفرق] يكون المعروف فيه هو الخير، والمنكر فيه هو الشر، ولولا العبرة بهذه النكتة لكان الوجه في تسمية الخير والشر بالمعروف والمنكر، كون الخير والشر معروفاً

---

١ ـ الأعراف: ٥٨.

ومنكراً، بحسب نظر الدين، لا بحسب العمل الخارجي »[1].

الاختلاف المذهبي والتفرّقة مخالفة لسنّة النبي ﷺ

إنّ السيّد العلّامة يرى بأنّ المتفرقين بإبداع الاختلاف المذهبي، طريقتهم مخالفة لطريقة رسول الله ﷺ؛ لأنّ محمّداً ﷺ رسول الوحدة وليس نبيّ المختلفين في الدين، والاختلاف والتفرقة يوجب الخروج عن دين النبي ﷺ. هذا ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ...﴾[2]:

«وجه الكلام السابق ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَئِكَةُ أَوْيَأْتِيَ رَبُّك أَوْيَأْتِيَ بَعْض ءَايَتِ رَبِّك يَوْمَ يَأْتِى بَعْض ءَايَتِ رَبِّك لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَنهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَت مِن قَبْلُ أَوكَسبَت فِي إِيمَنهَا خَيراً قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ وإن كان مع المشركين، وقد ابتلوا بتفريق الدين الحنيف، وكان أيضاً لأهل الكتاب نصيب من الكلام، وربما لوّح إليهم بعض التلويح، ولازم ذلك أن ينطبق قوله: ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾ على المشركين، بل عليهم وعلى اليهود والنصارى؛ لاشتراك الجميع في التفرق والاختلاف في الدين الإلهي.

لكن اتصال الكلام بالآيات المبينة للشرائع العامة الإلهية، التي تبتدئ بالنهي عن الشرك، وتنتهي إلى النهي عن التفرق عن سبيل الله، يستدعي أن يكون قوله: ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾ موضوعاً لبيان حال النبي ﷺ، مع من كان هذا وصفه، فالإتيان بصيغة الماضي في قوله: ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾» لبيان أصل التحقق، سواء كان في الماضي أوالحال أوالمستقبل، لاتحقق الفعل في الزمان الماضي فحسب.

ومن المعلوم أنّ تمييز النبي ﷺ وإخراجه من أولئك المختلفين في الدين،

١ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٢.

٢ ـ الأنعام: ١٥٩.

المتفرقين شيعة شيعة، كل شيعة يتبع إماماً يقودهم ليس إلّا؛ لأنّه رسول يدعو إلى كلمة الحقّ ودين التوحيد، ومثال كامل يمثّل بوجوده الإسلام ويدعو بعمله إليه، فيعود معنى قوله: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ إلى أنّهم ليسوا على دينك الذي تدعو إليه، ولا على مستوى طريقك الذي تسلكه.

فمعنى الآية: أن الذين فرّقوا دينهم بالاختلافات، التي هي لا محالة ناشئة عن العلم ـ وما اختلف الذين أوتوه إلّا بغياً بينهم ـ والانشعابات المذهبية، ليسوا على طريقتك التي بنيت على وحدة الكلمة ونفي الفرقة، إنّما أمرهم في هذا التفريق إلى ربّهم لايماسك منهم شيء، فينبّئهم يوم القيامة بما كانوا يفعلون، ويكشف لهم حقيقة أعمالهم التي هم رهناؤها.

وقد تبيّن بما مرّ أن لا وجه لتخصيص الآية بتبرئته ﷺ من المشركين، أو منهم ومن اليهود والنصارى، أومن المختلفين بالمذاهب والبدع من هذه الأمة، فالآية عامة تعمّ الجميع»[١].

الاختلاف يوجب العذاب

يقول السيّد العلّامة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢]:

«كان تحذر الآية جميع المؤمنين عن فتنة تختص بالظالمين منهم، ولايتعدّاهم إلى غيرهم من الكفار والمشركين، واختصاصها بالظالمين من المؤمنين، وأمر عامتهم مع ذلك باتقائها، يدلّ على أنّها وإن كانت قائمة ببعض الجماعة، لكن السيئ من أثرها يعم الجميع، ثمّ قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تهديد للجميع بالعقاب

١ ـ تفسير الميزان ٧: ٣٨٩.

٢ ـ الأنفال: ٢٥.

الشديد، ولا دليل يدلّ على اختصاص هذا العقاب بالحياة الدنيا، وكونه من العذاب الدنيوي، من قبيل الاختلافات القومية وشيوع القتل والفساد، وارتفاع الأمن والسلام ونحو ذلك.

ومقتضى ذلك أن تكون الفتنة المذكورة على اختصاصها ببعض القوم، ممّا يوجب على عامة الأمة أن يبادروا على دفعها، ويقطعوا دابرها ويطفأوا لهيب نارها، بما أوجب الله عليهم من النهي عن المنكر والأمر بالمعروف. فيؤول معنى الكلام إلى تحذير عامة المسلمين عن المساهلة في أمر الاختلافات الداخلية، التي تهدّد وحدتهم، وتوجب شقّ عصاهم، واختلاف كلمتهم، ولاتلبث دون أن تحزّبهم أحزاباً وتبعّضهم أبعاضاً، ويكون الملك لمن غلب منهم، والغلبة لكلمة الفساد، لا لكلمة الحقّ والدين الحنيف الذي يشترك فيه عامة المسلمين.

فهذه فتنة تقوم بالبعض منهم خاصة وهم الظالمون، غير أنّ سيئ أثره يعم الكل ويشمل الجميع، فيستوعبهم الذلة والمسكنة، وكل ما يترقب من مرّ البلاء بنشوء الاختلاف فيما بينهم، وهم جميعاً مسؤولون عند الله، والله شديد العقاب.

وقد أبهم الله تعالى أمر هذه الفتنة، ولم يعرّفها بكمال اسمها ورسمها، غير أنّ قوله فيما بعد: ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ـ كما تقدم ـ يوضّحها بعض الإيضاح، وهو أنّها اختلاف البعض من الأمة مع بعض منها، في أمر يعلم جميعه وجه الحقّ فيه، فيجمح البعض عن قبول الحق ويقدم إلى المنكر بظلمه، فلايردعونه عن ظلمهنهونه عن ما يأتيه من المنكر، وليس كل ظلم، بل الظلم الذي يسري سوء أثره إلى كافة المؤمنين وعامة الأمة؛ لمكان أمره سبحانه الجميع باتقائه، فالظلم الذي هو لبعض الأمة ويجب على الجميع أن يتقوه، ليس إلّا ما هو من قبيل التغلب على الحكومة الحقّة الإسلامية، والتظاهر بهدم القطعيات من الكتاب والسنّة التي هي من حقوقها.

وأيّاً ما كان، ففي الفتن الواقعة في صدر الإسلام ما ينطبق عليه الآية أوضح انطباق، وقد انهدمت بها الوحدة الدينية، وبدت الفرقة، ونفدت القوة، وذهبت الشوكة، على ما اشتملت عليه من القتل والسبي والنهب، وهتك الأعراض والحرمات، وهجر الكتاب، وإلغاء السنّة، وقال الرسول: «يا رب! إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً». ومن شمول مشأمتها وتعرّق فسادها، أنّ الأمة ستطيع الخروج من أليم عذابها، حتى بعد التنبّه منهم؛ لسوء فعالهم وتفريطهم في جنب الله، كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وذوقوا عذاب الحريق.

وقد تفطّن بعض المفسّرين بأنّ الآية تحذّر الأمة وتهدّدهم بفتنة، تشمل عامتهم وتفرّق جمعهم، وتشتّت شملهم، وتوعدهم بعذاب الله الشديد، وقد أحسن التفطّن غير أنّه تكلّف في توجيه العذاب بالعذاب الدنيوي، وتمحل في تقييد ما في الآية من إطلاق العقاب، وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد...

والآية ـ كما عرفت ـ تتضمّن خطاباً اجتماعياً متوجهاً إلى مجموع الأمة، وذلك يؤيد كون الخطاب في الآية السابقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، خطاباً اجتماعياً متوجّهاً إلى كافة المؤمنين، ويتفرّع عليه أنّ المراد بالدعوة إلى ما يحييهم، الدعوة إلى الاتفاق على الاعتصام بحبل الله وإقامة الدين وعدم التفرق فيه، كما قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [١] وقال: ﴿أَنْ أَقِيموا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقوا فيهِ﴾ [٢] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَاتَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [٣]» [٤].

---

١ ـ آل عمران: ١٠٣.

٢ ـ الشورى: ١٣.

٣ ـ الأنعام: ١٥٣.

٤ ـ تفسير الميزان ٩: ٥٠.

الاختلاف والتفرّق ذنب عظيم

لا شكّ أنّ كلّ ما أوعد الله عليه العذاب والهلاك فهو حرام ارتكابه، ويجب الاحتراز منه، ونرى أنّ الله تهدّد المختلفين والمتفرّقين بالهلاك، على ما قال الطباطبائي في بيان قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ...﴾ [1]:

«والمعنى: ولولا أنّ الله قضى فيهم الاستقرار والتمتع في الأرض إلى أجل سماه وعينه، لقضي بينهم إثر تفرّقهم في دينه، وانحرافهم عن سبيله، فأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم» [2].

١ ـ الشورى: ١٤.

٢ ـ تفسير الميزان ١٨: ٣٢.

الفصل الرابع
أصول الوحدة الإسلامية والانسانية في تفسير الميزان

الأصول الأساسية لوحدة المجتمع

إنّ الإنسان حي بحركته في هذه الحياة، يسعى جاداً في البحث عن طرق سعادته التي تبلغ به الكمال، كما أنّ مجموعة المخلوقات ـ العاقلة منها وغير العاقلة ـ في حركتها الجوهرية طالبة كمالها،ولذلك يبحث عما يرتبط بشؤونه ويصب في طريقه.

ولو ألقينا نظرة على هذا الكون الفسيح للحظنا قسمين من الاندماج، يمكن أن يطلق على أحدهما: تجمع، والآخر: مجتمع. والأول: حالة من ضم شيء إلى شيء آخر، كضم الحجر إلى الحجر، أو بنظرة أرقى، كتجمعات الحيوانات في مراكز تربيتها. والثاني: حالة من الضم تتبعها مجموعة من القيود والضوابط، التي نعبّر عنها بالقيم والتقاليد.

والإنسان دائماً يتحرك في المحور الاجتماعي لا المحور التجمّعي، وذلك يتبع مقدار ما يمتلك من قيم وضوابط، وكلما ابتعد عنها تفكك المجتمع، وبـرزت روح الانفصال والتفرق والتمزق. من هذا المنطلق يتحرك الإنسان طالباً الوحدة مع بني مجتمعه، باعتبارها نزعةً إنسانيةً لا يمكنه أن يتخلّى عنها، والسجلّ التاريخي لمسيرة الإنسان يسجلّ لنا حركة الإنسان في طلبه للوحدة والاتحاد مع الأفراد الآخرين، وكيف أنّه يسعى لتطبيقها بصور متعددة ونظرات مختلفة، وذلك لما لها من الارتباط

الوثيق مع طبيعته الاجتماعية.

المهم أنّ هذه الدعوات والتحركات تنبئ عن الحسّ الداخلي للإنسان، وهي نزعته للاتحاد والوحدة، ونتيجة لقصور الإنسان وانحصار نظرته إلى ما بين قدميه، وانشداده إلى بدنه المادي والى عالمه المادي، وعدم إدراكه لمصالحه ومفاسده، كانت نظراته ودعوته تعكس نفس النظرة القصيرة، ولذلك كان يطرح الوحدة تارةً على أساس اللغة، وأخرى على أساس الجنس، وثالثة على أساس القرب الجغرافي، ورابعة على أساس المصالح الاقتصادية... وهكذا دواليك. وما أن يظهر هذا النوع من الوحدة إلى العلن ويتحرك خطواتٍ، حتى تضعف قواه ويسقط في منتصف الطريق... وكيف ما كان فإنّها تعبّر عن نزعةٍ إنسانيةٍ ملحةٍ وضروريةٍ يطلبها الإنسان.

ولن يستطيع الإنسان بنفسه أن يقدّم لنفسه طرحاً وحدوياً يملك الشمولية ويحظى بقدرة الاستمرار والبقاء، والجهة الوحيدة التي يمكنها ذلك هي الجهة التي تكفّلت بخلق الإنسان، وتعلم الحاجات التي تتناسب مع هذا المخلوق، وهذه الجهة هي السماء؛ لأنّها تعرف أنّه لو اتبعها لبلغ إلى نقطة الكمال والسعادة.

والشريعة الإسلاميّة مشروع من ضمن المشاريع الدينية التي تقدّم الطرح لهذه النزعة، والطرح الإسلامي يتميز بقدرته على تقديم الطرح الوحدوي بصورةٍ متكاملةٍ، وذلك من خلال عنصري: الشمولية والاستمرار، وقدرته هذه نابعة من صميم القيم التي يطرحها، حيث إنّها ثابتة لاتتغير من جهة، ومن جهة أخرى تمثّل الاستجابات الحقيقية لفطرة الإنسان.

وعلى هذا الأساس نعتبر أنّ المشروع الإسلامي الوحدوي، هو المشروع الوحيد الذي يستطيع أن يجيب هذه النزعة الإنسانية، خصوصاً في هذا الظرف من الصراع الحضاري، الذي نحتاج فيه إلى تأسيس حضارة الإنسان، ولا حضارة له سوى حضارة الإسلام.

ومن هذا المنطلق أكّد الدين الإسلامي على الوحدة بين المسلمين: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾. وهكذا جاءت التأكيدات على ألسنة أئمته ودعاته، ولم تقف النوبة عند الطرح النظري فقط، بل تعدته إلى الطرح العملي، كما يلحظ ذلك في حياة النبي ﷺ، التي مثّلت أجلى مصاديق الوحدة بين المسلمين، وأيضاً يلحظ في حياة الأئمة المعصومين عليهم السلام ما يشير إلى ذلك في ممارساتهم العملية.

ولمّا أن تحولت الدولة الإسلاميّة إلى جسد ممزّق، وعصفت بهم التفرقة والتمزيق، وشقّت عصاهم الفرقة الطائفية والسياسية، وبعد أن كان اختلاف الألسن والألوان آية من آيات الله، أصبح عاملاً من عوامل التفريق، حتى ضعفت شوكة المسلمين واستضعفهم الكافرون، فانبرى لإنقاذ هذه الأمة من الضياع والتيه ﴿رِجالٌ صَدَقوا مَا عاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ...﴾ نقشوا أسماءهم على هامة الدهر، وقادوا مسيرة الإصلاح، ودعوا الناس إلى الوحدة والاتحاد بحسب ما يمليه الإسلام.

إنّ من أصعب الأمور هي عملية التشخيص بين الوظائف المتشابكة، حيث إنّنا نعلم أنّ الوظائف والمسؤوليات بينهما ترتّب طولي، وحينها يقدّم الأهم على المهم، وهذه المسألة وإن كانت في ظاهرها سهلة واضحة، إلّا أنّها في المجال العملي في غاية الصعوبة، ولذلك نجد كثيراً من الذين خطوا في مجال الوحدة كيف تعثّرت بهم الخطى، أو أنّهم زاغوا عن طريق الوحدة إلى نقيضها. وهذا الأمر يحتاج إلى نباهة وكياسة من قبل دعاة الوحدة.

والسيد العلّامة الطباطبائي قدس سره كان من الدعاة الذين يمتلكون هذه القدرة في التشخيص، وذلك لما يتمتّع به من قوّة علمية وتجربة، فهو إلى جانب كونه شخصية علمية فلسفية دينية، كان فطناً في المجال السياسي والاجتماعي، ودقيقاً في استخدام العبارات والألفاظ.

فهو يؤكّد بأنّ الإسلام دين اجتماعي، وللإسلام إهتمام خاص بشأن وحدة

المجتمع البشري والترابط بين آحاده، على أساس مستحكم يضمن سعادتهم، ولتحقق هذه المهمة وضع الإسلام دستوراً متقناً.

فيرى بأنّ الإنسان نوع اجتماعي وهو مفطور على هذا، والاجتماع الإنساني كسائر الخواص الروحية الإنسانية وما يرتبط بها، لم يوجد حين وجد تاماً كاملاً قبل النماء والزيادة، بل هوكسائر الأمور الروحية والإدراكية والإنسانية، لم يزل يتكامل بتكامل الإنسان في كمالاته المادية والمعنوية، ولا ريب أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي أسس بنيانه على الاجتماع صريحاً، ولم يهمل أمر الاجتماع في شأن من شؤونه، وقد اعتبر الإسلام أفراد الإنسان بالنسبة إلى المجتمع بمنزلة أجزاء حقيقة واحدة، وللمجتمع وجوداً واحداً، واعتبر في تربيتها وهدايتها إلى سعادتها الحقيقة هذه الرابطة، ويرى الإسلام للأمة وجوداً حقيقياً ذو أجزاء، ولايمكن تحقق تعريف الفرد بدون تعريف مجتمعه.

ولاريب أنّ الاجتماع، أيّ اجتماع كان، إنّما يتحقّق ويحصل بوجود غاية واحدة مشتركة بين أفراده المتشتتة، وهو الروح الواحدة السارية في جميع أطرافه، التي تتحد بها نوع اتحاد، وهذه الغاية والغرض في نوع الاجتماعات المتكونة غير الدينية، إنّما هي غاية الحياة الدنيوية للإنسان، وهي التمتع، من مزايا الحياة المادية على نحو الاجتماع، ولكن الإسلام لمّا كان يرى أنّ الحياة الإنسانية أوسع مداراً من الحياة الدنيا المادية، بل في مدار حياته الحياة الأخروية التي هي الحياة، ويرى أنّ هذه الأخلاق لاتتم ولاتكتمل إلّا بحياة اجتماعية صالحة، معتمدة على عبادة الله سبحانه، وأخذ الإسلام الغاية التي يتكون عليها المجتمع البشري ويتوحّد بها، دين التوحيد.

هذه خلاصة ما قاله الأستاذ العلّامة في تبيين رأي الإسلام حول أمر المجتمع، وبذل الأستاذ جهده لإثبات مدّعاه خلال مباحث علمية على أسس مستفادة من آيات القرآن الكريم، وسنقدّم إليكم تفاصيل آرائه؛ لأن دراسة آرائه تعطينا القدرة على التوسع في تحليل أمر المجتمع، وحاجته الى الوحدة، ليست فقط حاجة

اضطرارية، بل بحيث لايمكنه الوصول إلى مقصده المطلوب الذي يضمن له الفلاح والسعادة إلّا به، وهي:

١ ـ الإنسان نوع اجتماعي

فيقول السيّد في هذا المجال:

«كون النوع الإنساني نوعاً اجتماعياً لايحتاج في إثباته إلى كثير بحث، فكل فرد من هذا النوع مفطور على ذلك، ولم يزل الإنسان يعيش في حال الاجتماع، على ما يحكيه التاريخ والآثار المشهودة الحاكية لأقدم العهود، التي كان هذا النوع يعيش فيها ويحكم على هذه الأرض. وقد أنبأ عنه القرآن أحسن إنباء في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿يـاأَيُّهَا النّاسُ إنّا خَلَقنـاكُم مِن ذكَرٍ وأُنثىٰ وجَعَلنـاكُم شُعوباً وقَبائلَ لِتَعارَفوا﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿بَعضُكُم مِن بَعضٍ﴾ [3]... إلى غير ذلك».

٢ ـ الأصول التكوينية ودورها في وحدة المجتمع

يقول السيّد الاستاذ في تفسير هذه الآية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [4].

وبعد توضيح معنى المودّة والرحمة [5]:

---

١ ـ الحجرات: ١٣.

٢ ـ الزخرف: ٣٢.

٣ ـ آل عمران: ١٩٥.

٤ ـ الروم: ٢١.

٥ ـ قال السيّد الطباطبايي: «المودة كأنّها الحبّ الظاهر أثره في مقام العمل، فنسبة المودة إلى الحبّ كنسبة

←

«ومن أجلّ موارد المودة والرحمة المجتمع المنزلي؛ فإنّ الزوجين يتلازمان بالمودة والمحبة وهما معاً، وخاصة الزوجة، يرحمان الصغار من الأولاد لما يـريان ضـعفهم وعجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيوية، فيقومان بواجب العمل في حفظهم وحراستهم وتغذيتهم وكسوتهم وإيوائهم وتربيتهم، ولولا هذه الرحمة لانقطع النسل ولم يعش النوع قط. ونظير هذه المودة والرحمة مشهود في المجتمع الكبير المدني بين أفراد المجتمع، فالواحد منهم يأنس بغيره بالمودة ويرحـم المسـاكـين والعجزة والضعفاء، الذين لايستطيعون القيام بواجبات الحياة».

ثمّ يوضّح في شرح ذيل الآية بأنّ الاصول التكوينيّة التي تحثّ الانسان لتكوين المجتمع جديرة بالتفكّر والتأمّل فيها، ويقول في شرح: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

«لأنّهم إذا تفكّروا في الأصول التكوينية التي يبعث الإنسان إلى عقد المجتمع من الذكورة والأنوثة، الداعيتين إلى الاجتماع المنزلي والمودة والرحمة، الباعثتين عـلى الاجتماع المدني، ثمّ ما يترتّب على هذا الاجتماع من بقاء النوع واستكمال الإنسان في حياتيه الدنيا والأخرى، عثروا من عجائب الآيات الإلهية في تدبير أمر هذا النوع، على ما يبهر به عقولهم وتدهش به أحلامهم» [١].

٣ ـ نمو الاجتماع الإنساني تكامله

يقول السيّد العلّامة في توضيح ذلك:

«الاجتماع الإنساني كسائر الخواص الروحية الإنسانية وما يرتبط بها، لم يوجد حين وجد تاماً كاملاً لايقبل النماء والزيادة، بل هوكسائر الأمور الروحية الإدراكية الإنسانية،

← الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل إلى الخشوع، الذي هو نوع تأثّر نفساني عن العظمة والكبرياء». والرحمة نوع تأثّر نفساني عن مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال، وحاجته إلى رفع نقيصته، يدعو الراحم إلى إنجائه من الحرمان ورفع نقصه». تفسير الميزان ١٦: ١٦٥.

١ ـ تفسير الميزان ١٦: ١٦٥ ـ ١٦٦.

لم يزل يتكامل بتكامل الإنسان في كمالاته المادية والمعنوية، وعلى الحقيقة لم يكن من المتوقع أن يستثنى هذه الخاصة من بين جميع الخواص الإنسانية، فتظهر أول ظهورها تامة كاملة أتم ما يكون وأكمله، بل هي كسائر الخواص الإنسانية التي لها ارتباط بقوتي العلم والإرادة، تدريجية الكمال في الإنسان، والذي يظهر من التأمل في حال هذا النوع أنّ أول ما ظهر من الاجتماع فيه الاجتماع المنزلي بالازدواج؛ لكون عامله الطبيعي وهو جهاز التناسل أقوى عوامل الاجتماع، لعدم تحققه إلّا بأزيد من فرد واحد أصلاً، بخلاف مثل التغذي وغيره، ثمّ ظهرت منه الخاصة التي سميناها... بالاستخدام، وهو توسيط الإنسان غيره في سبيل رفع حوائجه، ببسط سلطته وتحميل إرادته عليه، ثمّ برز ذلك في صورة الرئاسة...

وخاصة الاجتماع بتمام أنواعها المنزلي وغيره، وإن لم تفارق الإنسانية في هذه الأدوار ولو برهة، إلّا أنّها كانت غير مشعور بها للإنسان تفصيلاً، بل كانت تعيش وتنمو بتبع الخواص الأخرى المعني بها للإنسان، كالاستخدام والدفاع ونحو ذلك... ».

٤ ـ عناية الإسلام الخاصة بالاجتماع

يرىٰ السيّد العلّامة الطباطبائي بأنّ الدين الوحيد الذي له اهتمام خاصّ بحفظ المجتمع عن التفرق هو الاسلام، وفي القرآن آيات مطلقة داعية إلى أصل الاجتماع والاتحاد، وآيات آمرة ببناء المجتمع الإسلامي على الاتفاق والاتحاد، للحصول على المنافع والمزايا المعنوية والمادية والدفاع عنه، وهذا نصّ كلامه:

«لاريب أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي أسس بنيانه على الاجتماع صريحاً، ولم يهمل أمر الاجتماع في شأن من شؤونه، فانظر ـ إن أردت زيادة تبصّر في ذلك ـ إلى سعة الأعمال الإنسانية التي تعجز عن إحصائها الفكرة، وإلى تشعّبها إلى أجناسها وأنواعها وأصنافها، ثمّ انظر إلى إحصاء هذه الشريعة الإلهية لها، وإحاطتها بها، وبسط

أحكامها عليها ترى عجباً، ثمّ انظر إلى تقليبه ذلك كله في قالب الاجتماع، ترى أنّه أنفذ روح الاجتماع فيها غاية ما يمكن من الإنفاذ، ثمّ خذ في مقايسة ما وجدته بسائر الشرائع الحقّة، التي يعتني بها القرآن، وهي شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى حتى تعاين النسبة وتعرف المنزلة.

وأمّا ما لايعتني به القرآن الكريم من الشرائع؛ كأديان الوثنية والصابئة والمانوية والثنوية وغيرها، فالأمر فيها أظهر وأجلى.

وأمّا الأمم المتمدنة وغيرها فالتاريخ لايذكر من أمرها إلّا أنّها كانت تتبع ما ورثته من أقدم عهود الإنسانية من استتباع الاجتماع بالاستخدام، واجتماع الأفراد تحت جامع حكومة الاستبداد والسلطة الملوكية، فكان الاجتماع القومي والوطني والإقليمي يعيش تحت راية الملك والرئاسة، ويهتدي بهداية عوامل الوراثة والمكان وغيرهما، من غير أن يعتني أمة من هذه الأمم عناية مستقلّة بأمره، وتجعله مورداً للبحث والعمل، حتى الأمم المعظمة التي كانت لها سيادة الدنيا، حينما شرقت شارقة الدين وأخذت في إشراقها وإنارتها، أعني إمبراطورية الروم والفرس، فإنّها لم تكن إلّا قيصرية وكسروية، تجتمع أممها تحت لواء الملك والسلطنة، ويتبعها الاجتماع في رشده ونموه ويمكث بمكثها.

نعم يوجد فيما ورثوه أبحاث اجتماعية في مسفورات حكمائهم، من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم إلّا أنّها كانت أوراقاً وصحائف لاترد مورد العمل، ومُثلاً ذهنية لاتنزل مرحلة العين والخارج، والتاريخ الموروث أعدل شاهد على صدق ما ذكرناه.

فأول نداء قرع سمع النوع الإنساني، ودعي به هذا النوع إلى الاعتناء بأمر الاجتماع، بجعله موضوعاً مستقلاً خارجاً عن زاوية الإهمال وحكم التبعية، هو الذي نادى به

صادع [١] الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام، فدعا الناس بما نزل عليه من آيات ربه إلى سعادة الحياة وطيب العيش مجتمعين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ [٢]، وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، إلى أن قال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يشير إلى حفظ المجتمع عن التفرق والانشعاب ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [٤]، إلى غير ذلك من الآيات المطلقة الداعية إلى أصل الاجتماع والاتحاد. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [٥]، وقال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [٦]، وقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [٧]، وقال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [٨] إلى غير ذلك من الآيات الآمرة ببناء المجتمع الإسلامي على الاتفاق والاتحاد، في حيازة منافعها ومزاياها المعنوية والمادية والدفاع عنه » [٩].

---

١ ـ إشارة الي آية: ﴿فَاصدَع بِما تُؤمَرُ﴾ (الحجر: ٩٤). وصدع بالحقّ: إذا تكلّم به جهاراً، ومعنى الآية: أعلن الدعوة وأظهر الحق. أنظر تفسير الميزان ١٢: ١٩٤ ـ ١٩٥. وعلى هذا فالمعني بصادع الإسلام هو رسول الله ﷺ.

٢ ـ الأنعام: ١٥٣.

٣ ـ آل عمران: ١٠٥.

٤ ـ الأنعام: ١٥٩.

٥ ـ الحجرات: ١٠.

٦ ـ الأنفال: ٤٦.

٧ ـ المائدة: ٢.

٨ ـ آل عمران: ١٠٤.

٩ ـ تفسير الميزان ٤: ٩٥.

٥ ـ الإسلام ورابطة الفرد والمجتمع

يقول السيّد في تفسيره في هذا الصدد: «الصنع والإيجاد يجعل أولا أجزاء ابتدائية لها آثار وخواص، ثمّ يركّبها ويؤلّف بينها على ما فيها من جهات البينونة، فيستفيد منها فوائد جديدة مضافة إلى ما للأجزاء من الفوائد المشهودة. فالإنسان ـ مثلاً ـ له أجزاء وأبعاض وأعضاء وقوى لها فوائد متفرقة مادية وروحية، ربما ائتلفت فقويت وعظمت كثقل كل واحد من الأجزاء وثقل المجموع، والتمكّن والانصراف من جهة إلى جهة، وغير ذلك، وربّما لم تأتلف وبقيت على حال التباين والتفرّق؛ كالسمع والبصر والذوق والإرادة والحركة، إلّا أنّها جميعاً من جهة الوحدة في التركيب تحت سيطرة الواحد الحادث الذي هو الإنسان، وعند ذلك يوجد من الفوائد ما لايوجد عند كل واحد من أجزائه، وهي فوائد جمة من قبيل الفعل والانفعال، والفوائد الروحية والمادية، ومن فوائده حصول كثرة عجيبة في تلك الفوائد في عين الوحدة...

وقد اعتبر الإسلام في تربية أفراد هذا النوع وهدايتها إلى سعادتها الحقيقة هذا المعنى الحقيقي فيها، ولا مناص من اعتباره، قال تعالى: ﴿وهُوَ الَّذى خَلَقَ مِنَ الماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وصِهراً﴾ [١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [٢]، وقال: ﴿بَعضُكُم مِن بَعضٍ﴾ [٣].

وهذه الرابطة الحقيقية بين الشخص والمجتمع لا محالة تؤدي إلى كينونة أخرى في المجتمع، حسب ما يمدّه الأشخاص من وجودهم وقواهم وخواصهم وآثارهم، فيتكون في المجتمع سنخ ما للفرد من الوجود وخواص الوجود، وهوظاهر مشهود، ولذلك اعتبر القرآن للأمة وجوداً وأجلاً، وكتاباً وشعوراً، وفهماً وعملاً، وطاعة ومعصيةً، فقال:

---

١ ـ الفرقان: ٥٤.

٢ ـ الحجرات: ١٣.

٣ ـ آل عمران: ١٩٥.

﴿ولِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُم لا يَستَأخِرونَ ساعَةً ولا يَستَقدِمون﴾ [١]، وقال: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدعىٰ إِلىٰ كِتابِهَا﴾ [٢]، وقال: ﴿زَيَّنّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُم﴾ [٣]، وقال: ﴿مِنهُم أُمَّةٌ مُقتَصِدَةٌ﴾ [٤]، وقال: ﴿أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتلونَ ءاياتِ اللّهِ﴾ [٥]، وقال: ﴿وهَمَّت كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسولِهِم لِيَأخُذوهُ وجادَلوا بِالباطِلِ لِيُدحِضوا بِهِ الحَقَّ فَأَخَذتُهُم فَكَيفَ كانَ عِقاب﴾ [٦]، وقال: ﴿ولِكُلِّ أُمَّةٍ رَسولٌ فَإِذا جاءَ رَسولُهُم قُضِيَ بَينَهُم بِالقِسطِ﴾ [٧].

ومن هنا ما نرى أنّ القرآن يعتني بتواريخ الأمم كاعتنائه بقصص الأشخاص...

وبالجملة لازم ذلك ـ على ما مرّت الإشارة إليه ـ تكون قوى وخواص اجتماعية قوية، تقهر القوى والخواص الفردية عند التعارض والتضاد، على أنّ الحسّ والتجربة يشهدان بذلك في القوى والخواص الفاعلة والمنفعلة معاً. فهمّة الجماعة وإرادتها في أمر ـ كما في موارد الغوغاءات وفي الهجمات الاجتماعية ـ لاتقوم لها إرادة معارضة، ولا مضادة من واحد من أشخاصها وأجزائها، فلا مفر للجزء من أن يتبع كلّه ويجري على ما يجري عليه، حتى إنّه يسلب الشعور والفكر من أفراده وأجزائه... وهذا هو الملاك في اهتمام الإسلام بشأن الاجتماع، ذلك الاهتمام الذي لا نجد ولن نجد ما يماثله في واحد من الأديان الأخر، ولا في سنن الملل المتمدنة، ولعلّك لاتكاد تصدق ذلك، فإنّ تربية الأخلاق والغرائز في الفرد، وهو الأصل في وجود المجتمع، لاتكاد تنجح مع كينونة

---

١ ـ الأعراف: ٣٤.

٢ ـ الجاثية: ٢٨.

٣ ـ الأنعام: ١٠٨.

٤ ـ المائدة: ٦٦.

٥ ـ آل عمران: ١١٣.

٦ ـ غافر: ٥.

٧ ـ يونس: ٤٧.

الأخلاق والغرائز، المعارضة والمضادة القوية القاهرة في المجتمع إلّا يسيراً، لا قدر له عند القياس والتقدير.

فوضع أهم أحكامه وشرائعه كالحج والصلاة والجهاد والإنفاق، وبالجملة التقوى الديني على أساس الاجتماع وحافظ على ذلك، مضافاً إلى قوى الحكومة الإسلامية الحافظة لشعائر الدين العامة وحدودها، ومضافاً إلى فريضة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العامة لجميع الأمة، بجعل غرض المجتمع الإسلامي ـ وكل مجتمع لايستغني عن غرض مشترك ـ هي السعادة الحقيقية والقرب والمنزلة عند الله، وهذا رقيب باطني لايخفى عليه ما في سريرة الإنسان وسره ـ فضلاً عما في ظاهره ـ وإن خفي على طائفة الدعاة وجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا هو الذي ذكرنا، أنّ الإسلام تفوق سُنّة اهتمامه بشأن الاجتماع سائر السنن والطرائق»[1]

كما يؤكّد السيّد الطباطبائي في بيان قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[2]، بأنّ الآية تدلّ على أنّ المجتمع الإنساني ذو حقيقة واحدة، وأفراد المجتمع الإنساني أبعاض متشابهة من حقيقة واحدة، قال:

«فمن حيث أفاد أنّ المجتمع الإنساني على كثرة أفراده وتفرّق أشخاصه، أبعاض من حقيقة واحدة هي حقيقة الإنسان ونوعه، فما أودعته فيه يد الصنع والإيجاد من الاستحقاق والاستعداد، الموزع بينهم على حدّ سواء، يقضي بتساويهم في حقوق الحياة واستوائهم على مستوى واحد، وما تفاوت فيه أحوال الأفراد واستعدادهم في اقتناء مزايا الحياة من مواهب الإنسانية العامة، التي ظهرت في مظاهر خاصة من هاهنا وهناك وهنالك، يجب أن تعطاه الإنسانية لكن من حيث تسأله، كما أن الازدواج والولادة والمعالجة مثلاً من مسائل الإنسانية العامة، لكن الذي يعطى الازدواج هو الإنسان البالغ

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ٩٥ ـ ٩٧.

٢ ـ آل عمران: ٦٤.

الذكر أو الأنثى، والولادة يعطاها الإنسان الأنثى، والعلاج يعطاه الإنسان المريض.

وبالجملة: أفراد الإنسان المجتمع أبعاض متشابهة من حقيقة واحدة متشابهة، فلاينبغي أن يحمل البعض إرادته وهواه على البعض، إلّا أن يتحمّل ما يعادله، وهو التعاون على اقتناء مزايا الحياة، وأمّا خضوع المجتمع أو الفرد لفرد، أعني الكلّ أو البعض لبعض بما يخرجه عن البعضية، ويرفعه عن التساوي بالاستعلاء والتسيطر والتحكّم، بأن يؤخذ ربّاً متّبع المشية، يحكم مطلق العنان، ويطاع فيما يأمر وينهى، ففيه إبطال الفطرة وهدم بنيان الإنسانية...» [1].

٦ ـ الغاية المشتركة هي المدار على الوحدة

يعتقد الطباطبائي بأن الاجتماع ـ أيّ اجتماع كان ـ إنّما يتحقّق بوجود غاية واحدة مشتركة بين أفراده المتشتتة، وهو الروح الواحد الساري في جميع أطرافه التي تتحد بها نوع اتحاد، وهذه الغاية والغرض في نوع الاجتماعات المتكونة غير الدينية، إنّما هي غاية الحياة الدنيوية للإنسان، وهي التمتع من مزايا الحياة المادية على نحو الاجتماع، والاجتماعات المدنية في القرن العشرين توحدها الغاية الواحدة، التي هي التمتع من مزايا الحياة الدنيا، وهي السعادة عندهم، لكن الإسلام لما كان يرى أنّ الحياة الإنسانية أوسع مداراً من الحياة الدنيا المادية، بل في مدار حياته الحياة الأخروية التي هي الحياة، ويرى أنّ هذه الحياة لاتنفع فيها إلّا المعارف الإلهية، التي تنحل بجملتها إلى التوحيد، ويرى أنّ هذه المعارف لاتنحفظ إلّا بمكارم الأخلاق، وطهارة النفس من كل رذيلة، ويرى أن هذه الأخلاق لاتتم ولاتكمل إلّا بحياة اجتماعية صالحة، معتمدة على عبادة الله سبحانه والخضوع لما تقتضيه ربوبيته، ومعاملة الناس على أساس العدل الاجتماعي، أخذ ـ أعني الإسلام ـ الغاية التي

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ٢٥٠.

يتكون عليها المجتمع البشري ويتوحد بها دين التوحيد، ثمّ وضع القانون الذي وضعه على أساس التوحيد.

قال الأستاذ الطباطبائي: «... **المدنية الغربية التي تستديم البقاء... وقد وضعوا سنتهم الاجتماعية وقوانينهم الدائرة على أساس إرادة الأمة، واقتراح الطباع والميول، ثمّاعتبروا فيها إرادة الأكثر واقتراحهم؛ لاستحالة اجتماع الكل بحسب العادة إرادة، وأما فرضية الدين فليست في الدنيا الحاضرة إلّا أمنية، لاتتجاوز مرحلة الفرض، ومثالاً عقلياً غير جائز النيل... وقد قام رسول الله ﷺ بالدعوة، ولم يكن معه من يستظهر به يومئذ إلّا رجل وامرأة، ثمّ لم يزل يلحق بهم واحد بعد واحد، واليوم يوم العسرة كل العسرة، حتى أتاهم نصر الله فتشكلوا مجتمعاً صالحاً ذا أفراد، يغلب عليهم الصلاح والتقوى، ومكثوا برهة على الصلاح الاجتماعي حتى كان من أمر الفتن بعد رسول الله ﷺ ما كان... وهو ذا الإسلام يدعو إلى الاجتماع والتآلف، ويتصرف في جميع شؤون المجتمع الإنساني وأفراده من غير استثناء...**

وهنا جهة... وهي أن الاجتماع الإسلامي شعاره الوحيد هواتباع الحق في النظر والعمل، والاجتماع المدني الحاضر شعاره اتباع ما يراه ويريده الأكثر، وهذان الشعاران يوجبان اختلاف الغاية في المجتمع المتكون، فغاية الاجتماع الإسلامي السعادة الحقيقية العقلية، بمعنى أن يأخذ الإنسان بالاعتدال في مقتضيات قواه، فيعطي للجسم مشتهياته مقدار ما لايعوقه عن معرفة الله من طريق العبودية، بل يكون مقدمة توصل إليها، وفيه سعادة الإنسان بسعادة جميع قواه، وهي الراحة الكبرى...

وأما غاية الاجتماع المدني الحاضر فهي التمتع من المادة، ومن الواضح أنّ هذه تستتبع حياة إحساسية تتبع ما يميل إليه الطبع، سواء وافق ما هوالحق عند العقل أولم يوافق، بل إنّما يتبع العقل فيما لايخالف غايته وغرضه.

ولذلك كانت القوانين تتبع في وضعها وإجرائها، ما يستدعيه هوى أكثرية المجتمع

وميول طباعهم، وينحصر ضمان الإجراء في مواد القانون المتعلقة بالأعمال، وأما الأخلاق والمعارف الأصلية، فلا ضامن لإجرائها بل الناس في التلبس بها وتبعيتها وعدمه، إلّا أن تزاحم القانون في مسيره فتمنع حينئذٍ.

ولازم ذلك أن يعتاد المجتمع الذي شأنه ذلك بما يوافق هواه من رذائل الشهوة والغضب، فيستحسن كثيراً مما كان يستقبحه الدين، وأن يسترسل باللعب بفضائل الأخلاق والمعارف العالية مستظهراً بالحرية القانونية. ولازم هذا اللازم أن يتحول نوع الفكرة عن المجرى العقلي إلى المجرى الإحساسي العاطفي... وربما كان عاديات الطريق الديني غرائب وعجائب مضحكة عندهم وبالعكس.

كلّ ذلك لإختلاف نوع الفكرة والإدراك باختلاف الطريق، ولايستفاد في هذه السنن الإحساسية من التعقل ـ كما عرفت ـ إلّا بمقدار ما يسوى به الطريق إلى التمتع والتلذذ، فهو الغاية الوحيدة التي لايعارضها شيء، ولايمنع منها شيء إلّا في صورة المعارضة بمثلها...

ومن أحسن البيان ـ في أنّ رأي الأكثر ونظرهم لايجب أن يكون حقاً واجب الاتباع ـ قوله تعالى: ﴿بَل جاءَهُم بِالحَقِّ وأَكثَرُهُم لِلحَقِّ كارِهون﴾ [1]، فلو كان كل ما يراه الأكثر حقا، لم يمكن أن يكرهوا الحق ويعارضوه. وبهذا البيان يظهر فساد بناء اتباع الأكثرية على سنة الطبيعة، فإنّ هذه السنّة جارية في الخارج الذي يتعلق به العلم، دون نفس العلم والفكر....

وهذا القضاء إن صحّ فإنّما يصحّ فيمن يجري في تفكره هذا المجرى، وأما من يتفكّر تفكّراً اجتماعياً ليس نصب عينيه إلّا أنّه جزء غير منفك ولا مستقل عن المجتمع، وأنّ منافعه جزء من منافع مجتمعه، يرى خير المجتمع خير نفسه وشره شر نفسه، وكل وصف وحال له وصفاً وحالاً لنفسه، فهذا الإنسان يتفكر نحوا آخر من التفكر،

١ ـ المؤمنون: ٧٠.

ولايشتغل في الارتباط بغيره إلّا بمن هوخارج عن مجتمعه، وأما اشتغاله بأجزاء مجتمعة فلايهتم به ولايقدره شيئاً.

واستوضح ذلك بما نورده من المثال: الإنسان مجموع مؤلف من أعضاء وقـوى عديدة، تجتمع الجميع نوع اجتماع يعطيها وحدة حقيقية نسميها الإنسانية، يوجب ذلك استهلاك الجميع ذاتاً وفعلاً تحت استقلاله، فالعين والأذن واليد والرجل تبصر وتسمع وتبطش وتمشي للإنسان، وإنّما يلتذّ كل بفعله في ضمن التذاذ الإنسان به...

فهذا حال أجزاء الإنسان، وهي تسير سيراً واحداً اجتماعياً، وفي حكمه حال أفراد مجتمع إنساني إذا تفكروا تفكراً اجتماعياً، فصلاحهم وتقواهم أو فسادهم وإجرامهم وإحسانهم وإساءتهم، إنّما هي ما لمجتمعهم من هذه الأوصاف إذا أخذ ذا شخصية واحدة، وهكذا صنع القرآن في قضائه على الأمم والأقوام التي ألجأتهم التعصبات المذهبية أوالقومية أن يتفكروا تفكراً اجتماعياً، كاليهود والأعراب وعدة من الأمم السالفة، فتراه يؤاخذ اللاحقين بذنوب السابقين، ويعاتب الحاضرين ويـوبخهم بأعـمال الغـائبين والماضين، كل ذلك لأنه القضاء الحق فيمن يتفكر فكراً اجتماعياً، وفي القرآن الكريم من هذا الباب آيات كثيرة لا حاجة إلى نقلها...»[1].

ثم يقول: «وبالجملة، الاجتماعات المدنية توحدها الغاية الواحدة، التي هي التمتع من مزايا الحياة الدنيا، وهي السعادة عندهم، لكن الإسلام لمّا كان يرى أن الحـياة الإنسانية أوسع مداراً من الحياة الدنيا المادية، بل في مدار حياته الحياة الأخروية التي هي الحياة، ويرى أنّ هذه الحياة لاتنفع فيها إلّا المعارف الإلهية التي تنحل بجملتها إلى التوحيد، ويرى أنّ هذه المعارف لاتنحفظ إلّا بمكارم الأخلاق وطهارة النفس من كل رذيلة، ويرى أنّ هذه الأخلاق لاتتم ولاتكمل إلّا بحياة اجتماعية صالحة، معتمدة على عبادة الله سبحانه والخضوع لما تقتضيه ربوبيته، ومعاملة الناس على أساس العدل

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ٩٧ ـ ١٠٦.

الاجتماعي، أخذ ـ أعني الإسلام ـ الغاية التي يتكون عليها المجتمع البشري ويتوحد بها دين التوحيد...»[١].

أصول الوحدة الإسلامية والإنسانية

يطرح السيّد العلّامة في تفسيره الكبير بعض أهم أصول الوحدة الاسلامية:

١ ـ دين الله، دين التوحيد والوحدة

يقول العلّامة موضحاً:

«إنّ الاختلافات والانشعابات التي يدعو إليها فرق المنتحلين من اليهود والنصارى، أمور اخترعتها هوساتهم، ولعبت بها أيديهم؛ لكونهم في شقاق، فتقطعوا بذلك طوائف وأحزاباً دينية، وصبغوا دين الله سبحانه ـ وهو دين التوحيد ودين الوحدة ـ بصبغة الأهواء والأغراض والمطامع، مع أن الدين واحد كما أن الإله المعبود بالدين واحد وهو دين إبراهيم، وبه فليتمسك المسلمون وليتركوا شقاق أهل الكتاب»[٢].

٢ ـ الإسلام دين الوحدة الاجتماعية

يعتقد العلّامة الطباطبائي بأنّ الإسلام دين الوحدة الاجتماعية، وجعل الأحكام على أساس الاجتماع من القواعد الأساسية في الإسلام، يقول:

«يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وصابِرُوا ورَابِطوا واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣]. وصفة الاجتماع مرعية مأخوذة في الإسلام، في جميع ما يمكن أن يؤدي بصفة الاجتماع من أنواع النواميس والأحكام، بحسب ما يليق بكل منها من نوع الاجتماع، وبحسب ما

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ١٠٨.

٢ ـ المصدر السابق ١: ٣١٠.

٣ ـ آل عمران: ٢٠٠.

يمكن فيه من الأمر والحث الموصل إلى الغرض، فينبغي للباحث أن يعتبر الجهتين معاً في بحثه.

فالجهة الأولى من الاختلاف: ما نرى أنّ الشارع شرع الاجتماع مستقيماً في الجهاد إلى حد يكفي لنجاح الدفاع، وهذا نوع، وشرع وجوب الصوم والحج مثلاً للمستطيع غير المعذور، ولازمه اجتماع الناس للصيام والحج، وتمم ذلك بالعيدين، الفطر والأضحى، والصلاة المشروعة فيهما، وشرع وجوب الصلوات اليومية عينياً لكل مكلّف، من غير أن يوجب فيها جماعة، وتدارك ذلك بوجوب الجماعة في صلاة الجمعة في كل أسبوع مرة، صلاة جماعة واحدة في كل أربعة فراسخ، وهذا نوع آخر.

والجهة الثانية: ما نرى أنّ الشارع شرع وجوب الاجتماع في أشياء بلا واسطة ـ كما عرفت ـ وألزم على الاجتماع في أمور أخرى غير واجبة، لم يوجب الاجتماع فيها مستقيماً كصلاة الفريضة مع الجماعة، فإنّها مسنونة مستحبة، غير أنّ السنّة جرت على أدائها جماعة، وعلى الناس أن يقيموا السنة.

وقد قال رسول الله ﷺ في قوم من المسلمين تركوا الحضور في الجماعة: «ليوشك قوم يدعون الصلاة في المسجد، أن نأمر بحطب فيوضع على أبوابهم فتوقد عليهم نار، فتحرق عليهم بيوتهم». وهذا هوالسبيل في جميع ما سنّه رسول الله ﷺ، فيجب حفظ سنته على المسلمين بأي وسيلة أمكنت لهم، وبأي قيمة حصلت.

وهذه أمور سبيل البحث فيها الاستنباط الفقهي من الكتاب والسنّة، والمتصدي لبيانها الفقه الإسلامي.

وأهم ما يجب هاهنا هو عطف عنان البحث إلى جهة أخرى وهي اجتماعية. الإسلام في معارفه الأساسية، بعد الوقوف على أنّه يراعي الاجتماع في جميع ما يدعو الناس إليه، من قوانين الأعمال العبادية والمعاملية والسياسية، ومن الأخلاق الكريمة ومن المعارف الأصلية، نرى الإسلام يدعو الناس إلى دين الفطرة، بدعوى أنّه الحق الصريح

الذي لا مرية فيه، والآيات القرآنية الناطقة بذلك كثيرة مستغنية عن الإيراد، وهذا أول التآلف والتآنس مع مختلف الأفهام، فإنّ الأفهام على اختلافها وتعلقها بقيود الأخلاق والغرائز، لاتختلف في أنّ "الحق يجب اتباعه".

ثم نراه يعذر من لم تقم عليه البينة ولم تتضح له المحجة، وإن قرعت سمعه الحجة، قال تعالى: ﴿لِيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ [1]... وهذا يعطي الحرية التامة لكل متفكّر يرى نفسه صالحة للتفكر، مستعدة للبحث والتنقير، أن يتفكر فيما يتعلق بمعارف الدين، ويتعمّق في تفهمها والنظر فيها».

٣ ـ المعتقدون بالتوحيد هم أجزاء لحقيقة واحدة

يقول ﷺ في ذلك: «الإسلام لما كان يرى أن الحياة الإنسانية أوسع مداراً من الحياة الدنيا المادية، بل في مدار حياته، الحياة الأخروية، التي هي الحياة، ويرى أنّ هذه الحياة لاتنفع فيهاالمعارف الإلهية التي تنحل بجملتها إلى التوحيد، ويرى أنّ هذه المعارف لاتنحفظ إلا بمكارم الأخلاق، وطهارة النفس من كل رذيلة، ويرى أنّ هذه الأخلاق لاتتم ولاتكمل إلّا بحياة اجتماعية صالحة، معتمدة على عبادة الله سبحانه، والخضوع لما تقتضيه ربوبيته، ومعاملة الناس على أساس العدل الاجتماعي، أخذ ـ أعني الإسلام ـ الغاية التي يتكون عليها المجتمع البشري ويتوحد بها، دين التوحيد...» [2].

وقال في موضع آخر من تفسيره: «والإسلام لما وضع بنية المجتمع ـ المجتمع الديني ـ على أساس التوحيد وحكومة الدين الإسلامي ألغى جزئية كل مستنكف عن التوحيد» [3].

---

١ ـ الأنفال: ٤٢.

٢ ـ تفسير الميزان ٤: ١٠٩.

٣ ـ المصدر السابق ٦: ٣٤٥.

٤ ـ النوع الانساني أمّة واحدة

يقول السيّد العلّامة بأنّ النوع الإنساني أمة واحدة، ولازمه أن يكون على دين واحد وطريق واحد، ويجب أن يتخذ رباً واحداً.

وبهذا الصدد يقول في تفسير الآية ٩٢ من سورة الانبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾:

«... أن للبشر إلهاً واحداً، وهو الذي فطر السماوات والأرض، فعليهم أن يعبدوه من طريق النبوة وإجابة دعوتها، ويستعدوا بذلك لحساب يوم الحساب، ولم تندب النبوة إلا إلى دين واحد وهو دين التوحيد، كما دعا إليه موسى من قبل، ومن قبله إبراهيم، ومن قبله نوح، ومن جاء بعد موسى وقبل نوح، ممّن أشار الله سبحانه إلى أسمائهم، ونبذة مما أنعم به عليهم، كأيوب وإدريس وغيرهما.

فالبشر ليس إلّا أمة واحدة، لها رب واحد هو الله عزّ اسمه، ودين واحد هو دين التوحيد، يعبد فيه الله وحده، قطعت به الدعوة الإلهية، لكن الناس تقطعوا أمرهم بينهم وتشتتوا في أديانهم، واختلقوا لهم آلهة دون الله، وأديانا غير دين الله، فاختلف بذلك شأنهم، وتباينت غاية مسيرهم في الدنيا والآخرة...

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، الأمة جماعة يجمعها مقصد واحد، والخطاب في الآية ـ على ما يشهد به سياق الآيات ـ خطاب عام يشمل جميع الأفراد المكلفين من الإنسان، والمراد بالأمة النوع الإنساني الذي هو نوع واحد...

والمعنى: أنّ هذا النوع الإنساني أمتكم معشر البشر، وهي أمة واحدة وأنا ـ الله الواحد عزّ اسمه ـ ربكم، إذ ملكتكم ودبرت أمركم فاعبدوني لا غير.

وفي قوله: "أمة واحدة" إشارة إلى حجة الخطاب بالعبادة لله سبحانه، فإنّ النوع الإنساني لما كان نوعاً واحداً، وأمة واحدة ذات مقصد واحد، وهو سعادة الحياة الإنسانية، لم يكن له إلّا ربّ واحد، إذ الربوبية والألوهية ليست من المناصب التشريفية الوضعية،

حتى يختار الإنسان منها لنفسه ما يشاء وكم يشاء وكيف يشاء، بل هي مبدئية تكوينية لتدبير أمره، والإنسان حقيقة نوعية واحدة، والنظام الجاري في تدبير أمره نظام واحد، متصل مرتبط بعض أجزائه ببعض، ونظام التدبير الواحد لايقوم به إلّا مدبّر واحد، فلا معنى لأن يختلف الإنسان في أمر الربوبية، فيتخذ بعضهم ربا غير ما يتخذه الآخر، أو يسلك قوم في عبادته غير ما يسلكه الآخرون، فالإنسان نوع واحد يجب أن يتخذ رباً واحداً هو رب بحقيقة الربوبية وهو الله عزّ اسمه...»[1].

ثمّ يقول في بيان قوله تعالى: ﴿وتَقَطَّعوا أَمرَهُم بَينَهُم كُلٌّ إِلَينا راجِعون﴾[2]: «التقطع ـ على ما قال في مجمع البيان ـ بمعنى التقطيع وهو التفريق... وكيف كان فقوله: ﴿وتَقَطَّعوا أَمرَهُم بَينَهُم﴾ استعارة بالكناية، والمراد به أنهم جعلوا هذا الأمر الواحد وهو دين التوحيد، المندوب إليه من طريق النبوة وهوأمر وحداني قطعا متقطعة، وزعوه فيما بينهم، أخذ كل منهم شيئاً منه وترك شيئاً، كالوثنيين واليهود والنصارى والمجوس والصابئين على اختلاف طوائفهم، وهذا نوع تقريع للناس وذم، لإختلافهم في الدين وتركهم الأمر الإلهي أن يعبدوه وحده»[3].

٥ ـ العقيدة مدار وحدة المجتمع الإسلامي دون القوميّات

يقول ﷺ في ذلك: «بنى الإسلام مدار وحدة المجتمع على العقيدة، وألغى الانشعابات والتشتتات والتميزات القومية والجنسية والوطنية ونحو ذلك.

ألغى الإسلام أصل الانشعاب القومي من أن يؤثر في تكون المجتمع أثره، ذاك الانشعاب الذي عامله الأصلي البدوية والعيش عيشة القبائل والبطون، أو اختلاف منطقة الحياة والوطن الأرضي، وهذان ـ أعني البدوية واختلاف مناطق الأرض ـ في

---

١ ـ تفسير الميزان ١٤: ٣٢١.

٢ ـ الأنبياء: ٩٣.

٣ ـ تفسير الميزان ١٤: ٣٢٣.

طبائعها الثانوية من حرارة وبرودة وجدب وخصب وغيرهما، هما العاملان الأصليان لانشعاب النوع الإنساني شعوباً وقبائل، واختلاف ألسنتهم وألوانهم على ما بيّن في محله.

ثم صارا عاملين لحيازة كل قوم قطعة من الأرض، على حسب مساعيهم في الحياة وبأسهم وشدتهم، وتخصيصها لأنفسهم وتسميتها وطناً يألفونه ويذبون عنه بكل مساعيهم.

وإن كان هذا الأمر قد ساقهم إلى تلك الحوائج الطبيعية، التي تدفعهم الفطرة إلى رفعها، غير أنّ فيه خاصيّة تنافي ما يستدعيه أصل الفطرة الإنسانية من حياة النوع في مجتمع واحد، فإنّ من الضروري أنّ الطبيعة تدعو إلى اجتماع القوى المتشتتة وتآلفها وتقويها بالتراكم والتوحد؛ لتنال ما تطلبه من غايتها الصالحة بوجه أتمّ وأصلح، وهذا أمر مشهود من حال المادة الأصلية حتى تصير عنصراً ثم... ثمّ نباتاً ثمّ حيواناً ثمّ إنساناً.

والانشعابات بحسب الأوطان تسوق الأمة إلى الوحدة في مجتمعهم، يفصله عن المجتمعات الوطنية الأخرى، فيصير واحداً منفصل الروح والجسم عن الآحاد الوطنية الأخرى، فتنعزل الإنسانية عن التوحد والتجمع، وتبتلي من التفرّق والتشتت بما كانت تفر منه، ويأخذ الواحد الحديث يعامل سائر الآحاد الحديثة ـ أعني الآحاد الاجتماعية ـ بما يعامل به الإنسان سائر الأشياء الكونية، من استخدام واستثمار وغير ذلك، والتجربة الممتدة بامتداد العصور، منذ أول الدنيا إلى يومنا هذا تشهد بذلك، وما نقلناه من الآيات في مطاوي الأبحاث السابقة يكفي في استفادة ذلك من القرآن الكريم.

وهذا هوالسبب في أن ألغى الإسلام هذه الانشعابات والتشتتات والتميزات، وبنى الاجتماع على العقيدة دون الجنسية والقومية والوطن ونحوذلك، حتى في مثل الزوجية والقرابة في الاستمتاع والميراث، فإنّ المدار فيهما على الاشتراك في التوحيد، لا المنزل والوطن مثلاً.

ومن أحسن الشواهد على هذا ما نراه عند البحث عن شرائع هذا الدين، أنّه لم يهمل أمره في حال من الأحوال، فعلى المجتمع الإسلامي عند أوج عظمته واهتزاز لواء غلبته أن يقيموا الدين ولايتفرّقوا فيه، وعليه عند الاضطهاد والمغلوبية ما يستطيعه من إحياء الدين وإعلاء كلمته وعلى هذا القياس، حتى أنّ المسلم الواحد عليه أن يأخذ به ويعمل منه ما يستطيعه، ولوكان بعقد القلب في الاعتقاديات والإشارة في الأعمال المفروضة عليه.

ومن هنا يظهر أنّ المجتمع الإسلامي قد جعل جعلايمكنه أن يعيش في جميع الأحوال وعلى كل التقادير، من حاكمية ومحكومية، وغالبية ومغلوبية، وتقدّم وتأخّر وظهور وخفاء، وقوة وضعف.

ويدل عليه من القرآن آيات التقية بالخصوص، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعدِ إيمانِهِ إلّا مَن أُكرِهَ وقَلبُهُ مُطمَئِنٌّ بِالايمانِ﴾ [1]، وقوله: ﴿إلّا أَن تَتَّقُوا مِنهُم تُقَـٰةً﴾ [2]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللّهَ مَا استَطَعتُم﴾، وقوله: ﴿يـٰأَيُّهَا الَّذينَ ءامَنوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولَا تَموتُنَّ إلّا وأَنتُم مُسلِمون﴾ [3]» [4].

٦ ـ الدين الفطري يدعو الإنسان الى الوحدة

إنّ السيّد الاستاذ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَك لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطرَت اللَّهِ الَّتِى فَطرَ النَّاس عَلَيهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِك الدِّينُ القَيِّمُ ولَكِنَّ أَكثرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ﴾ [5]، ابتدأ ببيان معنى الفطرة بأنّها: بناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد والإبداع، وأنّ ﴿فِطرَة

---

١ ـ النحل: ١٠٦.

٢ ـ آل عمران: ٢٨.

٣ ـ آل عمران: ١٠٢.

٤ ـ تفسير الميزان ٤: ١٢٥.

٥ ـ الروم: ٣٠.

اللّهِ﴾ منصوب على الإغراء، وعلى هذا يكون معناه: "الزم الفطرة"؛ ثمّ قال:

«ففيه إشارة إلى أنّ هذا الدين، الذي يجب إقامة الوجه له، هو الذي يهتف به الخلقة، ويهدي إليه الفطرة الإلهية التي لاتبديل لها».

ثمّ السيّد يأتي بالدليل على ما قال في معنى الآية ويقول: «وذلك أنّه ليس الدين إلّا سنة الحياة والسبيل، التي يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد في حياته، فلا غاية للإنسان يتبعها إلّا السعادة، وقد هدي كل نوع من أنواع الخليقة إلى سعادته، التي هي بغية حياته بفطرته ونوع خلقته، وجهّز في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز، قال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذی اَعطیٰ كُلَّ شَیءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدیٰ﴾ [١]، وقال: ﴿اَلَّذی خَلَقَ فَسَوّیٰ * والَّذی قَدَّرَ فَهَدیٰ﴾ [٢].

فالإنسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطور بفطرة، تهديه إلى تتميم نواقصه ورفع حوائجه، وتهتف له بما ينفعه وما يضره في حياته، قال تعالى: ﴿ونَفسٍ وما سَوّیٰها * فَاَلهَمَها فُجورَها وتَقویٰها﴾ [٣]، وهومع ذلك مجهز بما يتم له به ما يجب له أن يقصده من العمل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبیلَ یَسَّرَه﴾ [٤].

فللإنسان فطرة خاصة تهديه إلى سنّة خاصة في الحياة، وسبيل معينة ذات غاية مشخصة ليس له إلّا أن يسلكها خاصة، وهو قوله: ﴿فِطرَت اللّهِ الَّتی فَطرَ النّاس عَلَیهَا﴾، وليس الإنسان العائش في هذه النشأة إلّا نوعاً واحداً، لايختلف ما ينفعه وما يضره بالنظر إلى هذه البنية المؤلفة من روح وبدن، فما للإنسان من جهة أنّه إنسان إلّا سعادة واحدة وشقاء واحد، فمن الضروري حينئذٍ أن يكون تجاه عمله سنّة واحدة ثابتة،

---

١ ـ طه: ٥٠.

٢ ـ الأعلى: ٢ ـ ٣.

٣ ـ الشمس: ٧ ـ ٨.

٤ ـ عبس: ٢٠.

يهديه إليها هاد واحد ثابت.

وليكن ذاك الهادي هوالفطرة ونوع الخلقة، ولذلك عقّب قوله: ﴿فِطرَت اللَّهِ الَّتى فَطرَ النَّاس عَلَيهَا﴾ بقوله: ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾.

فلو اختلفت سعادة الإنسان باختلاف أفراده لم ينعقد مجتمع واحد صالح، يضمن سعادة الأفراد المجتمعين، ولواختلفت السعادة باختلاف الأقطار التي تعيش فيها الأمم المختلفة، بمعنى أن يكون الأساس الوحيد للسنّة الاجتماعية ـ أعني الدين ـ هو ما يقتضيه حكم المنطقة، كان الإنسان أنواعاً مختلفة باختلاف الأقطار، ولو اختلفت السعادة باختلاف الأزمنة، بمعنى أن تكون الأعصار والقرون هي الأساس الوحيد للسنّة الدينية، اختلفت نوعية كل قرن وجيل مع مَن ورثوا من آبائهم أوأخلفوا من أبنائهم، ولم يسر الاجتماع الإنساني سير التكامل، ولم تكن الإنسانية متوجهة من النقص إلى الكمال، إذ لايتحقق النقص والكمال إلّا مع أمر مشترك ثابت محفوظ بينهما.

وليس المراد بهذا إنكار أن يكون لإختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة بعض التأثير في انتظام السنّة الدينية في الجملة، بل إثبات أن الأساس للسنة الدينية هوالبنية الإنسانية، التي هي حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد، فللإنسانية سنة واحدة ثابتة بثبات أساسها الذي هو الإنسان، وهي التي تدير رحى الإنسانية، مع ما يلحق بها من السنن الجزئية المختلفة باختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة. وهذا هو الذي يشير إلى قوله بعد: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ﴾» [1].

وهنا نطرح سؤالاً: إذا كانت الحقيقة كما قلتم، فما الذي منع رحى الإنسانية أن تدار على ركيزة واحدة، ولم ينعقد مجتمع واحد متّحد صالح على أساس الفطرة الواحدة، يضمن سعادة الأفراد المجتمعين؟

ولماذا لم تتحد الأفراد الإنسانية للحركة على أساس النداء الفطري لتحصيل

---

١ ـ تفسير الميزان ١٦: ١٧٨.

سعادتهم؟ ولماذا لم يتخذوا ديناً واحداً؟

يجيب السيّد الأستاذ: «والسبب في ذلك ما ذكره... بقوله: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذينَ ظَلَموا أَهواءَهُم بِغَيرِ عِلمٍ فَمَن يَهدى مَن أَضَلَّ اللّهُ وما لَهُم مِن ناصِرين﴾، فبين أنهم بنوا دينهم على أساس الأهواء، وأنّه لايهديهم ولا هادي غيره.

ومن المعلوم أنّ هوى النفس لايتفق في النفوس، بل ولايثبت على حال واحدة دون أن يختلف باختلاف الأحوال، وإذا كان هوالأساس للدين لم يلبث دون أن يسير بسير الأهواء وينزل بنزولها، ولا فرق في ذلك بين الدين الباطل والدين الحق، المبني على أساس الهوى. ومن هنا يظهر أنّ النهي عن تفرق الكلمة في الدين، نهي ـ في الحقيقة ـ عن بناء الدين على أساس الهوى دون العقل»[1].

٧ ـ أنّ الأنبياء على دين الحق وهو الإسلام

قال الأستاذ في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2]:

«لما حكى ما يأمره[3] به اليهود والنصارى من اتباع مذهبهم، ذكر ما هو عنده من الحق والحق يقول، وهو الشهادة على الإيمان بالله، والإيمان بما عند الأنبياء، من غير فرق بينهم وهو الإسلام، وخصّ الإيمان بالله بالذكر وقدّمه، وأخرجه من بين ما أنزل على الأنبياء؛ لأن الإيمان بالله فطري، لايحتاج إلى بينة النبوة ودليل الرسالة.

ثم ذكر سبحانه ما أنزل إلينا وهوالقرآن أوالمعارف القرآنية، وما أنزل إلى إبراهيم

---

١ ـ تفسير الميزان ١٦: ١٨٢.

٢ ـ البقرة: ١٣٦.

٣ ـ الضمير يعود الى نبي الإسلام.

وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ثمّ ذكر ما أوتي موسى وعيسى، وخصّهما بالذكر، لأنّ المخاطبة مع اليهود والنصارى وهم يدعون إليهما فقط، ثمّ ذكر ما أوتي النبيون من ربهم؛ ليشمل الشهادة جميع الأنبياء، فيستقيم قوله بعد ذلك: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ »[١].

٨ ـ وحدة المجتمع الإنساني ومدار الدين الإلهي

يرىٰ العلّامة الطباطبائي بأنّ توحيد الأمة المجتمعة من الإنسان، مع إلغاء المعارف الدينية من التوحيد والأخلاق الفاضلة، وإن أمكن وهو الطريق المتخذ اليوم، ولكن يتلوه من المفاسد ما فيه بوار هذا النوع وهلاك الحقيقة الإنسانية، ويوجب توقّف القافلة البشرية عن السلوك إلى مقصدها الأعلى.

يقول قدّست نفسه الزكية: «والطريق المتخذ اليوم لتحميل القوانين المصلحة لإجتماع الإنسان أحد طريقين:

الأول: إلجاء الاجتماع على طاعة القوانين الموضوعة لتشريك الناس في حق الحياة وتسويتهم في الحقوق، بمعنى أن ينال كل من الأفراد ما يليق به من كمال الحياة، مع إلغاء المعارف الدينية من التوحيد والأخلاق الفاضلة، وذلك بجعل التوحيد ملغى غير منظور إليه ولا مرعي، وجعل الأخلاق تابعة للإجتماع وتحوله، فما وافق حال الاجتماع من الأخلاق فهو الخلق الفاضل، فيوما العفة ويوما الخلاعة، ويوما الصدق ويوما الكذب، ويوما الأمانة ويوما الخيانة، وهكذا.

والثاني: إلجاء الاجتماع على طاعة القوانين بتربية ما يناسبها من الأخلاق واحترامها، مع إلغاء المعارف الدينية في التربية الاجتماعية.

وهذان طريقان مسلوكان في رفع الاختلافات الاجتماعية وتوحيد الأمة المجتمعة

---

١ ـ تفسير الميزان ١: ٣١١.

من الإنسان، أحدهما بالقوة المجبرة والقدرة المتسلطة من الإنسان فقط، وثانيهما بالقوة والتربية الخلقية، لكنهما على ما يتلوهما من المفاسد مبنيان على أساس الجهل، فيه بوار هذا النوع وهلاك الحقيقة الإنسانية، فإن هذا الإنسان موجود مخلوق لله، متعلّق الوجود بصانعه، بدأ من عنده وسيعود إليه، فله حياة باقية بعد الارتحال من هذه النشأة الدنيوية، حياة طويلة الذيل، غير منقطع الأمد، وهي مرتبة على هذه الحياة الدنيوية، وكيفية سلوك الإنسان فيها، واكتسابه الأحوال والملكات المناسبة للتوحيد، الذي هو كونه عبداً لله سبحانه، بادئاً منه عائداً إليه، وإذا بنى الإنسان حياته في هذه الدنيا على نسيان توحيده، وستر حقيقة الأمر، فقد أهلك نفسه وأباد حقيقته.

فمثل الناس في سلوك هذين الطريقين كمثل قافلة، أخذت في سلوك الطريق إلى بلد ناءٍ معها ما يكفيها من الزاد ولوازم السير، ثمّ نزلت في أحد المنازل في أثناء الطريق فلم يلبث هنيئة حتى أخذت في الاختلاف من قتل وضرب وهتك عرض، وأخذ مال وغصب مكان وغير ذلك، ثمّ اجتمعوا يتشاورون بينهم على اتخاذ طريقة يحفظونها لصون أنفسهم وأموالهم.

فقال قائل منهم: عليكم بالاشتراك في الانتفاع من هذه الأعراض والأمتعة، والتمتع على حسب ما لكل من الوزن الاجتماعي، فليس إلّا هذا المنزل، والمتخلف عن ذلك يؤخذ بالقوة والسياسة.

وقال قائل منهم: ينبغي أن تضعوا القانون المصلح لهذا الاختلاف على أساس الشخصيات الموجودة، الذي جئتم بها من بلدكم الذي خرجتم منه، فيتأدب كل بما له من الشخصية الخلقية، ويأخذ بالرحمة لرفقائه، والعطوفة والشهامة والفضيلة، ثمّ تشتركوا مع ذلك في الانتفاع عن هذه الأمتعة الموجودة، فليست إلّا لكم ولمنزلكم هذا.

وقد أخطأ القائلان جميعاً، وسهيا عن أن القافلة جميعاً على جناح سفر، ومن الواجب على المسافر أن يراعي في جميع أحواله حال وطنه، وحال غاية سفره التي يريدها، فلو نسي شيئاً من ذلك لم يكن يستقبله إلّا الضلال والغي والهلاك.

والقائل المصيب بينهم هو من يقول: تمتعوا من هذه الأمتعة على حسب ما يكفيكم لهذه الليلة، وخذوا من ذلك زاداً لما هو أمامكم من الطريق، وما أريد منكم في وطنكم، وما تريدونه لمقصدكم»[1].

ولهذا يرفض القرآن كل وحدة أن تنعقد على غير التسليم لله، ولا يسامح أن تكون وحدتنا على اتباع الملوك الجبابرة، ويدحض عبادة الأنداد والخضوع لكل قصر مشيد ومنتدى رفيع، وملك قيصري وكسروي.

يقول السيّد العلّامة في تفسيره: **«في القرآن آيات كثيرة تتعرض للملك والولاية وافتراض الطاعة ونحو ذلك، واخرى تعده نعمة وموهبة، كقوله تعالى: ﴿وءاتَينـاهُم مُلكاً عَظيمـا﴾**[2]**، وقوله تعالى: ﴿وجَعَلَكُم مُـلوكاً وءاتـئكُم مَـالَم يُـؤتِ أَحَـداً مِـنَ العـالَمِين﴾**[3]**، وقوله تعالى: ﴿واللّهُ يُؤتى مُلكَهُ مَن يَشاءُ﴾**[4] **إلى غير ذلك من الآيات. غير أنّ القرآن إنّما يعده كرامة إذا اجتمع مع التقوى؛ لحصره الكرامة على التقوى، من بين جميع ما ربما يتخيل فيه شيء من الكرامة من مزايا الحياة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِـنْدَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[5]**، والتقوى حسابه على الله، ليس لأحد أن يستعلي به على أحد، فلا فخر لأحد على أحد بشئ؛ لأنّه إن كان أمراً دنيوياً، فلا مزية لأمر دنيوي ولا قدر إلّا للدين، وإن كان أمراً اخروياً فأمره إلى الله سبحانه، وعلى الجملة لايبقى للإنسان المتلبس بهذه النعمة ـ أعني الملك في نظر رجل مسلم ـ إلّا تحمّل الجهد ومشقة التقلد والاعباء، نعم له عند**

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١١٩.

٢ ـ النساء: ٥٤.

٣ ـ المائدة: ٢٠.

٤ ـ البقرة: ٢٤٧.

٥ ـ الحجرات: ١٣.

ربه عظيم الأجر ومزيد الثواب، إن لازم صراط العدل والتقوى.

وهذا هو روح السيرة الصالحة، التي لازمها أولياء الدين و... في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله والطاهرين من آله، الثابتة بالآثار الصحيحة، وأنهم لم ينالوا من ملكهم إلّا أن يثوروا على الجبابرة في فسادهم في الأرض، ويعارضوهم في طغيانهم واستكبارهم. ولذلك لم يدع القرآن الناس إلى الاجتماع على تأسيس الملك وتشييد بنيان القيصرية والكسروية، وإنّما تلقى الملك شأناً من الشؤون اللازمة المراعاة في المجتمع الانساني، نظير التعليم أو إعداد القوة لارهاب الكفار، بل إنّما دعا الناس إلى الاجتماع والاتحاد والاتفاق على الدين ونهاهم عن التفرق والشقاق فيه وجعله هو الأصل، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [١]، وقال تعالى: ﴿قُل يـاأَهلَ الكِتـابِ تَعالَوا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَينَنا وبَينَكُم أَلَّا نَعبُدَ إِلَّا اللّٰهَ ولَا نُشرِكَ بِهِ شيئاً ولَا يَتَّخِذَ بَعضُنا بَعضاً أَرباباً مِن دونِ اللّٰهِ فَإِن تَوَلَّوا فَقولوا اشهَدوا بِأَنّا مُسلِمون﴾ [٢]. فالقرآن كما ترى دعو الناس إلّا إلى التسليم لله وحده، ويعتبر من المجتمع ـ المجتمع الديني ـ ويدحض ما دون ذلك من عبادة الأنداد، والخضوع لكل قصر مشيد، ومنتدى رفيع، وملك قيصري وكسروي، والتفرّق بإفراز الحدود وتفريق الأوطان وغير ذلك» [٣].

٩ ـ وحدة الشريعة المحمديّة ووحدة الأمة

وحدة الشريعة المحمديّة بنية أساسية في تحقيق وحدة الأمة الإسلامية؛ لأنّ لازم ذلك المبني الإعتقاد بالواحد والعمل بمقتضاه، وكيف يمكن مضادة جماعة معتقدة بهذا الواحد إذا التفتوا وتعقلوا.

---

١ ـ الأنعام: ١٥٣.

٢ ـ آل عمران: ٦٤.

٣ ـ تفسير الميزان ٣: ١٤٨ ـ ١٤٩.

والسيّد العلّامة يبيّن لنا بأنّ الله لم يشرّع شريعتين أو أكثر في زمان واحد قط، بل هي الاختلافات بحسب مرور الزمان، وارتقاء الإنسان في مدارج الاستعداد والتهيؤ. للأمة الإسلامية شريعة واحدة لاشرائع متعددة، ونعلم أنّ الدين إيضا واحد لكل الأمم، فلا مجال للإختلاف بين الأمة المحمديّة ﷺ.

يقول الأستاذ في تفسير قوله تعالى: ﴿وأَنزَلْنَا إِلَيْك الْكِتَب بِالْحَقِّ مُصدِّقاً لِمَا بَينَ يَدَيْهِ مِنَ الْكتَبِ ومُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ولَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَك مِنَ الْحَقِّ لِكلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شرْعَةً ومِنْهَاجاً ولَوشاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكمْ أُمَّةً وَحِدَةً ولَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ في مَا ءَاتَاكُمْ فَاستَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلى اللَّهِ مَرْجِعُكمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تخْتَلِفُونَ﴾ [1] ـ بعد بيان معنى الشريعة والفرق بينها وبين الدين والملة في عرف القرآن ـ بأنّ الآية: **«بيان لسبب اختلاف الشرائع، وليس المراد بجعلهم أمة واحدة الجعل التكويني بمعنى النوعية الواحدة... بل المراد أخذهم بحسب الاعتبار أمة واحدة، على مستوى واحد من الاستعداد والتهيؤ، حتى تشرع لهم شريعة واحدة؛ لتقارب درجاتهم الملحوظة...**

وبالجملة لما كانت العطايا الإلهية لنوع الإنسان من الاستعداد والتهيؤ مختلفة باختلاف الأزمان، وكانت الشريعة والسنّة الإلهية الواجب إجراؤها بينهم لتتميم سعادة حياتهم ـ وهي الامتحانات الإلهية ـ تختلف لا محالة باختلاف مراتب الاستعدادات وتنوعها، أنتج ذلك لزوم اختلاف الشرائع...

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ: لكل أمة جعلنا منكم جعلاً تشريعياً شرعةً ومنهاجاً، ولوشاء الله لأخذكم أمة واحدة، وشرع لكم شريعة واحدة، ولكن جعل لكم شرائع مختلفة ليمتحنكم فيما ءاتاكم من النعم المختلفة، واختلاف النعم كان يستدعي اختلاف

---

١ ـ المائدة: ٤٨.

الامتحان، الذي هو عنوان التكاليف والأحكام المجعولة، فلا محالة ألقي الاختلاف بين الشرائع.

وهذه الأمم المختلفة هي أمم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم، كما يدلّ عليه ما يمتنّ الله به على هذه الأمة بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [1].

ويدلّ قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً...﴾ والكلام متفرّع على قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ بما له من لازم المعنى، أي: وجعلنا هذه الشريعة الحقّة المهيمنة على سائر الشرائع شريعة لكم، وفيه خيركم وصلاحكم لا محالة، فاستبقوا الخيرات وهي الأحكام والتكاليف، ولاتشتغلوا بأمر هذه الاختلافات التي بينكم وبين غيركم، فإنّ مرجعكم جميعاً إلى ربكم تعالى، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون، ويحكم بينكم حكما فصلاً، ويقضي قضاءً عدلاً» [2].

وقال السيّد العلّامة في تفسيره آيات من سورة الشورىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصى بِهِ نُوحاً والَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْك ومَا وَصيْنَا بِهِ إِبْرَهِيمَ ومُوسى وعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ... * ومَا تَفَرَّقُوا إلّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَا بَيْنَهُمْ ولَولَا كلِمَةٌ سبَقَت مِن رَّبِّك إِلى أَجَلٍ مُّسمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَب مِن بَعْدِهِمْ لَفِى شكٍ مِّنْهُ مُرِيب * فَلِذَلِكَ فَادْعُ واستَقِمْ كمَا أُمِرْت ولَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ...﴾ [3]:

«وقد بين فيها ـ بحسب مناسبة المقام ـ أنّ الشريعة المحمديّة أجمع الشرائع المنزلة، وأنّ الاختلافات الواقعة في دين الله على وحدته ليست من ناحية الوحي السماوي، وإنّما هي من بغي الناس بعد علمهم» [4].

---

١ ـ الشورى: ١٣.

٢ ـ تفسير الميزان ٥: ٣٥٢.

٣ ـ الشورى: ١٣ ـ ١٥.

٤ ـ تفسير الميزان ١٨: ٢٨.

فالتمسك بالشريعة المحمديّة ﷺ ومحاولة التزام المسلمين بها كمنهج أساسي وطريق واصل في حفظ وحدة المسلمين وإزالة خصوماتهم.

وهنا يذكر السيّد الأستاذ جملة من الأمور المهمة في هذا الإطار:

(أ) استحالة اتحاد الكفر مع الإيمان

يقول: «وقد تكرر ورود النهي في الآيات الكريمة عن تولي الكافرين واليهود والنصارى واتخاذهم أولياء، لكن موارد النهي مشتملة على ما يفسر معنى التولي المنهي عنه، ويعرّف كيفية الولاية المنهي عنها، كاشتمال هذه الآية ﴿لَا يَتَّخِذْ الْمُؤمنونَ الْكَافرينَ أَولياءَ مِن دُونِ الْمُؤمِنِينَ...﴾ [1] على قوله: ﴿مِن دُونِ الْمُؤمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿لَا يَتَّخِذْ الْمُؤمنونَ الْكَافرينَ أَولياءَ﴾ واشتمال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [2]، على قوله: ﴿بَعضُهُم أَولِياءُ بَعضٍ﴾ وتعقب قوله تعالى: ﴿يـاأَيُّهَا الَّذينَ ءامَنوا لَا تَتَّخِذوا عَدُوّى وعَدُوَّكُم أَولِياءَ﴾ [3] الآية، بقوله: ﴿لَا يَنهىٰكُمُ اللّهُ عَنِ الَّذينَ لَم يُقـاتِلوكُم فِى الدّينِ﴾ إلى آخر الآيات. وعلى هذا فأخذ هذه الأوصاف في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤمِنونَ الكـافِرينَ أَولِياءَ مِن دونِ الْمُؤمِنِينَ﴾ للدلاله على سبب الحكم وعلته، وهو أنّ صفتي الكفر والايمان مع ما فيهما من البعد والبينونة، ولا محالة يسري ذلك إلى مَن اتصف بهما، فيفرق بينهما في المعارف والأخلاق وطريق السلوك إلى الله تعالى وسائر شؤون الحياة، لايلائم حالهما مع الولاية، فإنّ الولاية يوجب الاتحاد والامتزاج، وهاتان الصفتان توجبان التفرق والبينونة، وإذا قويت الولاية كما إذا كان من دون المؤمنين، أوجب ذلك فساد خواص الإيمان وآثاره، ثمّ فساد أصله، ولذلك عقبه

---

١ ـ آل عمران: ٢٨.

٢ ـ المائدة: ٥١.

٣ ـ الممتحنة: ١.

بقوله: ﴿ومَن يَفعَل ذٰلِكَ فَلَيسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيءٍ﴾...»[١].

(ب) المحارب ليس جزءاً من المجتمع الإنساني

ويقول في تبيين علّة إبقاء سبب من أسباب الاستعباد وهو الحرب: «... وذلك إنّ العدو المحارب الذى لا همّ له إلّا أن يفني، الانسانية ويهلك الحرث والنسل، لاترتاب الفطرة الانسانية أدنى ريب في أنّه يجب أنعد جزء من المجتمع الانساني، الذي له التمتع بمزايا الحياة والتنعم بحقوق الاجتماع، وأنّه يجب دفعه بالافناء فما دونه، وعلى ذلك جرت سنّة بني آدم منذ عمّروا في الأرض إلى يومنا هذا، وعلى ذلك ستجري. والإسلام لما وضع بنية المجتمع ـ المجتمع الديني ـ على أساس التوحيد وحكومة الدين الإسلامي، ألغى جزئية كل مستنكف عن التوحيد وحكومة الدين من المجتمع الانساني، إلّا مع ذمة أو عهد، فكان الخارج عن الدين وحكومته وعهده خارجاً عن المجتمع الانساني، لايعامل معه إلّا معاملة غير الانسان، الذي للإنسان أن يحرمه عن أيّ نعمة يتمتع بها الانسان في حياته، ويدفعه بتطهير الأرض، من رجس استكباره وإفساده، فهو مسلوب الحرمة عن نفسه وعملة، ونتائج أيّ مسعى من مساعيه، فللجيش الإسلامي أن يتخذ أسرى ويستعبد عند الغلبة»[٢].

(ج) الإسلام ومحو الإنّية

نعلم أنّ أكثر النزاعات ينشأ من الأنانية، وهي مبدأ الافتراق والاختلاف، والقرآن يستهدف محو هذه الرذيلة بطرق مختلفة، منها التعابير الجماعية حين يعلّم الدعاء والعبادة، ونموذج منها: ﴿إيّاكَ نَعبُدُ وإيّاكَ نَستَعين﴾ في سورة الحمد، التي لا صلاة إلّا بها. يقول السيّد الطباطبائي في بيان معنى الآية:

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ١٥١.

٢ ـ المصدر السابق ٦: ٣٤٥.

«فالعبادة إنّما تكون عبادة حقيقة، إذاكان على خلوص من العبد، وهو الحضور الذي ذكرناه، وقد ظهر أنّه إنّما يتم إذا لم يشتغل بغيره تعالى في عمله... وكأن الاتيان بلفظ المتكلم مع الغير للايماء إلى هذه النكتة، فإنّ فيه هضماً للنفس بالغاء تعينها وشخوصها وحدها، المستلزم لنحو من الإنية والاستقلال، بخلاف إدخالها في الجماعة وخلطها بسواد الناس، فإن فيه امحاء التعين واعفاء الاثر فيؤمن به ذلك » [١].

فالعلّامة الطباطبائي يؤكّد بأنّ الإسلام دين اجتماعي، وللإسلام إهتمام خاص بشأن وحدة المجتمع البشري، والترابط بين آحاده على أساس مستحكم يضمن سعادتهم، ولتحقق هذه المهمة وضع الإسلام دستوراً متقناً.

كما يرى العلّامة بأنّ الإنسان نوع اجتماعي، وهو مفطور على هذا، والاجتماع الإنساني كسائر الخواص الروحية الإنسانية وما يرتبط بها، لم يوجد حين وجد تاماً كاملاًقبل النماء والزيادة، بل هوكسائر الأمور الروحية الإدراكية الإنسانية لم يزل يتكامل، ولا ريب أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي أسس بنيانه على الاجتماع صريحاً، ولم يهمل أمر الاجتماع في شأن من شؤونه، وقد اعتبر الإسلام أفراد الإنسان بالنسبة إلى المجتمع بمنزلة أجزاء حقيقة واحدة، وللمجتمع وجودا واحدا، واعتبر في تربيتها وهدايتها إلى سعادتها الحقيقية هذه الرابطة، ويرى الإسلام للأمة وجوداً حقيقياً ذو أجزاء، ولايمكن تحقق تعريف الفرد بدون تعريف مجتمعه.

ولا ريب أن الاجتماع ـ أي اجتماع كان ـ إنّما يتحقق ويحصل بوجود غاية واحدة مشتركة بين أفراده المتشتتة، وهو الروح الواحد الساري في جميع أطرافه، التي تتحد بها نوع اتحاد، وهذه الغاية والغرض في نوع الاجتماعات المتكونة غير الدينية، إنّما هي غاية الحياة الدنيوية للإنسان، وهي التمتع من مزايا الحياة المادية

---

١ ـ تفسير الميزان ١: ٢٦.

على نحو الاجتماع، وأخذ الإسلام الغاية التي يتكون عليها المجتمع البشري ويتوحد بها، دين التوحيد.

إنّ العلّامة يوضّح بأنّ الاختلافات والانشعابات التي يدعو إليها فرق المنتحلين من اليهود والنصارى، أمور اخترعتها هوساتهم، ولعبت بها أيديهم لكونهم في شقاق، فتقطعوا بذلك طوائف وأحزاباً دينية، وصبغوا دين الله سبحانه ـ وهو دين التوحيد ودين الوحدة ـ بصبغة الأهواء والأغراض والمطامع، مع أنّ الدين واحد كما أنّ الإله المعبود بالدين واحد، وهو دين إبراهيم، وبه فليتمسك المسلمون، وليتركوا شقاق أهل الكتاب.

وصفة الاجتماع مرعية مأخوذة في الإسلام، في جميع ما يمكن أن يؤدي بصفة الاجتماع من أنواع النواميس والأحكام، بحسب ما يليق بكل منها من نوع الاجتماع، وبحسب ما يمكن فيه من الأمر والحث الموصل إلى الغرض.

وهذا هوالسبيل في جميع ما سنّه رسول الله ﷺ، فيجب حفظ سنته على المسلمين بأيّ وسيلة أمكنت لهم، وبأي قيمة حصلت، وأهم ما يجب معرفته وهي اجتماعية الإسلام في معارفه الأساسية.

وأخذ الإسلام الغاية التي يتكون عليها المجتمع البشري ويتوحد بها، دين التوحيد والإسلام، لما وضع بنية المجتمع ـ المجتمع الديني ـ على أساس التوحيد وحكومة الدين الإسلامي، ألغى جزئية كل مستنكف عن التوحيد.

إن السيّد العلّامة يعتقد بأنّ النوع الإنساني أمة واحدة، ولازمه أن يكون على دين واحد وطريق واحد، ويجب أن يتخذ رباً واحداً.

وقال: بنى الإسلام مدار وحدة المجتمع على العقيدة، وألغى الانشعابات والتشتتات والتميزات القومية والجنسية والوطنية ونحوذلك؛ لأنّ الانشعابات بحسب الأوطان تسوق الأمة إلى الوحدة في مجتمعهم منفصلة عن المجتمعات

الوطنية الأخرى، فيصير واحداً منفصل الروح والجسم عن الآحاد الوطنية الأخرى، فتنعزل الإنسانية عن الوحدة والتجمع، وتبتلي من التفرق والتشتت.

وحاول أن يبيّن بأنّ الدين ليس إلّا سنّة الحياة، والسبيل التي يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد في حياته، فلا غاية للإنسان يتبعها إلّا السعادة، وللإنسان فطرة خاصة تهديه إلى سنّة خاصة في الحياة، وسبيل معينة ذات غاية مشخصة، وليس الإنسان العائش في هذه النشأة إلّا نوعاً واحداً، لايختلف ما ينفعه وما يضره بالنظر إلى هذه البنية المؤلفة من روح وبدن، فما للإنسان من جهة أنّه إنسان سعادة واحدة وشقاء واحد، فمن الضروري حينئذٍ أن يكون تجاه عمله سنة واحدة ثابتة، يهديه إليها هاد واحد ثابت.

والمراد بهذا إثبات أنّ الأساس للسنة الدينية هوالبنية الإنسانية، التي هي حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد، فللإنسانية سنة واحدة ثابتة بثبات أساسها الذي هوالإنسان، وهي التي تدير رحى الإنسانية، مع ما يلحق بها من السنن الجزئية المختلفة باختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة.

كما يبيّن لنا بأنّ الله لم يشرّع شريعتين أو أكثر في زمان واحد قط، بل هي الاختلافات بحسب مرور الزمان، وارتقاء الإنسان في مدارج الاستعداد والتهيؤ. للأمة الإسلامية شريعة واحدة لاشرائع متعددة، ونعلم أنّ الدين إيضاً واحد لكل الأمم، فلا مجال للإختلاف بين الأمة المحمديّة ﷺ.

والنكتة الدقيقة التي يذكرها العلّامة الطباطبائي هي: أنّ توحيد الأمة المجتمعة من الإنسان، مع إلغاء المعارف الدينية من التوحيد والأخلاق الفاضلة إن امكن، وهو الطريق المتّخذ اليوم، ولكن يتلوه من المفاسد ما فيه بوار هذا النوع وهلاك الحقيقة الإنسانية، ويوجب توقف القافلة البشرية عن السلوك الى مقصدها الأعلى.

ويؤكّد بأنّ صفتي الكفر والايمان مع ما فيهما من البعد والبينونة، ولا محالة

يسري ذلك إلى من اتصف بهما، فيفرق بينهما في المعارف والاخلاق وطريق السلوك إلى الله تعالى وسائر شؤون الحياة، لايلائم حالهما مع الولاية، فإنّ الولاية توجب الاتحاد والامتزاج، وهاتان الصفتان توجبان التفرق والبينونة.

والإسلام لما وضع بنية المجتمع ـ المجتمع الديني ـ على أساس التوحيد وحكومة الدين الإسلامي، ألغى جزئية كل مستنكف عن التوحيد.

الفصل الخامس

عوامل الوحدة ومقوماتها في تفسير الميزان

هذا الفصل يتحدث عن أهم المبادئ الأساسية للوحدة بين أبناء الأُمة الإسلامية، التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، وجعلها الأعلى إن كانت مؤمنة: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2]، وهي الأمة الوسط كما قال الله تعالي: ﴿وكَذٰلِكَ جَعَلنـٰكُم أُمَّةً وسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ ويَكونَ الرَّسولُ عَلَيكُم شَهيداً﴾[3]، فانظروا أيّها المسلمون هل أنتم اليوم كما وصفكم الله تعالى؟!

وقد وحّد الله هذه الأُمة بحكم العقيدة الواحدة، والقبلة الواحدة، والوجهة الواحدة، فهي أمة ذات هدف واحد، ولهذا حذّرها ربها أن تهجر صراط ربها إلى مناهج البشر، فتتفرق بها السبل يميناً وشمالاً، ويضيع منها الطريق، بل قد يضيع منها الهدف ذاته، يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[4].

---

١ ـ آل عمران: ١١٠.

٢ ـ آل عمران: ١٣٩.

٣ ـ البقرة: ١٤٣.

٤ ـ الأنعام: ١٥٣.

ولقد رأينا أعداء الأُمة قديماً وحديثاً، يكيدون لها كيداً، حتى يفرقوا شملها الملتئم، ويمزقوا وحدتها الجامعة، فتضعفها الفرقة، فيسهل لهم الغلبة والهيمنة عليها، والتحكم في مصائرها.

والواجب على الدعاة المخلصين والمفكرين الصادقين أن يتنبهوا، ويعملوا على شمل الأُمة وجمع صفوفها، ويشدوا أزر الأخوّة الإسلامية، والدعوة إلى الوحدة الإسلامية، فحرام أيّ حرام أن يتكتل أهل الباطل، ويتفرّق أهل الحق، وأن يوالي الذين كفروا بعضهم بعضاً، ويعادي الذي آمنوا بعضهم بعضاً، وهو ما حذر منه القرآن، حين قال: ﴿والَّذينَ كَفَروا بَعضُهُم أَولِياءُ بَعضٍ إلّا تَفعَلوهُ تَكُن فِتنَةٌ فِي الأَرضِ وفَسادٌ كَبير﴾ [١].

كيف نتلو كتاب الله وهو يحذّرنا عن التفرق ويقول: ﴿ولَا تَكونوا كالَّذينَ تَفَرَّقوا واختَلَفوا مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ البَيِّناتُ وأُولئكَ لَهُم عَذابٌ عَظيم﴾ [٢].

كيف نقول بأنّنا معتقدون بحقّانية دعوة رسول الله الأعظمﷺ ونعلن بأننا ثابتون في تبعيته ونقول بحجية كلماته، وهو أمرنا بالاتحاد والترابط والتراحم والتعاضد فيما بيننا، كما في الحديث: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك أصابعه**» [٣].

وقال: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الإنسان، إذا اشتكى عضو من أعضائه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**» [٤].

وقال: «**لا تباغضوا ولاتدابروا ولاتحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله،**

١ ـ الأنفال: ٧٣.

٢ ـ آل عمران: ١٠٥.

٣ ـ الصحيح البخاري ٨: ٧٠.

٤ ـ مسند أحمد ٢: ٤٠٨.

ولايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[١].

ويقول: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم»[٢].

وقال: «لا تختلفوا فإنّ مَن كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[٣].

وأيضاً: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[٤].

وهكذا جاءت التأكيدات على ألسنة أئمته ودعاته، ولم تقف النوبة عند الطرح النظري فقط، بل تعدته إلى الطرح العملي، كما يلحظ ذلك في حياة النبي ﷺ التي مثلّت أجلى مصاديق الوحدة بين المسلمين، بعقد الأخوّة بين المهاجرين والأنصار في أوان وروده ﷺ بالمدينة، وحاول حفظ الوحدة والإئتلاف بين المسلمين بمناهج مختلفة على حسب الشرائط، وأيضاً يلحظ في حياة الأئمة المعصومين عليهم السلام ما يشير إلى ذلك في ممارساتهم العملية.

ولما أن تحولت الدولة الإسلاميّة إلى جسد ممزق وعصفت بهم التفرقة والتمزيق، وشقت عصاهم الفرقة الطائفية والفرقة السياسية، وبعد أن كان اختلاف الألسن والألوان آية من آيات الله، أصبح عاملاً من عوامل التفريق، حتى ضعفت شوكة المسلمين واستضعفهم الكافرون، فانبرى لإنقاذ هذه الأمة من الضياع والتيه ﴿رِجالٌ صَدَقوا ما عـاهَدُوا اللّهَ عَلَيهِ...﴾، حفروا أسماءهم على هامة الدهر، وقادوا مسيرة الإصلاح، ودعوا الناس إلى الوحدة والاتحاد بحسب ما يمليه الإسلام وبيّنوا أسباب التقارب والوحدة.

---

١ ـ مستدرك الوسائل: ٨ح ١٠٣٢٩.

٢ ـ سنن أبي داود ١: ٦٢٥ح ٢٧٥، ومثله في الأمالي، الصدوق: ٤٣١ح ٥٦٩.

٣ ـ الصحيح للبخاري ٣: ٨٨.

٤ ـ مسند أحمد ١: ٤٠٢.

والسيّد العلّامة الطباطبائي ﵀ كان من الدعاة الذين فطنوا في المجال السياسي والاجتماعي، فقد كان دقيقاً في استخدام العبارات والألفاظ. ولذلك نرى أنّه يبيّن للمسلمين على بنيةٍ قرآنيةٍ أسباب ومقومات الوحدة.

والأسباب والمبادئ والمقومات للوحدة كثيرة، نذكر ما وجدنا في كلمات سيّدنا العلّامة الطباطبائي في تفسيره "الميزان":

١ ـ دين التوحيد هو الضامن الوحيد للوحدة

إنّ الإسلام جعل الغاية التي يتكون عليها المجتمع البشري ويتوحد بها، دين التوحيد، فهو السبب الوحيد الذي يمكنه أن يوحّد المعتقدين به في المجتمع البشري، لأنّ التوحيد يدعونا الى الواحد، ومن الضروري أنّ الذين يجاهدون في الوصول الى الواحد والمتديينين بواحد هم على طريق الوحدة يقول:

«الإسلام لمّا كان يرى أنّ الحياة الإنسانية أوسع مداراً من الحياة الدنيا المادية، بل في مدار حياته، الحياة الأخروية التي هي الحياة، ويرى أن هذه الحياة لاتنفع فيها إلّا المعارف الإلهية، التي تنحل بجملتها إلى التوحيد، ويرى أنّ هذه المعارف لاتنحفظ إلّا بمكارم الأخلاق، وطهارة النفس من كل رذيلة، ويرى أنّ هذه الأخلاق لاتتم ولاتكمل إلّا بحياة اجتماعية صالحة، معتمدة على عبادة الله سبحانه، والخضوع لما تقتضيه ربوبيته، ومعاملة الناس على أساس العدل الاجتماعي، أخذ ـ أعني الإسلام ـ الغاية التي يتكون عليها المجتمع البشري ويتوحد بها دين التوحيد، ثمّ وضع القانون الذي وضعه على أساس التوحيد، ولم يكتف فيه على تعديل الإرادات والأفعال فقط، بل تممه بالعباديات، وأضاف إليها المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة...

ومن أهم ما يشاهد في هذا الدين ارتباط جميع أجزائه ارتباطاً يؤدي إلى الوحدة التامة بينها، بمعنى أنّ روح التوحيد سارية في الأخلاق الكريمة التي يندب إليها هذا

الدين، وروح الأخلاق منتشرة في الأعمال التي يكلف بها أفراد المجتمع، فالجميع من أجزاء الدين الإسلامي ترجع بالتحليل إلى التوحيد، والتوحيد بالتركيب يصير هو الأخلاق والأعمال، فلو نزل لكان هي، ولو صعدت لكانت هو، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه...» [١].

٢ ـ الاعتقاد بالدّين المقبول عند الله سبب للوحدة

إنّ التأمل في تعاليم الأنبياء والمرسلين يرشدنا إلى أنّ الدين عند الله واحد وهو التسليم للحق، فإذا تنبّه المتدينون بالإديان الإلهية لهذهِ الحقيقة فباليقين ترفعهم ساحة الاتحاد؛ لأنّ لهم الغاية المشتركة والعقيدة الواحدة، وهي المحاولة لتحقق التسليم لله تبارك وتعالى الذي لا حقّ غيره.

ولقد حاول السيّد الطباطبائي ﷺ اثبات هذه الحقيقة في مواضع من تفسيره، منها ما كتبه في بيان قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الاِسلامُ﴾ [٢]:

«... أنّ الدين عند الله سبحانه واحد لا اختلاف فيه، لم يأمر عباده إلّا به، ولم يبين لهم فيما أنزله من الكتاب على أنبيائه إلّا إياه، ولم ينصب الآيات الدالة إلّا له وهو الإسلام، الذي هو التسليم للحق الذي هو حق الاعتقاد وحق العمل، وبعبارة أخرى هوالتسليم للبيان الصادر عن مقام الربوبية في المعارف والأحكام، وهو وإن اختلف كمّاً وكيفاً في شرائع أنبيائه ورسله، على ما يحكيه الله سبحانه في كتابه، غير أنّه ليس في الحقيقة أمراً واحداً وإنّما اختلاف الشرائع بالكمال والنقص دون التضاد والتنافي، والتفاضل بينها بالدرجات، ويجمع الجميع أنها تسليم وإطاعة لله سبحانه، فيما يريده من عباده على لسان رسله.

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ١٠٩.

٢ ـ آل عمران: ١٩.

فهذا هو الدين الذي أراده الله من عباده وبينه لهم، ولازمه أن يأخذ الإنسان بما تبين له من معارفه حق التبين، ويقف عند الشبهات وقوف التسليم، من غير تصرف فيها من عند نفسه. أما اختلاف أهل الكتاب من اليهود والنصارى في الدين، مع نزول الكتاب الإلهي عليهم، وبيانه تعالى لما هو عنده دين وهو الإسلام له، فلم يكن عن جهل منهم بحقيقة الأمر وكون الدين واحداً، بل كانوا عالمين بذلك، وإنّما حملهم على ذلك بغيهم وظلمهم من غير عذر، وذلك كفر منهم بآيات الله المبينة لهم حق الأمر وحقيقته، لا بالله فإنهم يعترفون به »[1].

ويؤكّد بأنّ الاختلاف من البغي وإلا سليمُ العقل يهدي الى اتّباع الحق والدين الواحد الفطري الإلهي، ويوضّح مراده في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن حَاجُّوكَ فَقُل أَسلَمتُ وجهِيَ لِلّهِ ومَنِ اتَّبَعَنِ﴾، ويقول:

«الضمير في حاجوك راجع إلى أهل الكتاب وهوظاهر، والمراد به محاجتهم في أمر الاختلاف بأن يقولوا: إن اختلافنا ليس لبغي منا بعد البيان، بل إنّما هو شيء ساقنا إليه عقولنا وأفهامنا واجتهادنا في تحصيل العلم بحقائق الدين، من غير أن ندع التسليم لجانب الحق سبحانه، وأنّ ما تراه وتدعو إليه يا محمد من هذا القبيل، أو يقولوا ما يشابه ذلك، والدليل على ذلك قوله: ﴿فَقُل أَسلَمتُ وجهِيَ لِلّهِ﴾، وقوله: ﴿وقُل لِلَّذينَ اوتوا الكِتابَ والأُمِّيِّينَ ءَأَسلَمتُم﴾، فإنّ الجملتين حجة سيقت لقطع خصامهم وحجاجهم، لا إعراض عن المحاجة معهم.

ومعناها مع حفظ ارتباطها بما قبلها: إنّ الدين عند الله الإسلام، لايختلف فيه كتب الله، ولايرتاب فيه سليم العقل، ويتفرّع عليه أن لا حجة عليك في إسلامك وأنت مسلم، فإن حاجوك في أمر الدين ﴿فَقُل أَسلَمتُ وجهِيَ لِلّهِ ومَنِ اتَّبَعَنِ﴾ فهذا هو الدين ولا حجة بعد الدين في أمر الدين، ثمّ سلهم: أ أسلموا؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وليقبلوا ما

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ١٢٠.

أنزل الله عليك وعلى مَن قبلك، ولا حجة عليهم ولا مخاصمة بعد ذلك بينكم، وإن تولوا فلا تخاصمهم، ولاتحاجهم فلاينبغي الخصام في أمر ضروري، وهو أنّ الدين هو التسليم لله سبحانه، وما عليك إلّا البلاغ »[١].

وعلى هذا يقول الأستاذ العلّامة في بيان قوله تعالى: ﴿...هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢]:

«... الآية أظهر انطباقاً على الأنصار، حيث أيد الله بهم نبيه ﷺ فآووه نصروه وألّف الله سبحانه بدينه بينهم أنفسهم، وقد نشبت فيهم الحروب المبيدة، وكانت قائمة على ساقها دهرا طويلا، وهي حرب (بغاث) بين الأوس والخزرج، حتى اصطلحوا بنزول الإسلام في دارهم، وأصبحوا بنعمته إخوانا»[٣].

٣ـ آل محمد عليهم السلام من أسباب الاتحاد

يتفق عامّة المسلمين على الحب والولاء لأهل البيت عليهم السلام وأن بغض أهل البيت عليهم السلام أمر مرفوض، بل هو كفر عند غالبية المسلمين، ومتابعة المعالم والدلائل والنماذج البارزة لولاء أهل البيت عليهم السلام في البلدان الإسلاميّة تكشف عن هذه الحقيقة، وأنّ الاختلاف في وجهات النظر إنّما حدثت في مقام القيادة السياسية والعلمية لأئمة أهل البيت عليهم السلام، وليس في فضائلهم وطريقتهم الحقة.

والدراسة والبحث في روايات الفريقين تكشف كشفا تامّا بأنّ المسلمين متفقين على محبة أهل بيت رسولهم ﷺ، ونقدّم اليكم نماذج منها:

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ١٢٢.

٢ ـ الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣.

٣ ـ تفسير الميزان ٩: ١١٨.

أ ـ عن شداد أبي عمار، قال: دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا عليّا، فلما قاموا قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ قلت: بلى. قال: أتيت فاطمة رضي الله تعالى عنها أسألها عن علي، قالت: توجه إلى رسول الله ﷺ فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين رضي الله تعالى عنهم، آخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل، فادنى علياً وفاطمة فأجلسهما بين يديه وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه، ثمّ لف عليهم ثوبه أو قال كساء، ثمّ تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أَهلَ البَيتِ ويُطَهِّرَكُم تَطهِيراً﴾ وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق»[١].

ب ـ وفي صحيح مسلم وسنن الدارمي وغيره، واللفظ لصحيح مسلم: عن زيد ابن أرقم... قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خما بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثمّ قال: **«أمّا بعد! ألا أيّها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه، ثمّ** قال: **وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»**[٢].

ج ـ وعن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: **«يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي»**[٣].

د ـ وعن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ

---

١ ـ مسند أحمد ٤: ١٠٧.

٢ ـ صحيح مسلم ٧: ١٢٢ ـ ١٢٣، سنن الدارمي ٢: ٤٣١ ـ ٤٣٢.

٣ ـ سنن الترمذي ٥: ٣٢٧ ح ٣٨٧٤.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أَهلَ البَيتِ ويُطَهِّرَكُم تَطهيراً﴾ في بيت أم سلمة، فدعا النبي ﷺ فاطمة وحسناً وحسيناً فجللهم بكساء وعلي خلف ظهره فجلله بكساء، ثمّ قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قالت أم سلمة وأنا معهم يا رسول الله؟ قال أنت على مكانك وأنت إلى خير» [1].

هـ ـ وعن أم سلمة: «أنّ النبي ﷺ جلل على الحسن والحسين وعلي وفاطمة، كساء ثمّ قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وحامتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا». فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: «إنّك على خير» [2].

قال الطباطبائي ﵀ في تفسير "آية التطهير": «... ورد في أسباب النزول أن الآية نزلت في النبي ﷺ وعلي وفاطمةالحسنين ﵉ خاصة، لايشاركهم فيها غيرهم.

وهي روايات جمة تزيد على سبعين حديثاً يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة، فقد روتها أهل السنة بطرق كثيرة عن أم سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وسعد ووائلة بن الأسقع وأبي الحمراء وابن عباس وثوبان مولى النبي وعبد الله بن جعفرعلي والحسن بن علي ﵉ في قريب من أربعين طريقاً.

و روتها الشيعة عن علي والسجاد والباقر والصادق والرضا ﵉ وأم سلمة و أبي ذر وأبي ليلى وأبي الأسود الدؤلي وعمرو بن ميمون الأودي وسعد بن أبي وقاص في بضع وثلاثين طريقاً» [3].

و ـ عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إنّي أوشك أن أدعى فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزّ وجل وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وإنّ اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ

---

١ ـ سنن الترمذي ٥: ٣٢٧ ح ٣٨٧٥.

٢ ـ المصدر السابق: ٣٦٠ ـ ٣٦١ ح ٣٩٦٣.

٣ ـ تفسير الميزان ١٦: ٣١١.

الحوض، فانظروني بم تخلفوني فيهما»[١].

ز ـ وأيضاً عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[٢].

ويؤكّد العلّامة بقوله كما أنّ النبي ﷺ يكون معلما لكتاب الله، كما يقول تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمين * عَلىٰ قَلبِكَ﴾ الآية، ويقول: ﴿وأَنزَلنا اِلَيكَ الذِّكرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ اِلَيهِم﴾ الآية...، إنّ عترة النبي وأهل بيته ايضاً قاموا مقامه، بنصّه ﷺ المتفق عليه بين الفريقين:

«وعترته وأهل بيته الذين أقامهم النبي ﷺ هذا المقام في الحديث المتفق عليه بين الفريقين: "إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض"[٣].

وصدقه الله تعالى في علمهم بالقرآن، حيث قال عزّ من قائل: ﴿إنَّما يُريدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أَهلَ البَيتِ ويُطَهِّرَكُم تَطهيرا﴾ وقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرءانٌ كَريم * فى كِتـٰبٍ مَكنون * لَا يَمَسُّهُ إِلَّاالمُطَهَّرون﴾ الآية»[٤]، والروايات كثيرة جدّاً.

إنّ حبّ أهل البيت ودورهم ومنزلتهم في الإسلام من متّفقات المذاهب الإسلامية، ويمكن أن يكون من أقوى مبادئ الوحدة بين المسلمين، إذا رجع المسلمون إلى معالمهم ومعتقداتهم حول أهل البيت.

ح ـ وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه،

---

١ ـ مسند أحمد ٣: ١٧.

٢ ـ المصدر السابق: ٥٩.

٣ ـ بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار: ٤٣٣ ح ٣، ينابيع المودّة: ٣٨.

٤ ـ تفسير الميزان ١: ١١.

وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي»[١].

ويؤكّد العلّامة الطباطبائي ايضاً بإتيان رواية في تفسير قوله تعالي: ﴿واعتَصِموا بِحَبلِ اللّهِ جَميعاً ولَا تَفرَّقوا﴾ على أنّ آل محمدﷺ هم من مصاديق حبل الله، الذي أمرنا الله تعالى بالتمسك به لتحقق الوحدة، والتحذير من الفرقة: «**وفي تفسير العياشي، عن الباقر ؈: آل محمد هم حبل الله الذي أمر بالاعتصام به، قال: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا﴾**»[٢].

فمن وُجهة نظره ؆ أنّ أهل البيت كالقرآن، والإسلام والرسولﷺ في سببيّتهم لترابط الأمة الإسلامية ووحدتها.

٤ ـ الرحمة الإلهية سبب الاتحاد وعدم التفرق

يبين لنا العلّامة خلال تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٣]:

«يريد به رفع الاختلاف من بينهم، وتوحيدهم على كلمة واحدة يتفقون فيه، ومن المعلوم أنّه ناظر إلى ما ذكره تعالى في الآيات السابقة على هذه الآية، من اختلافهم في أمر الدين، وانقسامهم إلى طائفة أنجاهم الله وهم قليل، وطائفة أخرى وهم الذين ظلموا.

فالمعنى أنّهم وإن اختلفوا في الدين، فإنهم لم يعجزوا الله بذلك، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة لايختلفون في الدين، فهو نظير قوله: ﴿وعَلَى اللّهِ قَصدُ السَّبيلِ ومِنها

---

١ ـ سنن الترمذي ٥: ٣٢٩ ح ٣٨٧٨.

٢ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٨.

٣ ـ هود: ١١٨ ـ ١١٩.

جائرٌ ولَو شاءَ لَهَدٰئكُم أجمَعين﴾[١]، وقوله: ﴿أفَلَم يَائَسِ الَّذينَ ءامَنوا أن لَو يَشاءُ اللّٰهُ لَهَدَى النّاسَ جَميعاً﴾[٢].

وعلى هذا فقوله: ﴿ولَا يَزالونَ مُختَلِفين﴾ إنّما يعني به الاختلاف في الدين فحسب فإنّ ذلك هو الذي يذكر لنا أن لو شاء لرفعه من بينهم، والكلام في تقدير: لو شاء الله لرفع الاختلاف من بينهم، لكنه لم يشأ ذلك فهم مختلفون دائماً.

على أنّ قوله: ﴿إلّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يصرّح أنّه رفعه عن طائفة رحمهم، والاختلاف في غير الدين لم يرفعه الله تعالى حتى عن الطائفة المرحومة، وإنّما رفع عنهم الاختلاف الديني، الذي يذمه وينسبه إلى البغي بعد العلم بالحق.

وقوله: ﴿إلّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ﴾ استثناء من قوله: ﴿ولَا يَزالونَ مُختَلِفين﴾ أي الناس، يخالف بعضهم بعضاً في الحق أبداً، إلّا الذين رحمهم الله فإنّهم لايختلفون في الحقّ ولايتفرقون عنه، والرحمة هي الهداية الإلهية كما يفيده قوله: ﴿فَهَدَى اللّٰهُ الَّذينَ ءامَنوا لِمَا اختَلَفوا فيهِ مِنَ الحَقِّ بِإذنِهِ﴾[٣]»[٤].

٥ ـ المودّة والرحمة الفطرية سبب الأنس والوحدة

يقول الطباطبائي بعد بيان معنى المودّة والرحمة[٥]، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٦]:

---

١ ـ النحل: ٩.

٢ ـ الرعد: ٣١.

٣ ـ البقرة: ٢١٣.

٤ ـ تفسير الميزان ١١: ٦١.

٥ ـ المصدر السابق ١٦: ١٦٥.

٦ ـ الروم: ٢١.

«ومن أجلّ موارد المودة والرحمة المجتمع المنزلي؛ فإنّ الزوجين يتلازمان بالمودة والمحبة وهما معا وخاصة الزوجة، يرحمان الصغار من الأولاد لما يـريان ضـعفهم وعجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيوية، فيقومان بواجب العمل في حفظهم وحراستهم وتغذيتهم وكسوتهم وإيوائهم وتربيتهم، ولولا هذه الرحمة لانقطع النسل ولم يعش النوع قط.

ونظير هذه المودة والرحمة مشهود في المجتمع الكبير المدني بين أفراد المجتمع، فالواحد منهم يأنس بغيره بالمودة، ويرحم المساكـين والعـجزة والضـعفاء الذيـن لايستطيعون القيام بواجبات الحياة»[1].

٦ـ إرسال الرسل سبب الوحدة والألفة

قال السيّد العلّامة في تفسير الآية ٢٥٣ من سورة البقرة: «إنّ الرسل التي أرسلوا إلى الناس عباد لله مقربون عند ربهم، مرتفع عن الناس أفقهم، وهم مفضل بعضهم على بعض، على ما لهم من الأصل الواحد والمقام المشترك. فهذا حال الرسل، وقد أتوا للناس بآيات بينات أظهروا بها الحق كل الإظهار، وبينوا طريق الهداية أتم البيان، وكان لازمه أن لاينساق الناس بعدهم إلّا إلى الوحدة والألفة والمحبة في دين الله، من غير اختلاف وقتال، لكن كان هناك سبب آخر أعقم هذا السبب، وهوالاختلاف عن بغي منهم وانشعابهم إلى مؤمن وكافر، ثمّ التفرّق بعد ذلك في سائر شؤون الحياة والسعادة، ولو شاء الله لأعقم هذا السبب أعني الاختلاف، فلم يوجب الاقتتال وما اقتتلوا، ولكن لم يشأ، وأجرى هذا السبب كسائر الأسباب والعلل، على سنّة الأسباب التي أرادها الله في

---

١ ـ قال السيّد الطباطبائي: «المودة كأنّها الحب الظاهر أثره في مقام العمل، فنسبة المودة إلى الحب كنسبة الخضوع، الظاهر أثره في مقام العمل إلى الخشوع الذي هونوع تأثر نفساني عن العظمة والكبرياء».
والرحمة نوع تأثر نفساني عن مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال، وحاجته إلى رفع نقيصته، يدعو الراحم إلى إنجائه من الحرمان ورفع نقصه. تفسير الميزان ١٦: ١٦٥.

عالم الصنع والإيجاد، والله يفعل ما يريد »[١].

وقال في موضع آخر من تفسير الكبير: «وقوله: ﴿وإنَّ الَّذينَ اورِثُوا الكِتابَ مِن بَعدِهِم لَفِي شَكٍّ مِنهُ مُريب﴾[٢]، **ضمير «من بعدهم» لأولئك الذين تفرّقوا من بعد علم بغيا بينهم وهم الأسلاف، والذين أورثوا الكتاب من بعدهم أخلافهم، فمفاد الآية أنّ البادئين بالاختلاف المؤسسين للتفرقة كانوا على علم من الحق، وإنّما أبدعوا ما أبدعوا بغياً بينهم، وأخلافهم الذين أورثوا الكتاب من بعدهم في شك مريب ـ موقع في الريب ـ منه »[٣].**

فلذلك يجب على النبي وأمته التحذّر عن المختلفين في الدين والشريعة وإتّباع أهوائهم. يقول السيّد الأستاذ في بيان قوله تعالى: ﴿فَلِذٰلِكَ فَادعُ واستَقِم كَما أُمِرتَ ولَا تَتَّبِع أَهواءَهُم﴾[٤]:

«(الآية) تفريع على ما ذكر من شرع دين واحد لجميع الأنبياء وأممهم، ثمّ انقسام أممهم إلى أسلاف، اختلفوا في الدين عن علم بغياً، وإلى أخلاف شاكين مرتابين فيما أورثوه من الكتاب، أي فلأجل أنّه شرع لكم جميع ما شرع لمن قبلكم (فادع)، ولأجل ما ذكر من تفرّق بعضهم بغياً وارتياب آخرين، فاستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم »[٥].

٧ ـ الولاية سبب الوحدة في المجتمع

إنّ السيّد الاستاذ يعتقد بأنّ الولاية مما لا غنى عنها في مجتمع من المجتمعات البشرية، سيما المجتمع الإسلامي الذي أسّس على اتّباع الحق وبسط العدل الإلهي،

---

١ ـ تفسير الميزان ٥: ٣٢٢.

٢ ـ الشورى: ١٤.

٣ ـ تفسير الميزان ١٨: ٣٢.

٤ ـ الشورى: ١٥.

٥ ـ تفسير الميزان ١٨: ٣٢.

وهي سبب الوحدة وتحقق حقيقة واحدة من آحاد متفرقة.

وقد أكّد الأستاذ على هذه الحقيقة في مجالات متعددة وتفسير الآيات المرتبطة، نأتي ببعضها: قال السيّد الطباطبائي في معنى الولاية في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ...﴾[1]:

«الأولياء جمع الولي من الولاية، وهي في الأصل ملك تدبير أمر الشيء، فولي الصغير أو المجنون أو المعتوه هوالذي يملك تدبير أمورهم وأمور أموالهم، فالمال لهم وتدبير أمره لوليهم، ثمّ استعمل وكثر استعماله في مورد الحب؛ لكونه يستلزم غالباً تصرف كل من المتحابين في أمور الآخر، لإفضائه إلى التقرّب والتأثّر عن إرادة المحبوب وسائر شؤونه الروحية، فلا يخلو الحب عن تصرّف المحبوب في أمور المحب في حياته.

فاتخاذ الكافرين أولياء هوالامتزاج الروحي بهم، بحيث يؤدّي إلى مطاوعتهم والتأثر منهم في الاخلاق وسائر شؤون الحياة وتصرفهم في ذلك، ويدل على ذلك تقييد هذا النهي بقوله من دون المؤمنين، فانّ فيه دلالة على ايثار حبهم على حب المؤمنين وإلقاء أزمة الحياة إليهم دون المؤمنين، وفيه الركون إليهم والاتصال بهم والانفصال عن المؤمنين...

وعلى هذا فأخذ هذه الاوصاف في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ للدلالة على سبب الحكم وعلته، وهو أن صفتي الكفر والايمان ـ مع ما فيهما من البعد والبينونة ـ ولا محالة يسري ذلك إلى من اتّصف بهما، فيفرق بينهما في المعارف والأخلاق وطريق السلوك إلى الله تعالى، وسائر شؤون الحياة لايلائم حالهما مع الولاية، فإنّ الولاية يوجب الاتحاد والامتزاج، وهاتان الصفتان توجبان التفرّق والبينونة، وإذا قويت الولاية كما إذا كان من دون المؤمنين، أوجب ذلك فساد خواص الايمان

١ ـ آل عمران: ٢٨.

وآثاره، ثمّ فساد أصله، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَمَن يَفعَل ذٰلِكَ فَلَيسَ مِنَ اللّهِ في شَيءٍ﴾...»[١].

ثمّ يأتي ما يفيد قوّة الولاية في إيجاد الوحدة، ويؤكّد بأنّ الولاية سبب التحزب، وهو جعل الموالين في حزب واحد، وقد نعلم أنّ التحزب سبب للوحدة الراسخة، ويعتقد العلّامة بأنّ من يتولّ الله ورسوله والمؤمنين يكون من حزب الله، الذي يكون غالباً على عدوّه، ومعلوم بأنّ ولاية المؤمنين والتعلّق بحزب واحد إلهي مانع عن الاختلاف، وعامل للوحدة التامّة، وبهذا الصدد يقول في تفسير:

«و (مِن) في قوله: (من الله) للابتداء، ويفيد في أمثال هذا المقام معنى التحزب، أي ليس من حزب الله في شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسولَهُ وَالَّذينَ ءامَنوا فَإِنَّ حِزبَ اللّهِ هُمُ الغالِبون﴾[٢] وكما فيما حكاه عن إبراهيم عليه السلام من قوله: ﴿فَمَن تَبِعَني فَإِنَّهُ مِنّي﴾[٣] أي من حزبي وكيف كان، فالمعنى والله أعلم، ليس من حزب الله مستقراً في شيء من الأحوال والآثار»[٤].

وتكملة بيانه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَلِبُونَ﴾[٥] حيث يقول:

«وقد اشتمل قوله تعالى: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسولُهُ وَالَّذينَ ءامَنوا...﴾ من السياق على ما يدل على وحدة ما في معنى الولاية المذكورة فيه، حيث تضمن العدّ في قوله: ﴿اللّهُ وَرَسولُهُ وَالَّذينَ ءامَنوا﴾ وأسند الجميع إلى قوله: ﴿وليكم﴾، وظاهره كون الولاية في الجميع بمعنى واحد.

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ١٥١.

٢ ـ المائدة: ٥٦.

٣ ـ إبراهيم: ٣٦.

٤ ـ تفسير الميزان ٣: ١٥١.

٥ ـ مائده: ٥٦.

ويؤيد ذلك أيضا قوله في الآية التالية: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَلِبُونَ﴾، حيث يشعر أو يدل على كون المتولين جميعاً حزباً لله؛ لكونهم تحت ولايته، فولاية الرسول والذين آمنوا إنّما هو من سنخ ولاية الله» [١].

ويكمل بيانه في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٢]، بناءً علي وحدة سياق الآيات وهو يفيد لما نحن بصدده، فيقول:

«وأمّا بالنظر إلى وقوعها بعد الآيات الناهية عن اتخاذ الكفار أولياء وارتباطها بما قبلها، فهذه الولاية لكونها تستدعي في تحققها تحقق الحب بين الانسان وبين من يتولى كما تقدم، كانت الآية ناظرة إلى دعوتهم إلى اتباع النبيﷺ إن كانوا صادقين في دعواهم ولاية الله، وأنهم من حزبه، فإنّ ولاية الله لايتم باتباع الكافرين في أهوائهم، ولا ولاية إلّا باتباع وابتغاء ما عندهم من مطامع الدنيا من عز ومال، بل تحتاج إلى اتباع نبيه في دينه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلنـٰكَ عَلىٰ شَريعَةٍ مِنَ الاَمرِ فَاتَّبِعها ولَا تَتَّبِع اَهواءَ الَّذينَ لَا يَعلَمون * اِنَّهُم لَن يُغنوا عَنكَ مِنَ اللّهِ شيئاً وإنَّ الظّـٰالِمينَ بَعضُهُم اَولِياءُ بَعضٍ واللّهُ ولِىُّ المتَّقين﴾ [٣].

انظر إلى الانتقال من معنى الاتباع إلى معنى الولاية في الآية الثانية، فمن الواجب على من يدعي ولاية الله بحبه أن يتبع الرسول، حتى ينتهى ذلك إلى ولاية الله له بحبه، وإنّما ذكر حب الله دون ولايته؛ لأنه الأساس الذى تبتنى عليه الولاية، وإنّما اقتصر على ذكر حب الله تعالى فحسب، لأن ولاية النبي والمؤمنين تؤول بالحقيقة إلى ولاية الله » [٤].

---

١ ـ تفسير الميزان ٦: ١٢.

٢ ـ آل عمران: ٣١.

٣ ـ الجاثية: ١٨ ـ ١٩.

٤ ـ تفسير الميزان ٣: ١٥٩.

فالولاية توجب المحبة والوحدة والإمتزاج، وعلى أساس هذا المبدء في معنى الولاية يقول في تفسير الآية ٥١ من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ردّاً على من قال: إنّ الولاية في الآية بمعنى ولاية النصرة:

«فإنّ عقد ولاية النصرة واشتراطها بين قومين لايوجب صيرورة أحدهما الآخر ولحوقه به، ولا أنّه يصح تعليل النهي عن هذا العقد، بأن القوم الفلاني بعضهم أولياء بعض، بخلاف عقد ولاية المودة التى توجب الامتزاج النفسي والروحى بين الطرفين، وتبيح لأحدهما التصرف الروحي والجسمي في شؤون الآخر الحيوية، وتقارب الجماعتين في الأخلاق والأعمال، الذي يذهب بالخصائص القومية» [1].

فالولاية في رأي السيد العلّامة سبب لصيرورة أحد الموالبين نفس الآخر ولحوقه به، وتقارب الجماعتين في الأخلاق والأعمال الذي يذهب بالخصائص القومية.

ونشاهد أثر هذا الرأي في كلمات السيّد العلّامة في تفسيره في موارد متعددة، كما قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ ءامَنوا والَّذينَ هاجَروا وجاهَدوا... بَعضُهُم أَولِياءُ بَعضٍ...﴾ [2]:

«وقد جعل الله بينهم (المهاجرين والأنصار) ولاية بقوله: (أولئك بعضهم أولياء بعض)، والولاية أعمّ من ولاية الميراث وولاية النصرة وولاية الأمن، فمن آمن منهم كافرا كان نافذا عند الجميع، فالبعض من الجميع ولي البعض من الجميع، كالمهاجر هو ولي كل مهاجر وأنصاري، والأنصاري ولي كل أنصاري ومهاجر، كل ذلك بدليل إطلاق الولاية في الآية».

وإذا زالت هذه الولاية، التي تجعل أحد الموالبين الآخر وتلحقه به، وتقارب

---

١ ـ تفسير الميزان ٦: ٦.

٢ ـ الأنفال: ٧٢.

جماعات المسلمين في الأخلاق والأعمال، وأُبدلت بولاية الكفار، فماذا سيتفق؟

يجيب السيّد الطاطبائي عن هذا السؤال، في تتمة كلامه في تفسير قوله تعالى: ﴿إلّا تَفعَلوهُ تَكُن فِتنَةٌ فِي الأَرضِ وفَسادٌ كَبِير﴾ [١] فيقول:

«إشارة إلى مصلحة جعل الولاية على النحو الذي جعلت، فإنّ الولاية مما لا غنى عنها في مجتمع من المجتمعات البشرية سيما المجتمع الإسلامي، الذي أسّس على اتباع الحق وبسط العدل الإلهي، كما أنّ تولّي الكفار وهم أعداء هذا المجتمع يوجب الاختلاط بينهم فيسري فيه عقائدهم وأخلاقهم، وتفسد سيرة الإسلام، المبنية على الحق بسيرهم المبنية على اتباع الهوى وعبادة الشيطان، وقد صدق جريان الحوادث في هذه الآونة ما أشارت إليه هذه الآية » [٢]

٨ـ التوبة والإصلاح والإخلاص أسباب للوحدة

إنّ اتّخاذ الكافرين أولياء يوجب الخروج من جماعة المؤمنين بمقتضي ﴿بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [٣]، فكيف يمكن العود والدخول في جماعة المؤمنين والكون معهم؟ هل السبيل الى العود مسدودة؟

يجيب الأستاذ العلّامة عن هذا السؤال في بيان قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [٤]، إذ يقول:

«استثناء من الوعيد الذي ذكر في المنافقين بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ الآية، ولازم ذلك خروجهم من جماعة المنافقين، ولحوقهم بصف المؤمنين،

---

١ ـ الأنفال: ٧٣.

٢ ـ تفسير الميزان ٩: ١٤١ ـ ١٤٢.

٣ ـ نساء: ١٣٨ ـ ١٣٩.

٤ ـ نساء: ١٤٦.

ولذلك ذيّل الاستثناء بذكر كونهم مع المؤمنين، وذكر ثواب المؤمنين جميعاً فقال تعالى: ﴿فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾.

وقد وصف الله هؤلاء الذين استثناهم من المنافقين بأوصاف عديدة ثقيلة، وليست تنبت أصول النفاق وعروقه إلّا بها، فذكر التوبة وهي الرجوع إلى الله تعالى، ولاينفع الرجوع والتوبة وحدهما حتى يصلحوا كل ما فسد منهم من نفس وعمل، ولاينفع الإصلاح إلّا أن يعتصموا بالله، أي يتبعوا كتابه وسنة نبيه ﷺ إذ لا سبيل إلى الله إلّا ما عيّنه، وما سوى ذلك فهو سبيل الشيطان.

ولاينفع الاعتصام المذكور إلّا إذا أخلصوا دينهم ـ وهو الذي فيه الاعتصام ـ لله، فإنّ الشرك ظلم لايعفى عنه ولايغفر، فإذا تابوا إلى الله، وأصلحوا كل فاسد من أمورهم، واعتصموا بالله، وأخلصوا دينهم لله، كانوا عند ذلك مؤمنين لايشوب إيمانهم شرك، فآمنوا النفاق واهتدوا، قال تعالى: ﴿الَّذينَ ءامَنوا ولَم يَلبِسوا ايمانَهُم بِظُلمٍ أُولئكَ لَهُمُ الأَمنُ وهُم مُهتَدون﴾[1].

ويظهر من سياق الآية أنّ المراد بالمؤمنين هم المؤمنون محضاً المخلصون للإيمان، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله، وهذه الصفات تتضمن تفاصيل جميع ما عدّه الله تعالى في كتابه من صفاتهم ونعوتهم، كقوله تعالى: ﴿قَد أَفلَحَ المُؤمِنون * الَّذينَ هُم في صَلاتِهِم خاشِعون * والَّذينَ هُم عَنِ اللَّغوِ مُعرِضون﴾[2] الى آخر الآيات، وقوله تعالى: ﴿وعِبادُ الرَّحمانِ الَّذينَ يَمشونَ عَلَى الأَرضِ هَوناً وإِذا خاطَبَهُمُ الجاهِلونَ قالوا سَلاماً * والَّذينَ يَبيتونَ لِرَبِّهِم سُجَّداً وقِياماً﴾[3] الآيات، وقوله ﴿فَلَا ورَبِّكَ لَا يُؤمِنونَ حَتَّىٰ يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَينَهُم ثُمَّ لَا

---

١ ـ الأنعام: ٨٢.

٢ ـ المؤمنون: ١ ـ ٣.

٣ ـ الفرقان: ٦٣ ـ ٦٤.

يَجِدوا فى أَنفُسِهِم حَرَجاً مِمّا قَضَيتَ ويُسَلِّموا تَسليماً﴾ [١].

فهذا هو مراد القرآن بالمؤمنين، إذا أطلق اللفظ إطلاقا من غير قرينة تدلّ على خلافه. وقد قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: فأولئك من المؤمنين، لأنهم بتحقق هذه الأوصاف فيهم أول تحققها يلحقون بهم، ولن يكونوا منهم حتى تستمر فيهم الأوصاف على استقرارها، فافهم ذلك» [٢].

٩ ـ القبلة من عوامل وحدة المجتمع الإسلامي العالمي

يعتقد السيد الأستاذ أنّ للقبلة الأثر الأجلي بالنظر إلى الاجتماع، وأنها جهت الناس على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم على التوجه إلى نقطة واحدة، يمثل بذلك وحدتهم الفكرية وارتباط جامعتهم، والتئام قلوبهم، وهذا ألطف روح يمكن أن تنفذ في جميع شؤون الأفراد في حياتها المادية والمعنوية، تعطي من الاجتماع أرقاه، ومن الوحدة أوفاها وأقواها، خص الله تعالى بها عباده المسلمين، وحفظ به وحدة دينهم، وشوكة جمعهم، حتى بعد أن تحزبوا أحزاباً، وافترقوا مذاهب.

ولإثبات هذا الرأي يقول في بحث الآيات ١٤٢ إلى ١٥١ من سورة البقرة التي بدأت بآية: ﴿سَيَقولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ ما ولّٰهُم عَن قِبلَتِهِمُ الَّتى كانوا عَلَيها قُل لِلَّهِ المَشرِقُ والمَغرِبُ يَهدى مَن يَشاءُ إِلىٰ صِراطٍ مُستَقيم﴾:

«ومن المعلوم أنّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة من أعظم الحوادث الدينية، واهم التشريعات التي قوبل به الناس بعد هجرة النبي إلى المدينة، وأخذ الإسلام في تحقيق أصوله ونشر معارفه وبث حقائقه... على أنّ ذلك تقدّم باهر في دين المسلمين؛ لجمعه وجوههم في عباداتهم ومناسكهم الدينية إلى نقطة واحدة، يخلصهم

---

١ ـ النساء: ٦٥.

٢ ـ تفسير الميزان ٥: ١١٨.

من تفرق الوجوه في الظاهر وشتات الكلمة في الباطن، واستقبال الكعبة أشد تأثيراً وأقوى من امثال الطهارة والدعاء وغيرهما في نفوس المسلمين...»[١].

ثمّ يأتي بتكميل بحثه خلال بحث اجتماعي ويقول:

«المتأمل في شؤون الاجتماع الإنساني، والناظر في الخواص والآثار التي يتعقبها هذا الأمر المسمى بالاجتماع، من جهة أنّه اجتماع، لايشك في أن هذا الاجتماع إنّما كونته ثم شعبته وبسطته إلى شعبه وأطرافه الطبيعة الإنسانية، لما استشعرت بإلهام من الله سبحانه بجهات حاجتها في البقاء، والاستكمال إلى أفعال اجتماعية، فتلتجئ إلى الاجتماع، وتلزمها لتوفق إلى أفعالها وحركاتها وسكناتها في مهد تربية الاجتماع وبمعونته...

ولا شك أنّ التوجه إلى المعبود، واستقباله من العبد في عبوديته روح عبادته، التي لولاها لم يكن لها حياة ولا كينونة، وإلى تمثيله تحتاج العبادة في كمالها وثباتها واستقرار تحققها. وقدكان الوثنيون وعبدة الكواكب... يستقبلون معبوداتهم و آلهتهم...

لكن دين الأنبياء ـ ونخصّ بالذكر من بينها دين الإسلام الذي يصدّقها جميعاً ـ وضع الكعبة قبلة، وأمر باستقبالها في الصلاة... فاحتفظ على قلب الإنسان بالتوجه إلى بيت الله، وأن لاينسى ربه.. فهذا بالنظر إلى الفرد.

وأمّا بالنظر إلى الاجتماع، فالأمر أعجب والأثر أجلى وأوقع، فقد جمع الناس على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم على التوجه إلى نقطة واحدة، يمثل بذلك وحدتهم الفكرية وارتباط جامعتهم، والتئام قلوبهم، وهذا ألطف روح يمكن أن تنفذ في جميع شؤون الأفراد في حيويتها المادية والمعنوية، تعطي من الاجتماع أرقاه، ومن الوحدة أوفاها وأقواها، خصّ الله تعالى بها عباده المسلمين، وحفظ به وحدة دينهم، وشوكة جمعهم،

---

١ ـ تفسير الميزان ١: ٣١٧.

حتى بعد أن تحزبوا أحزاباً، وافترقوا مذاهب وطرائق قدداً، لايجتمع منهم اثنان على رأي، نشكر الله تعالى على آلائه» [١].

١٠ ـ القتال المأمور به في القرآن سبب الاتحاد لا التفرق

التنازع في البقاء والانتخاب الطبيعي توجبان انحلال الكثرة وعودتها إلى الواحدة، ولكن بإفناء الآخر وضم مزاياه إلى نفسه، وهو الدفع الذي يدعو إلى إبطال الاجتماع والتعاون والاشتراك في الحياة، وهناك دفع يدعو إلى الاجتماع والاتحاد المستقر على الكثرة والجماعة، وهو القتال الذي أمر به الإسلام، وهو سبب لعمارة الأرض وعدم فسادها.

يقول الطباطبائي في هذا المجال في بيان قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ...﴾ [٢] مدافعاً عن حكم جواز القتال في القرآن:

«... إنّها في مقام الإشارة إلى حقيقة يتكي عليه الاجتماع الانساني، الذي به عمارة الارض، وباختلاله يختل العمران وتفسد الأرض، وهي غريزة الاستخدام الذي جُبل عليه الانسان، وتأديتها إلى التصالح في المنافع، أعني التمدن والاجتماع التعاوني، وهذا المعنى وإن كان بعض أعراقه وأصوله التنازع في البقاء والانتخاب الطبيعي، لكنه مع ذلك هوالسبب القريب الذي يقوم عليه عمارة الأرض ومصونيتها عن الفساد، فينبغي أن تحمل الآية التي تريد إعطاء السبب في عدم طروق الفساد على الأرض عليه، لا على ما ذكر من القاعدتين.

وبعبارة أخرى واضحة: القاعدتان وهما التنازع في البقاء والانتخاب الطبيعي، توجبان انحلال الكثرة وعودتها إلى الواحدة، فإنّ كلا من المتنازعين يريد بالنزاع إفناء

---

١ ـ تفسير الميزان ١: ٣٣٧.

٢ ـ البقرة: ٢٥١.

الآخر، وضم ما له من الوجود ومزاياه إلى نفسه، والطبيعة بالانتخاب تريد أنّ يكون الواحد الذي هو الباقي منهما أقواهما وأمثلهما، فنتيجة جريان القاعدتين فساد الكثرة وبطلانها وتبدلها إلى واحد أمثل، وهذا أمر ينافي الاجتماع والتعاون والاشتراك في الحياة، الذي يطلبه الانسان بفطرته، ويهتدي إليه بغريزته، وبه عمارة الأرض بهذا النوع، لا إفناء قوم منه قوماً، وأكل بعضهم بعضاً، والدفع الذي تعمر به الأرض ويصان عن الفساد، هو الدفع الذي يدعو إلى الاجتماع والاتحاد المستقر على الكثرة والجماعة، دون الدفع الذي يدعو إلى إبطال الاجتماع وإيجاد الوحدة المفنية للكثرة، فالقتال سبب لعمارة الأرض وعدم فسادها، من حيث أنّه يحيي به حقوق اجتماعية حيوية لقوم مستهلكين مستذلين، لا من حيث يتشتت به الجمع ويهلك به العين ويمحى به الاثر، فافهم»[1].

نقول توضيحاً لما قاله الأستاذ: قد ذكرنا أنّ التوحيد والدين المبتني عليه، هو الحافظ الوحيد لوحدة المجتمع الإنساني، والحكمة في مشروعية الجهاد بأنواعه تحقق العبودية لله وحده، مع ما يتبع ذلك من دفع العدوان والشرّ، وحفظ الأنفس والأموال، ورعاية الحقوق، وصيانة العدل، وتعميم الخير، ونشر الفضيلة والوقاية من الفتنة في الدين.

فليست الحرب من الأهداف الغائية للإسلام، بل كان القرآن يأمر المسلمين ابتداءً بالكفّ عن القتال والصبر على كلّ أذى في سبيل الله سبحانه وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿قُل يـاأَيُّهَا الكـافِرون * لَا أَعبُدُ ما تَعبُدون * ولَا أَنتُم عـابِدونَ ما أَعبُد﴾ إلى قوله: ﴿لَكُم دينُكُم ولِيَ دين﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿واصبِر عَلىٰ ما يَقُولُونَ﴾[3] و...

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ٣٠٥.

٢ ـ الكافرون: ١ ـ ٦.

٣ ـ المزمل: ١٠.

والقرآن يذكر أنّ الإسلام دين التوحيد مبني على أساس الفطرة، وهو القيّم على إصلاح الإنسانية في حياتها، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِم وَجهَكَ لِلدّينِ حَنيفاً فِطرَتَ اللّهِ الَّتى فَطَرَ النّاسَ عَلَيها لَا تَبديلَ لِخَلقِ اللّهِ ذٰلِكَ الدّينُ القَيّمُ ولٰكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لَايَعلَمون﴾، فإقامته والحفاظ عليه أهمّ حقوق الإنسانية المشروعة، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدّينِ ما وصّىٰ بِهِ نوحاً والَّذى أَوحَينا إِلَيكَ وما وصَّينا بِهِ إِبرٰهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ أَن أَقيموا الدّينَ ولَا تَتَفَرَّقوا فيهِ﴾ [1].

ثمّ يذكر أنّ للدفاع عن هذا الحقّ الفطري المشروع حقّ آخر فطري، قال تعالى: ﴿ولَولَا دَفعُ اللّهِ النّاسَ بَعضَهُم بِبَعضٍ لَهُدِّمَت صَوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوٰتٌ ومَساجِدُ يُذكَرُ فِيهَا اسمُ اللّهِ كَثيراً ولَيَنصُرَنَّ اللّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزيز﴾ [2]، فبيّن أنّ قيام دين التوحيد على عَمَده وإحياء ذكره منوط بالدفاع، ومع ذلك: ﴿ولَولَا دَفعُ اللّهِ النّاسَ بَعضَهُم بِبَعضٍ﴾ [3].

فالهدف الأساسي هو: ﴿لِيُحِقَّ الحَقَّ ويُبطِلَ الباطِلَ ولَو كَرِهَ المُجرِمون﴾ [4]، ثمّ قال تعالى بعد عدّة آيات: ﴿يـٰأَيُّهَا الَّذينَ ءامَنوا استَجيبوا لِلّهِ ولِلرَّسولِ إِذا دَعاكُم لِما يُحييكُم﴾ [5]. فسمّى الجهاد والقتال الذي يدعى له المؤمنون محيياً لهم، ومعناه: أنّ القتال ـ سواء كان بعنوان الدفاع عن المسلمين أو عن بيضة الإسلام أو كان قتالاً ابتدائياً ـ دفاع عن حقّ الإنسانية في حياتها، ففي الشرك بالله سبحانه هلاك الإنسانية وموت الفطرة، وفي القتال ـ وهو دفاع عن حقّها ـ إعادة لحياتها وإحيائها

---

١ ـ الشورى: ١٣.

٢ ـ الحجّ: ٤٠.

٣ ـ البقرة: ٢٥١.

٤ ـ الأنفال: ٨.

٥ ـ الأنفال: ٢٤.

بعد الموت المعنوي لها.

ومن هناك يدرك اللبيب أنّه ينبغي أن يكون للإسلام حكم دفاعي في تطهير الأرض من لوث مطلق الشرك، والعمل على إخلاص الإيمان لله سبحانه وتعالى فإنّ هذا القتال الذي تذكره الآيات المذكورة إنّما هو لإماتة الشرك الظاهر من الوثنية وغيرها، ولإعلاء كلمة الحقّ، وهدم كلّ باطل، وإقامة حكومة الصالحين على الأرض. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذى أَرسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدىٰ ودينِ الحَقِّ لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ولَو كَرِهَ المُشرِكون﴾ [١]، وأظهر منه قوله تعالى: ﴿ولَقَد كَتَبنا فِي الزَّبورِ مِن بَعدِ الذِّكرِ أَنَّ الأَرضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحون﴾ [٢].

وأصرح منه قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذينَ ءامَنوا مِنكُم وعَمِلوا الصّالِحٰتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم فِي الأَرضِ كَما استَخلَفَ الَّذينَ مِن قَبلِهِم ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دينَهُمُ الَّذِى ارتَضىٰ لَهُم ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعدِ خَوفِهِم أَمناً يَعبُدونَنى لَا يُشرِكونَ بِي شيئاً﴾ [٣]، فقوله تعالى: ﴿يعبدونني﴾ يعني به: عبادة الإخلاص بحقيقة الإيمان، بقرينة قوله تعالى: ﴿لَا يُشرِكونَ بِي شَيئاً﴾، مع أنّه تعالى يعدّ بعض الإيمان شركاً، قال تعالى: ﴿وما يُؤمِنُ أَكثَرُهُم بِاللّهِ اِلّا وهُم مُشرِكون﴾ [٤]، فهذا ما وعده تعالى من تصفية الأرض وتخليتها للمؤمنين، يوم لايعبد فيه غير الله حقّاً.

ونؤكّد مرّة أخرى: أنّ القرآن الكريم يبيّن أنّ الإسلام دين مبني على قضاء الفطرة الإنسانية، التي لاينبغي أن يرتاب فيها، أنّ كمال الإنسان في حياته هو ما قضت به و حكمت ودعت إليه، وهي تقضي بأنّ التوحيد هو الأساس الذي يجب بناء القوانين

---

١ ـ الصفّ: ٩.

٢ ـ الأنبياء: ١٠٥.

٣ ـ النور: ٥٥.

٤ ـ يوسف: ١٠٦.

الفردية والاجتماعية عليه، وأنّ الدفاع عن هذا الأصل بنشره بين الناس حفظه من الهلاك والفساد حق مشروع للإنسانية، يجب استيفائه بأيّ وسيلة ممكنة.

وقد روعي في ذلك طريق الاعتدال، فبدأ بالدعوة المجرّدة والصبر على الأذى في جنب الله، ثمّ الدفاع عن بيضة الإسلام ونفوس المسلمين وأعراضهم وأموالهم، ثمّ القتال الابتدائي الذي هو دفاع عن حقّ الإنسانية وكلمة التوحيد. ولم يبدأ بشيء من القتال إلّا بعد إتمام الحجّة بالدعوة الحسنة، كما جرت عليه السنّة النبويّة، قال تعالى: ﴿أُدعُ إلىٰ سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكمَةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وجادِلهُم بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ﴾[1]، والآية مطلقة، وقال تعالى: ﴿لِيَهلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويَحيىٰ مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾[2].

وأمّا استلزامه الإكراه عند الغلبة فلا ضير فيه، بعد توقّف إحياء الإنسانية على تحميل الحقّ المشروع على عدّة من الأفراد بعد البيان، وإقامة الحجّة البالغة عليهم. وهذه طريقة دائرة بين الملل والدول، فإنّ المتمرِّد المتخلّف عن القوانين المدنية يدعى إلى تبعيتها، ثمّ يحمل عليها بأيّ وسيلة أمكنت ولو انجرَّ إلى القتال، حتّى يطيع وينقاد طوعاً أو كرهاً. على أنّ الكره إنّما يعيش ويدوم في طبقة واحدة من النسل، ثمّ إنّ التعليم والتربية الدينيان يصلحان الطبقات الآتية، بإنشائها على الدين الفطري وكلمة التوحيد طوعاً.

فأهداف الجهاد تكوين المجتمع المسلم المثالي، بردّ اعتداء من اعتدى على المسلمين وإزالة الفتنة عن الناس، حتّى يستمعوا إلى دلائل توحيد الله من غير عائق، وحفظ الدولة الإسلامية من شرّ الكفّار.

ثمّ إنّ هناك نوعا آخر من القتال المشروع، وهو ايضاً لعود الوحدة والأخوة المخدوشة ببغي بعض المؤمنين الباغين. وقد أمر الله به ليعود المؤمن الباغي على

---

١ ـ النحل: ١٢٥.

٢ ـ الأنفال: ٤٢.

سائر إخوانه الى مراعاة أصول الإخوة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1]، وقد علّل هذا القتال بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2].

وقلنا في مبحث ضرورة الوحدة: إنّ نظام الأخوّة من أحكم نظامات المتحدة والأخوّة في الإسلام ليست كلمة مرسلة لا مدلول لها، أو شعاراً أجوف لا معنى من ورائه، بل هي حقيقة راسخة في الحياة الإسلامية، وخليقة قائمة بين المسلمين، لها آثارها في واقعهم. فيجب عليهم مراعات لوازمها حتى لايقع خلاف ونزاع بين المؤمنين.

١١ ـ الإيمان بالحق يوجب الوحدة بين المسلمين وأهل الكتاب

قال السيّد العلّامة في معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3]:

«الاتيان بلفظ المثل مع كون أصل المعنى، فإن آمنوا بما آمنتم به، لقطع عرق الخصام والجدال... لكن لو قيل لهم: إنّا آمنّا بماشتمل إلّا على الحقّ فآمنوا على الحق مثله، لم يجدوا طريقاً للمراء والمكابرة... وقوله تعالى: ﴿فِي شِقَاقٍ﴾، الشقاق النفاق والمنازعة والمشاجرة والافتراق»[4]. فالإيمان بالحق سبب الوحدة بين المسلمين وأهل الكتاب.

---

١ ـ الحجرات: ٩.

٢ ـ الحجرات: ١٠.

٣ ـ البقره: ١٣٧.

٤ ـ تفسير الميزان ١: ٣١٢.

١٢ ـ تربية الأمة بالمعارف الإلهية سبب تحقق الأخوّة

قد فصّل الأستاذ العلّامة عند تفسير قوله تعالى: ﴿... هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١] كلاماً لايحتاج الى مقدمة، في تأثير المعارف الإلهية في إيجاد الألفة والأخوة بين آحاد البشر.

يقول قدست نفسه الزكيّة بعد ما نقله عن الراغب في بيان معنى "الإلف" بأنه "اجتماع مع التئام":

«وقد امتن الله بتأليفه بين قلوب المسلمين في مواضع من كلامه، وبيّن أهمية موقعه بمثل قوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وذلك أنّ الإنسان مفطور على حب النعم الحيوية، التي تتم بها حياته لا بغية له دونها، ولايريد في الحقيقة شيئاً ولايقصده إلّا لينتفع به في نفسه، وما ربما يلوح أنّه يريد نفعاً عائداً إلى غيره، فالتأمل الدقيق يكشف عن اشتماله على نفع عائد إليه نفسه، وإذ كان يحب الوجدان فهو يبغض الفقدان.

وبهذين الوصفين الغريزيين ـ أعني الحب والبغض ـ يتم له أمر الحياة، لو أنّه أحب كل شيء، ومنها الأضداد والمتناقضات لبطلت الحياة، ولو أنّه أبغض كل شيء حتى المتنافيات لبطلت الحياة، وقد فطره الله سبحانه على الحياة الاجتماعية؛ لقصور ما عنده من القوى والأدوات عن القيام بجميع ما يحتاج إليه من ضروريات حياته، ومن الضروري أنّ الاجتماع تمّ إلّا باختصاص كل فرد بما يحرم عنه آخرون، من مال أو جاه أو زينة أو جمال، أو كل ما يتنافس فيه الطباع الإنساني أو يتعلق به الهوى النفساني،

---

١ ـ الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣.

على اختلاف فيه بالزيادة والنقيصة.

وهذا أول ما يودع أنواع العداوة والبغضاء في القلوب والشح في النفوس، ثمّ ما ينبسط بينهم من وجوه الحرمان بالظلم والعدوان، وبغي البعض على البعض، في دم أو عرض أو مال أو غير ذلك، مما يتنعمون به يتنافسون فيه ويعملون لأجله، تثير في داخل نفوسهم كل بغضاء شنآن.

وهذا كله أوصاف وغرائز باطنية في الجماعة، لاتلبث دون أن تظهر في أعمالهم وتتلاقى في أفعالهم، ويماس بعضها بعضا بينهم في مسير حياتهم، وفيه البلوى التي تتعقب الفتن والمصائب الاجتماعية، التي تبيد النفوس وتهلك الحرث والنسل، وقد شهدت بذلك الحوادث الجارية على توالي القرون والأجيال.

ومهما ظنت الأمم المجتمعة أن بغيتها في اجتماعها، هي التمتع من العيشة المادية المحدودة بالحياة الدنيوية، فلا سبيل إلى قلع مادة هذا الفساد من أصلها وقطع منابته، فإنّ الدار دار التزاحم، والمجتمع قائم على قاعدة الاختصاص، والنفوس مختلفة في الاستعداد، والحوادث الواقعة والعوامل المؤثرة والأحوال الخارجة دخيلة في معايشهم حياتهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ [١]، وقال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [٢]، وقال: ﴿... وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...﴾ [٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وغاية ما يمكن الإنسان في بسط الألفة وإرضاء القلوب المشحونة بالعداوة والبغضاء، أن يقنعهم أو يسكتهم ببذل ما يحبون من مال أو جاه أو سائر النعم الدنيوية

١ـ المعارج: ١٩ ـ ٢١.

٢ ـ يوسف: ٥٣.

٣ـ هود: ١١٨ ـ ١١٩.

المحبوبة عندهم، غير أنّه إنّما ينفع في موارد جزئية خاصة، وأما العداوة والبغضاء العامتان، فلا سبيل إلى إزالتهما عن القلوب ببذل النعمة، فإنه لايبطل غريزة الاستزادة والشح الملتهب في كل نفس، بما يشاهد من المزايا الحيوية عند غيره.

على أنّ من النعم ما لايقبل إلّا الاختصاص والانفراد، كالملك والرئاسة العالية وأمور أخرى تجري مجراهما، حتى أنّ الأمم الراقية ذوي المدنية و الحضارة لم يتمكنوا من معالجة هذا الداء إلّا بما يزول به بعض شدته، يستريح جثمان المجتمع من بعض عذابه، وأما البغضاءات المتعلقة بالأمور التي تختص به بعض مجتمعهم كالرئاسة والملك، فهي على حالها تتقد بشررها القلوب، زال يأكل بعضها بعضاً.

على أنّ ذلك ينحصر فيما بينهم، وأما المجتمعات الخارجة من مجتمعهم فلايعبأ بحالهم، ولايعتنى من منافعهم الحيوية إلّا بما يوافق منافع أولئك، وإن أعيتهم طوارق البلاء وعفاهم الدهر بالعناء.

وقد منّ الله على الأمة الإسلامية إذ أزال الشح عن نفوسهم، وألف بين قلوبهم بمعرفة إلهية، علّمه إياهم وبثه فيما بينهم ببيان: أنّ الحياة الإنسانية حياة خالدة غير محصورة في هذه الأيام القلائل، التي ستفنى يبقى الإنسان ولا خبر عنها، وإنّ سعادة هذه الحياة الدائمة غير التمتع بلذائذ المادة والرعي في كلإ الخسة، بل هي حياة واقعية وعيشة حقيقية، يحيى ويعيش بها الإنسان في كرامة عبودية الله سبحانه، لايتنعم بنعم القرب والزلفى، ثمّ يتمتع بما تيسر له من متاع الحياة الدنيا، مما ساقه إليه الحظ أو الاكتساب، عارفاً بحقوق النعمة، ثمّ ينتقل إلى جوار الله، ويدخل دار رضوانه، ويخالط هناك الصالحين من عباده، ويحيى حق الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ

---

١ ـ الرعد: ٢٦.

الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [١] قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [٢].

فعلى المسلم أن يؤمن بربه ويتربى بتربيته، ويعزم عزمه ويجمع بغيته على ما عند ربه، فإنما هو عبد مدبر لايملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا، ومَن كان هذا وصفه لم يكن له شغل إلّا بربه، الذي بيده الخير والشر والنفع والضر والغنى والفقر والموت والحياة، وكان عليه أن يسير مسير الحياة بالعلم النافع والعمل الصالح، فما سعد به من مزايا الحياة الدنيا فموهبة من عند ربه، وما حرم منه احتسب عند ربه أجره،ما عند الله خير وأبقى.

وليس هذا من إلغاء الأسباب في شيء، ولا إبطالاً للفطرة الإنسانية الداعية إلى العمل والاكتساب، النادبة إلى التوسل بالفكر والإرادة، المحرضة إلى الاجتهاد في تنظيم العوامل والعلل، الموصلة إلى المقاصد الإنسانية والأغراض الصحيحة الحيوية، فقد فصلنا القول في توضيح ذلك في موارد متفرقة من هذا الكتاب.

وإذا تسنن المسلمون بهذه السنّة الإلهية، وحوّلوا هوى قلوبهم عن ذلك التمتع المادي، الذي ليس إلّا بغية حيوانية وغرضا مادياً، إلى هذا التمتع المعنوي الذي لاتزاحم فيه ولا حرمان عنده، ارتفعت عن قلوبهم العداوة و البغضاء، وخلصت نفوسهم من الشح والرين، وأصبحوا بنعمة الله إخواناً، و أفلحوا حق الفلاح، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ [٣]

---

١ ـ العنكبوت: ٦٤.

٢ ـ النجم: ٢٩ ـ ٣٠.

٣ ـ آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣.

وقال: ﴿... وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١]». [٢]

وعلى هذا قال العلّامة الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٣]:

«استئناف مؤكد لما تقدم من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين، وقصر النسبة بين المؤمنين في نسبة الإخوة، مقدمة ممهدة لتعليل ما في قوله: ﴿أَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ من حكم الصلح، فيفيد أنّ الطائفتين المتقاتلتين لوجود الإخوة بينهما، يجب أن يستقر بينهما الصلح، والمصلحون ـ لكونهم إخوة للمتقاتلتين ـ يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما.

وقوله: ﴿أَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ولم يقل: فأصلحوا بين الأخوين، من أوجز الكلام وألطفه، حيث يفيد أنّ المتقاتلتين بينهما أخوة، فمن الواجب أن يستقر بينهما الصلح، وسائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين، فيجب عليهم أن يسعوا في الإصلاح بينهما» [٤].

١٣ ـ التسليم لأوامر الله طريق الحفاظ على الوحدة

يعتقد العلّامة الطباطبائي بأنّ طريق الحفاظ على الوحدة الدينية في المجتمع الإنساني، هو الدخول في السلم، وهو التسليم لأوامر الله تعالى وإتباع ما أراده الله من العمل. هذا هو رأي العلّامة الطباطبائي على ما نفهم من مقالته في تفسير قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَتِ الشَّيْطَنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [٥]، حيث يعتقد بأنّ هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿واعتَصِموا بِحَبلِ اللّهِ

---

١ ـ الحشر: ٩.

٢ ـ تفسير الميزان ٩: ١١٨ ـ ١٢٢.

٣ ـ الحجرات: ١٠.

٤ ـ تفسير الميزان ١٨: ٣١٤.

٥ ـ البقرة: ٢٠٨.

جَميعاً ولَا تَفَرَّقوا﴾[1] لمكان "كافّة".

يقول السيّد العلّامة في ملخّص ما دلّت عليه الآيات ٢٠٧ الى ٢١٤ من سورة البقرة:

«هذه الآيات وهي قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا إِنَّ نَصرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ الآية، سبع آيات كاملة تبين طريق الحفاظ على الوحدة الدينية في الجامعة الإنسانية، وهوالدخول في السلم، والقصر على ما ذكره الله من القول، وما أراه من طريق العمل، وأنّه لم ينفصم وحدة الدين، ولا ارتحلت سعادة الدارين، ولا حلّت الهلكة دار قوم إلّا بالخروج عن السلم، والتصرف في آيات الله تعالى بتغييرها ووضعها في غير موضعها، شوهد ذلك في بني إسرائيل وغيرهم من الأمم الغابرة، وسيجري نظيرها في هذه الأمة، لكن الله يعدهم بالنصر ألا إن نصر الله قريب».

ثمّ قال: « "السلم" و"الإسلام" و"التسليم" واحدة، و"كافة" **كلمة تأكيد بمعنى جميعا، ولما كان الخطاب للمؤمنين وقد أمروا بالدخول في السلم كافة، فهو أمر متعلّق بالمجموع وبكل واحد من أجزائه، فيجب ذلك على كل مؤمن، ويجب على الجميع أيضاً أن لايختلفوا في ذلك، ويسلموا الأمر لله ولرسوله ﷺ، وأيضا الخطاب للمؤمنين خاصة، فالسلم المدعو إليه هو التسليم لله سبحانه بعد الإيمان به.**

فيجب على المؤمنين أن يسلموا الأمر إليه، ولايذعنوا لأنفسهم صلاحا باستبداد من الرأي، ولايضعوا لأنفسهم من عند أنفسهم طريقا يسلكونه من دون أن يبينه الله ورسوله، فما هلك قوم إلّا باتباع الهوى والقول بغير العلم، ولم يسلب حق الحياة وسعادة الجد عن قوم إلّا عن اختلاف...

فالآية نظيرة قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلوا مِمّا فِي الأَرضِ حَلَالاً طَيِّباً ولَا تَتَّبِعوا

---

١ ـ آل عمران: ١٠٣.

خُطُوٰاتِ...﴾ [١]، وقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ ءامَنوا لَا تَتَّبِعوا خُطُوٰتِ الشَّيطٰانِ...﴾ [٢]، وقوله تعالى: ﴿كُلوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ ولَا تَتَّبِعوا خُطُوٰتِ الشَّيطٰانِ إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبين﴾ [٣]، والفرق بين هذه الآية وبين تلك أن الدعوة في هذه موجهة إلى الجماعة لمكان قوله تعالى: ﴿كافة﴾، بخلاف تلك الآيات فهي عامة، فهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿واعتَصِموا بِحَبلِ اللّٰهِ جَميعاً ولَا تَفَرَّقوا﴾ [٤]، وقوله تعالى:﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [٥]...» [٦].

فإذا سُلب منّا العزّة وحتى حق الحياة بسبب الاختلافات،فلا نلوم انفسنا؛لأنّ الله تعالى دعانا الى الوحدة بدخول السلم، فلم نجب ولكننا أجبنا دعوة الشيطان.

١٤ ـ طاعة الرسول هو الحافظ لوحدة المؤمنين

يقول الأستاذ في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ [٧]:

«... والمراد بسبيل المؤمنين إطاعة الرسول، فإنّ طاعته طاعة الله، قال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [٨]، فسبيل المؤمنين بما هم مجتمعون على الايمان هو الاجتماع على طاعة الله ورسوله ـ وإن شئت فقل على طاعة رسوله ـ فإنّ ذلك هو

---

١ ـ البقرة: ١٦٩.

٢ ـ النور: ٢١.

٣ ـ الأنعام: ١٤٢.

٤ ـ آل عمران: ١٠٣.

٥ ـ الأنعام: ١٥٣.

٦ ـ تفسير الميزان ٢: ١٠١.

٧ ـ النساء: ١١٥.

٨ ـ النساء: ٨٠.

الحافظ لوحدة سبيلهم، كما قال تعالى: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلّا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا﴾ [١]، وقال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذالكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ [٢].

وإذا كان سبيله سبيل التقوى، والمؤمنون هم المدعوون إليه، فسبيلهم مجتمعين سبيل التعاون على التقوى، كما قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان﴾ [٣] والآية ـ كما ترى ـ تنهى عن معصية الله وشق عصا الاجتماع الإسلامي، وهو ما ذكرناه من معنى سبيل المؤمنين» [٤].

١٥ ـ التمسّك بالكتاب والاعتصام بالسنّة طريق الوحدة

يقول السيّد العلّامة بأنّ السبيل الواحيد لوحدة المجتمع الانساني، هوالاعتصام بحبل‌الله، وهو ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولات فرقوا...﴾ الآية ١٠٣ من آل عمران:

«ذكر سبحانه فيما مر من قوله: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله﴾ الآية، أنّ التمسك بآيات الله وبرسوله (الكتاب والسنّة) اعتصام بالله، مأمون معه المتمسك المعتصم مضمون له الهدى، والتمسك بذيل الرسول تمسك بذيل الكتاب، فإنّ الكتاب هوالذي يأمر بذلك في مثل قوله: ﴿وما آتاكم

١ ـ آل عمران: ١٠١ ـ ١٠٣.

٢ ـ الأنعام: ١٥٣.

٣ ـ المائدة: ٢.

٤ ـ تفسير الميزان ٥: ٨٢.

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[١].

وقد بدل في هذه الآية، الاعتصام المندوب إليه في تلك الآية، بالاعتصام بحبل الله، فأنتج ذلك أنّ حبل الله هوالكتاب المنزل من عند الله، وهوالذي يصل ما بين العبد والرب، ويربط السماء بالأرض، وإن شئت قلت: إنّ حبل الله هو القرآن والنبي ﷺ. فقد عرفت أن مآل الجميع واحد.

والقرآن وإن لم يدعُ إلّا إلى حق التقوى والإسلام الثابت، لكن غرض هذه الآية غير غرض الآية السابقة، الآمرة بحق التقوى والموت على الإسلام، فإنّ الآية السابقة تتعرض لحكم الفرد، وهذه الآية تتعرض لحكم الجماعة المجتمعة، والدليل عليه قوله: (جميعا) وقوله: (ولا تفرقوا)، فالآيات تأمر المجتمع الإسلامي بالاعتصام بالكتاب والسنّة كما تأمر الفرد بذلك...».

ثمّ يذكر بعد سطور بأنّ التجربة والعقل يقولان بضرورة إعتصام المجتمع الإسلامي بالكتاب والسنة؛ لحفظ الجماعة المجتمعة فيقول: «وما ذكره تعالى من الدليلين أحدهما وهو قوله: ﴿إذ كنتم أعداء﴾، مبتن على أصل التجربة، والثاني وهو قوله: ﴿وكنتم على شفا حفرة﴾، على طريقة البيان العقلي كما هو ظاهر»[٢].

وجاء السيّد العلّامة برواية في تفسير الآية، يأمرنا رسول الله ﷺ فيها بلزوم الجماعة، وهي: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة ـ وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة ـ كلهم في النار إلّا واحدة قالوا يارسول الله ومن هذه الواحدة قال الجماعة ثمّ قال: ﴿اعتصموا بحبل الله جميعاً﴾[٣]»[٤].

---

١ ـ الحشر: ٧.

٢ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٦٨.

٣ ـ الدر المنثور ٢: ٦٠.

٤ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٩.

ويبيّن العلّامة الطباطبائي في موضع آخر، بأنّ الإعتصام بالله وبكتابه وسنّة رسوله هو الإعتصام بالحق، وهو يوجب الهداية الى الصراط المستقيم، الذي لايختلف ولايتخلف أمره، وهو يجمع سالكيه في مستواه ومن اهتدى اليه، يكون مع غيره من المهتدين في مستوى واحد.

يقول العلّامة ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]:

«المراد بالفريق كما تقدم هم اليهود أوفريق منهم، وقوله تعالى: ﴿وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ أي: يمكنكم أن تعتصموا بالحق الذي يظهر لكم، بالإنصات إلى آيات الله والتدبر فيها، ثمّ الرجوع فيما خفي عليكم منها، لقلة التدبّر أوالرجوع ابتداء إلى رسوله، الذي هو فيكم غير محتجب عنكم ولا بعيد عنكم، واستظهار الحق بالرجوع إليه، ثمّ إبطال شبهة ألقتها اليهود إليكم، والتمسك بآيات الله وبرسوله والاعتصام بهما اعتصام بالله، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم...

ومن يعتصم بالله، بمنزلة الكبرى الكلية لذلك، والمراد بالهداية إلى صراط مستقيم: الاهتداء إلى إيمان ثابت، وهوالصراط الذي لا يختلف ولايتخلف أمره، ويجمع سالكيه في مستواه، ولايدعهم يخرجون عن الطريق فيضلوا...ويتبين من الآية أن الكتاب والسنة كافيان في الدلالة على كل حق يمكن أن يضل فيه».

ويقول بعد سطور في تفسير الآيات (١٠٢ ـ ١١٠) من هذه السورة:

«فالآيات خاطب به المؤمنين بالتحذير من أهل الكتاب وتفتينهم، وأنّ عندهم ما يمكنهم أن يعتصموا به فلايضلوا ولايسقطوا في حفر المهالك»[2].

---

١ ـ آل عمران: ١٠١.

٢ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٦٤.

وفي موضع آخر يؤكّد العلّامة الطباطبائي على هذا الرأي، ويقول في تفسير: ﴿وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُستَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولَا تَتَّبِعُوا السبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصاكُم بِهِ لَعَلَّكمْ تَتَّقُونَ﴾[١]، مستنتجاً منها أنّ الصراط المستقيم لا اختلاف بين أجزائه ولا بين سالكيه:

«والذي يعطيه سياق الآيات أن يكون مضمون هذه الآية أحد الوصايا التي أمر النبيﷺ أن يتلوها عليهم ويخبرهم بها، حيث قيل: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾، ولازم ذلك أن يكون قوله: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه﴾ مسوقا لا لتعلق الغرض به بنفسه؛ لأن كلّيات الدين قد تمت في الآيتين السابقتين عليه، بل ليكون توطئة وتمهيداً لقوله بعده: ﴿ولا تتبعوا السبل﴾، كما أن هذه الجملة بعينها كالتوطئة لقوله: ﴿فتفرق بكم عن سبيله﴾، فالمراد بالآية أن لاتتفرقوا عن سبيله ولاتختلفوا فيه، فتكون الآية مسوقة سوق قوله: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه﴾[٢]، فالأمر في الآية بإقامة الدين هو ما وصى من الدين المشروع، كأنّه أعيد ليكون تمهيداً للنهي عن التفرق بالدين.

فالمعنى: ومما حرم ربكم عليكم ووصاكم به: أن لاتتبعوا السبل التي دون هذا الصراط المستقيم، الذي لايقبل التخلف والاختلاف وهي غير سبيل الله، فإنّ اتباع السبل دونه يفرقكم عن سبيله فتختلفون فيه، فتخرجون من الصراط المستقيم إذ الصراط المستقيم، لا اختلاف بين أجزائه ولا بين سالكيه »[٣].

---

١ ـ الأنعام: ١٥٣.

٢ ـ الشورى: ١٣.

٣ ـ تفسير الميزان ٧: ٣٧٧، والحديث في تفسير العياشي ١: ١٩٤ ح ١٢٢.

١٦ ـ التواصل من الأسباب والمقوّمات للاتحاد

الترابط والتواصل سبب قوي في طريق تحقق وإستدامة الألفة والمحبة والوحدة بين المسلمين؛ لإنّ الناس مهما كانوا مجتمعين متواصلين، اتصلت عقائد بعضهم ببعض، واتحدت بالتماس والتفاعل، وحفظهم ذلك من الاختلاف.

هذا ما استفاده السيّد الطباطبائي من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١]، فقال:

«لا يبعد أن يكون قوله: ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ متعلقاً بقوله: (واختلفوا) فقط، وحينئذٍ كان المراد بالاختلاف التفرق من حيث الاعتقاد، وبالتفرق الاختلاف والتشتت من حيث الأبدان، وقدّم التفرق على الاختلاف؛ لأنه كالمقدمة المؤدّية إليه، لأنّ القوم مهما كانوا مجتمعين متواصلين، اتصلت عقائد بعضهم ببعض، واتحدت بالتماس والتفاعل، وحفظهم ذلك من الاختلاف...»[٢].

١٧ ـ الإنفاق والصدقة والقرض الحسن من عوامل الوحدة

قد ذكرنا أسباباً للوحدة وهناك سبب يرتبط بالنظام المالي والإقتصادي، وهو رواج ثقافة الإنفاق والصدقة والقرض الحسن بين المؤمنين وترك الربا. والصدقة في الآية الكريمة أعمّ من الإنفاق والقرض الحسن بقرينة تقابلها في الآية مع الربا.

يقول السيّد الأستاذ في كلام حول الإنفاق:

«الانفاق من أعظم ما يهتم بأمره الاسلام... وانما يريد بذلك ارتفاع سطح معيشة الطبقة السافلة، التي‌ستطيع رفع حوائج الحياة من غير إمداد مالي من غيرهم؛ ليقرب أفقهم من أفق أهل النعمة والثروة... وكان الغرض من ذلك كله ايجاد حياة نوعية

---

١ ـ آل عمران: ١٠٥.

٢ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٣.

متوسطة، متقاربة الأجزاء متشابهة الابعاض، تحيي ناموس الوحدة والمعاضدة، وتميت الإرادات المتضادة وأضغان القلوب ومنابت الأحقاد.

وقد كشف توالي الأيام عن صدق القرآن في نظريته هذه ـ وهي تقريب الطبقات بإمداد الدانية بالانفاق، ومنع العالية عن الاتراف والتظاهر بالجمال ـ حيث إنّ الناس بعد ظهور المدنية الغربية استرسلوا في الإخلاد إلى الأرض، والإفراط في استقصاء المشتهيات الحيوانية، واستيفاء الهوسات النفسانية، وأعدوا له ما استطاعوا من قوة، فأوجب ذلك عكوف الثروة وصفوة لذائذ الحياة على أبواب أولي القوة والثروة، ولم يبق بأيدي النمط الأسفل إلّا الحرمان.

ولم يزل النمط الأعلى يأكل بعضه بعضا، حتى تفرد بسعادة الحياة المادية نزر قليل من الناس، وسلب حق الحياة من الأكثرين وهم سواد الناس، وأثار ذلك جميع الرذائل الخلقية من الطرفين، كل يعمل على شاكلته لايبقي ولايذر، فأنتج ذلك التقابل بين الطائفتين، واشتباك النزاع والنزال بين الفريقين، والتفاني بين الغني والفقير والمنعم والمحروم والواجد والفاقد، ونشبت الحرب العالمية الكبرى...»[١].

وقال سيّدنا العلّامة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[٢]:

«... من خاصة الصدقات أنّها تنمي المال إنمائا يلزمها ذلك لزوماً قهرياً، لاينفك عنها، من حيث أنها تنشر الرحمة، وتورث المحبة وحسن التفاهم، وتألف القلوب وتبسط الأمن والحفظ، وتصرف القلوب عن أن تهمّ بالغضب والاختلاس والافساد والسرقة، وتدعو إلى الاتحاد والمساعدة والمعاونة... كذلك الربا يورث البغض والعداوة وسوء الظن، ويفسد الأمن والحفظ، ويهيج النفوس على الانتقام بأيّ وسيلة أمكنت، من

١ ـ تفسير الميزان ٢: ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

٢ ـ البقرة: ٢٧٦.

قول أو فعل مباشرة أو تسبيباً، وتدعو إلى التفرق والاختلاف» [١].

إنّ التواصل والترابط طريق تحقق واستدامة الألفة والمحبة والوحدة بين المسلمين؛ لأنّ الناس مهما كانوا مجتمعين متواصلين اتصلت عقائد بعضهم ببعض، واتحدت بالتماس والتفاعل، وحفظهم ذلك من الاختلاف.

وقد ذكر العلّامة سبباً يرتبط بالنظام المالي والإقتصادي، وهو رواج ثقافة الصدقة والقرض الحسن بين المؤمنين وترك الربا، والصدقة أعمّ من الإنفاق والقرض الحسن بقرينة تقابلها في الآية مع الربا.

١ ـ تفسير الميزان ٢: ٤١٨ ـ ٤١٩.

الفصل السادس
آثار الوحدة والاختلاف في الميزان
وانعكاستهما الفردية والاجتماعية

آثار الوحدة وانعكاساتها الفردية والاجتماعية

ثمة آثار عديدة تفرزها الوحدة أو الاختلاف، تنعكس بشكل كبير على الفرد والمجتمع معاً، يورد العلّامة الطباطبائي في تفسيره أهمها وأبرزها:

١ ـ السعادة والفوز في الدارين

يعتقد السيّد العلّامة: «**أنّ الولي الذي يعبد ويدان له يجب أن يكون رافعاً لإختلافات من يتولونه مصلحاً لما فسد من شؤون مجتمعهم، سائقا لهم إلى سعادة الحياة الدائمة بما يضعه عليهم من الحكم وهو الدين**»[1].

وعلى هذا المبنى يقول العلّامة في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا**﴾[2]:

«**ولعلّ الوجه في ذكرِ أنّ هذا المذكور نعمة الله عليكم، هو الإشارة إلى ما ذكرناه، أي**

---

١ ـ تفسير الميزان ١٨: ٢٢.

٢ ـ آل عمران: ١٠٣.

أنّ الدليل على ما ندبناكم إليه من الاتحاد والاجتماع، هو ما شاهدتموه من مرارة العداوة، وحلاوة المحبة، والألفة والأخوة، والإشراف على حفرة النار والتخلص منها، وإنّما نذكركم بهذا الدليل، لا لأن علينا أن نؤيد قولنا بما لولاه لم يكن حقا، فإنما قولنا حق سواء دللنا عليه أو لا، بل لأن تعلموا أنّ ذلك نعمة منا عليكم، فتعرفوا أنّ في هذا الاجتماع ـ كسائر ما نندبكم إليه ـ سعادتكم وراحتكم ومفازتكم »[١].

وفي قوله: « ﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ تكرار للامتنان الذي يدل عليه قوله: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾، والمراد بالنعمة هو التأليف، فالمراد بالأخوة التي توجده وتحققه هذه النعمة أيضا تألف القلوب، فالأخوة هاهنا حقيقة ادعائية. ويمكن أن يكون إشارة إلى ما يشتمل عليه قوله: ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾ من تشريع الأخوة بينهم، فإنّ بين المؤمنين أخوة مشرعة تتعلق بها حقوق هامة »[٢].

٢ ـ استحكام أساس المجتمع الإسلامي

يقول العلّامة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَأَيها الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسولَ وأُولى الأَمْرِ مِنكمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ في شئٍ فَرُدُّوهُ إلى اللَّهِ والرَّسولِ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِك خَيرٌ وأَحْسنُ تَأْوِيلاً﴾[٣]:

«لمّا فرغ من الندب إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وبثّ الإحسان بين طبقات المؤمنين، وذم من يعيب هذا الطريق المحمود أو صدّ عنه صدوداً، عاد إلى أصل المقصود بلسان آخر يتفرع عليه فروع أُخر، بها يستحكم أساس المجتمع الإسلامي، وهو التحريض والترغيب في أخذهم بالائتلاف والاتفاق، ورفع كل تنازع واقع بالرد إلى الله ورسوله.

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٦٨.

٢ ـ المصدر السابق: ٣٧٠.

٣ ـ النساء: ٥٩.

ولاينبغي أن يرتاب في أن قوله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾، جملة سيقت تمهيداً وتوطئة للأمر برد الأمر إلى الله ورسوله عند ظهور التنازع، وإن كان مضمون الجملة أساس جميع الشرائع والأحكام الإلهية...».

وهنا سؤال: هل الرجوع الى الله والرسول يفيد هذا الأثر فقط، فإذا كان كذلك، فبعد رسول الله إلى مَن نرجع لرفع التنازع وحفظ الوحدة؟

يجيب الأستاذ الطباطبائي: «وأما أولوا الأمر فهم ـ كائنين مَن كانوا ـ لا نصيب لهم من الوحي، وإنّما شأنهم الرأي الذي يستصوبونه، فلهم إفتراض الطاعة نظير ما للرسول في رأيهم وقولهم، ولذلك لما ذكر وجوب الرد والتسليم عند المشاجرة، لم يذكرهم بل خص الله والرسول فقال: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾... والكتاب والسنة حجتان قاطعتان في الأمر لمن يسعه فهم الحكم منهما، وقول أولي الأمر في أنّ الكتاب والسنة يحكمان بكذا أيضا حجة قاطعة، فإن الآية تقرر افتراض الطاعة من غير أي قيد أو شرط، والجميع راجع بالآخرة إلى الكتاب والسنّة...

وبالجملة لما لم يكن لأولي الأمر هؤلاء خيرة في الشرائع، ولا عندهم إلّا ما لله ورسوله من الحكم، أعني الكتاب والسنة، لم يذكرهم الله سبحانه ثانيا عند ذكر الرد بقوله: فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول، فللّه تعالى إطاعة واحدة، وللرسول وأولي الأمر إطاعة واحدة، ولذلك قال: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾»[١].

٣ ـ حماية حقوق أفراد المجتمع الإسلامي

الالتزام بحقوق السائرين يحتاج الى باعث قوي لأنّه مخالف للمنافع الشخصية وهذا الباعث في الإسلام هو الإعتقاد بأنّ المسلمين كلهم إخوة، وهذه مجعولة إلهية.

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ٣٨٧.

وقد نعلم كما قلنا، إنّ نظام الأخوة في الإسلام من أحكم النظم المتحدة، ولا يوجد سبب أقوى من الأخوة للوحدة والمرابطة. والأُخوّة في الإسلام ليست كلمة مرسلة لا مدلول لها، أو شعاراً أجوف لا معنى من ورائه، بل هي حقيقة راسخة في الحياة الإسلامية وخُلق قائمة بين المسلمين، لها آثارها في واقعهم ولها مظاهرها في سلوكهم ومختلف أحوالهم، لأنّها لازمة للايمان ومنبثقة عنه، ومن ثمّ فهي تابعة له في الوجود والعدم وفي الظهور والخفاء.

ووضع الإسلام نظام الحقوق بين أبناء الإسلام، فقد شرع الإسلام نظام الحقوق بين المسلمين، وجعل العمل به أمراً لازماً للأُخوة في الدين، ومظهراً لقوة اليقين وصدق الايمان، وهي حقوق شملت كلّ جوانب الحياة وأحوال المسلمين كافةً، ما ظهر منها وما بطن وما خفي منها وما انتشر.

ثمّ وضع الإسلام نظام التكافل والتآزر بين الأُخوة في الله، وهو من لوازم الأُخوة وفروعها، كما يفيده قول النبي ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1].

فمراعاة حقوق آحاد المؤمنين من الواجبات لأنهم إخواننا، ولم يرض الإسلام بوقوع الخدشة في هذه الأخوة، ولذلك أمرنا الله تعالى بحفظها، ولو كان بالقتال مع الذين لم يراعوا حقوق الأخوان وبغوا عليهم.

يقول السيّد الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]:

«**واعلم أن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ جعل تشريعي لنسبة الإخوة بين المؤمنين، لها آثار شرعية وحقوق مجعولة... واعتبار المعنى الاعتباري وإن كان لغرض ترتيب آثار حقيقته عليه، كما يؤخذ أحد القوم رئيسا لهم، ليكون نسبته إليهم نسبة الرأس إلى**

---

١ ـ صحيح مسلم ٨: ٢٠.

٢ ـ الحجرات: ١٠.

البدن، فيدبر أمر المجتمع ويحكم بينهم وفيهم، كما يحكم الرأس على البدن.

لكن لما كان الاعتبار لمصلحة مقتضية كان تابعا للمصلحة، فإن اقتضت ترتيب جميع آثار الحقيقة ترتبت عليه جميعا، وإن اقتضت بعضها كان المترتب على الموضوع الاعتباري ذلك البعض... والإخوة من هذا القبيل فمنها أخوة طبيعية... وأخوة دينية لها آثار اجتماعية، ولا أثر لها في النكاح والإرث».

ثم إنّ الأستاذ يستشهد بقول الصادق ﷺ لإثبات صحة ما استفاده من الآية الكريمة: «**المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله، لايخونه ولايظلمه ولايغشه، ولايعده عدة فيخلفه...**» [١ و ٢].

وبيّن السيّد في تفسير ﴿فإن تابوا... فإخوانكم في الدين﴾ من الآية ١١ من سورة التوبة: حتى المشركين إذا تابوا يدخلون في زمرة المسلمين، والمسلم أخ المسلم، فلايجوز تضييع حقوقهم بتأخير لحوقهم بالمسلمين، فعلى الذين سابقوا بـالايمان مراعاة حقوقهم ومعاملة الإخوان معهم، فيقول:

«**فالمراد به بيان التساوي بينهم (المشركون) وبين سائر المؤمنين في الحقوق، التي يعتبرها الإسلام في المجتمع الإسلامي، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.**

وقد عبر في الآية عن ذلك بالأخوة في الدين، وقال في موضع آخر: ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾ [٣]، اعتبارا بما بينهم من التساوي في الحقوق الدينية، فإنّ الأخوين شقيقان اشتقا من مادة واحدة وهما لذلك متساويان في الشؤون الراجعة إلى ذلك في مجتمع المنزل عند والدهما، الذي هو رب البيت، وفي مجتمع القرابة عند الأقرباء والعشيرة.

وإذ كان لهذا المعنى المسمى بلسان الدين (أخوة) أحكام وآثار شرعية اعتنى بها

---

١ ـ الكافي ٢: ١٦٦ ح ٣.

٢ ـ تفسير الميزان ١٨: ٣١٥.

٣ ـ الحجرات: ١٠.

قانون الإسلام، فهو اعتبار حقيقة لنوع من الأخوة بين أفراد المجتمع الإسلامي، لها آثار مترتبة، كما أن الأخوة الطبيعية فيما اعتبرها الإسلام لها آثار مترتبة عقلائية ودينية، وليست تسمية ذلك أخوة مجرد استعارة لفظية عن عناية مجازية، وفيما نقل عن النبي ﷺ قوله: المؤمنون إخوة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد واحدة على من سواهم»[١].

وعلى هذا المبنى لايرى دليلاً لإنفاق أهل النعمة والثروة من المؤمنين على فقراء المؤمنين إلّا لأنهم إخوانهم، ويقول: «**الإنفاق من أعظم ما يهتم بأمره الاسلام... فإنّ القرآن يرى أنّ شأن الدين الحق هو تنظيم الحياة بشؤونها، وترتيبها ترتيبا يتضمن سعادة الانسان في العاجل والآجل... ولايكمل ذلك إلّا بالجهات المالية والثروة والقنية، والطريق إلى ذلك انفاق الأفراد مما اقتنوه بكد اليمين وعرق الجبين، فإنّما المؤمنون إخوة...**»[٢].

ونظام الأخوة يحرّم علينا إغتياب المؤمنين والتجسس في أحوالهم وأسرارهم. يقول العلّامة:

«إنّ اغتياب المؤمن بمنزلة أن يأكل الانسان لحم أخيه حال كونه ميتاً، وإنّما كان لحم أخيه لأنه من أفراد المجتمع الاسلامي المؤلف من المؤمنين، وإنّما المؤمنون إخوة... و... التعليل جار في التجسس أيضا كالغيبة»[٣].

٤ ـ التنعّم بالأمن والراحة

لمّا أسلم أهل يثرب وآمنوا برسول الله ﷺ، ـ وهم قبائل ذات خصومات ومنازعات، ورأوا ما تفعل بهم نار التفرقة والخصومة حيث كانوا على شفا حفرة من

---

١ ـ تفسير الميزان ٩: ١٥٨.

٢ ـ المصدر السابق ٢: ٣٨٣.

٣ ـ المصدر نفسه ١٨: ٣٢٤.

النار ـ دعاهم الله الى الإعتصام بحبل الله والوحدة والإجتناب عن التفرقة، بقوله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا﴾ [١]، ولترغيبهم بحفظ الوحدة بيّن لهم بركاتها في تتمة الآية. يقول العلّامة بهذا الصدد تفسيرا لهذه الآية:

«فهؤلاء (أهل المدينة) هم طائفة من المسلمين، كانوا آمنوا قبل نزول الآية بعد كفرهم، وهم المخاطبون الأقربون بهذه الآيات، لم يكونوا يعيشون مدى حياتهم قبل الإسلام إلّا في حال تهددهم الحروب والمقاتلات آنا بعد آن، فلا أمن ولا راحة ولا فراغ، ولم يكونوا يفقهون ما حقيقة الأمن العام، الذي يعم المجتمع بجميع جهاتها، من جاه ومال وعرض ونفس وغير ذلك.

ثم لما اجتمعوا على الاعتصام بحبل الله، ولاحت لهم آيات السعادة، وذاقوا شيئاً من حلاوة النعم، وجدوا صدق ما يذكرهم به الله من هنيء النعمة ولذيذ السعادة، فكان الخطاب أوقع في نفوسهم ونفوس غيرهم.

ولذلك بني الكلام ووضعت الدعوة على أساس المشاهدة والوجدان، دون مجرد التقدير والفرض، فليس العيان كالبيان، ولا التجارب كالفرض والتقدير، ولذلك بعينه أشار في التحذير الآتي في قوله: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا...﴾ إلى حال من قبلهم، فإنّ مآل حالهم بمرأى ومسمع من المؤمنين، فعليهم أن يعتبروا بهم وبما آل إليه أمرهم، فلايجروا مجراهم ولايسلكوا مسلكهم. نبههم الله على خصوصية هذا البيان فقال: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾» [٢].

٥ ـ بياض الوجه في الآخرة

يقول السيّد العلّامة في بيان قوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه...﴾ [٣]:

---

١ ـ آل عمران: ١٠٣.

٢ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٢.

٣ ـ آل عمران: ١٠٦.

«لمّا كان المقام مقام الكفر بالنعمة (والنعمة هي الألفة والوحدة المذكورة في الآية السابقة (١٠٣ من نفس السورة)، وهو نظير الخيانة مما يوجب خسة الانفعال والخجل، ذكر سبحانه من بين أنواع عذاب الآخرة ما يناسبها بحسب التمثيل، وهو سواد الوجه الذي يكنى به في الدنيا عن الانفعال والخجل ونحوهما، كما يشعر أو يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾.

وكذا ذكر من ثواب الشاكرين لهذه النعمة ما يناسب الشكر، وهو بياض الوجه المكنى به في الدنيا عن الارتضاء والرضا» [١].

٦ ـ الاتصاف بالصبغة الإلهية

يقول السيّد العلّامة في معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٢]:

«الاتيان بلفظ المثل مع كون أصل المعنى، فإن آمنوا بما آمنتم به، لقطع عرق الخصام والجدال...» [٣].

وقوله تعالى: ﴿في شقاق﴾ قال: «الشقاق: النفاق والمنازعة والمشاجرة والافتراق» [٤].

فإن آمنوا بمثل ما آمن به المؤمنون، وهو إيمان «لايشتمل إلّا على الحقّ» [٥]، «لم يجدوا طريقاً للمراء والمكابرة» [٦]، وهو يوجب الوحدة ويقطع الإفتراق، ثمّ يأتي الله بصفة لهذا الإيمان الموجب للوحدة والقاطع للنزاع في الآية التالية لهذه الآية:

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٤.

٢ ـ البقره: ١٣٧.

٣ ـ تفسير الميزان ١: ٣١٢.

٤ ـ المصدر السابق.

٥ ـ المصدر نفسه.

٦ ـ المصدر نفسه.

﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة...﴾ [١].

ويقول العلّامة في معنى هذه الآية: «الصبغة بناء نوع من الصبغ أي هذا الإيمان المذكور صبغة إلهية لنا، وهي أحسن الصبغ لا صبغة اليهودية والنصرانية بالتفرق في الدين، وعدم إقامته» [٢].

٧ ـ الغلبة المطلقة

عبّر القرآن في مواضع عن جماعة من الناس بالحزب، لذا يأتي السيّد الطباطبائي في موضع من تفسيره لمعنى الحزب نقلاً عن الراغب: «والحزب على ما ذكره الراغب جماعة فيها غلظ» [٣]، وفي موضعين بدون ذكر المستند: «والحزب هو العدة من الناس يجمعهم غرض واحد» [٤]، و«الاحزاب جمع حزب، وهو الجمع المنقطع في رأيه عن غيره» [٥].

هذه الجماعة مع الخصوصيات المذكورة باليقين تكون متحدة، فالمقصود بالحزب في القرآن، هو الجماعة المتحدة على مدار واحد.

على هذا الأساس، يقول الاستاذ في بيان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ﴾ [٦]:

« ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾... يشعر أو يدل على كون المتولين جميعا حزباً لله؛

---

١ ـ البقرة: ١٣٨.

٢ ـ تفسير الميزان ١: ٣١٣.

٣ ـ المصدر السابق ٦: ١٥.

٤ ـ المصدر نفسه ١٧: ١٨.

٥ ـ المصدر نفسه ١٤: ٤٩.

٦ ـ المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.

لكونهم تحت ولايته»[١].

و «قوله: ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾... هو من قبيل وضع الكبرى موضع النتيجة للدلالة على علّة الحكم، والتقدير: ومن يتولّ فهو غالب لأنه من حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، فهو من قبيل الكناية عن أنهم حزب الله.

والحزب على ما ذكره الراغب: جماعة فيها غلظ، وقد ذكر الله سبحانه حزبه في موضع آخر من كلامه قريب المضمون من هذا الموضع، ووسمهم بالفلاح، فقال: ﴿لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولوكانوا آباءهم أو أبناءهم أوإخوانهم أوعشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه﴾ إلى أن قال: ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾[٢].

والفلاح: الظفر وإدراك البغية التي هي الغلبة والاستيلاء على المراد، وهذه الغلبة والفلاح هي التي وعدها الله المؤمنين في أحسن ما وعدهم به وبشّرهم بنيله، فالمراد الغلبة المطلقة والفلاح المطلق، أي الظفر بالسعادة والفوز بالحق والغلبة على الشقاء، وإدحاض الباطل في الدنيا والآخرة...»[٣].

ثم يقول: «قوله تعالى في آخر الآية الثانية: "فإن حزب الله هم الغالبون"... والغلبة الدينية التى هي آخر بغية أهل الدين، تتحصل باتصال المؤمنين بالله ورسوله بأى وسيلة تمّت وحصلت»[٤].

وقال الأستاذ في موضع آخر في معنى قوله تعالى: ﴿أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون﴾[٥]:

---

١ ـ تفسير الميزان ١: ١٢.

٢ ـ المجادلة: ٢٢.

٣ ـ تفسير الميزان ٦: ١٥.

٤ ـ المصدر السابق: ٨.

٥ ـ المجادلة: ٢٢.

«تشريف لهؤلاء المخلصين في إيمانهم بأنّهم حزبه تعالى، كما أنّ أولئك المنافقين الموالين لاعداء الله حزب الشيطان، وهؤلاء مفلحون، كما أنّ أولئك خاسرون» [١].

٨ ـ إشتداد القوى للتصبّر وتحمّل الأذى

إذا اجتمع المؤمنون فإنهم سيتقوّى بعضهم ببعض ويمكنهم التّصبّر وتحمّل المشاكل والأذى، التي أوجدتها الطبيعة أو الخصم وأعداء المسلمين.

هذا ماتنبّه إليه السيّد العلّامة عند تفسير لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٢] فقال:

«الأوامر مطلقة.. والمصابرة هي التصبّر وتحمّل الأذى جماعة، باعتماد صبر البعض على صبر آخرين، فيتقوّى الحال ويشتدّ الوصف ويتضاعف تأثيره، وهذا أمر محسوس في تأثير الفرد إذا اعتبرت شخصيته في حال الانفراد، وفي حال الاجتماع والتعاون بإيصال القوى بعضها ببعض...» [٣].

٩ ـ نيل السعادة الدنيوية والأخروية

إنّ السيّد العلّامة بعد بيان معنى ﴿ورابطوا﴾ في الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران بأنّه أعمّ معنى من المصابرة وهي إيجاد الجماعة، قال:

«الارتباط بين قواهم وأفعالهم في جميع شؤون حياتهم الدينية، أعمّ من حال الشدة وحال الرخاء، ولما كان المراد بذلك [الإرتباط الموجد للجماعة] نيل حقيقة السعادة المقصودة للدنيا والآخرة ـ وإلّا فلايتم بها إلّا بعض سعادة الدنيا وليست بحقيقة السعادة ـ عقّب هذه الأوامر بقوله تعالى: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾، يعني الفلاح

---

١ ـ تفسير الميزان ١٩: ١٩٧.

٢ ـ آل عمران: ٢٠٠.

٣ ـ تفسير الميزان ٤: ٩١.

التام الحقيقي»[١].

فعلى هذا الفلاح الحقيقي وسعادة الدارين متوقّف على إيجاد الجماعة والإرتباط بين المسلمين، وقد ارتبطت أفعالهم وقواهم في جميع شؤونهم الدينية، في رخاء كانوا أم في شدّة.

١٠ ـ حيازة المنافع المادية والمعنوية

إذا تنبه المسلمون إلى شؤم الاختلاف والنزاع، وبركات الاتفاق والاتحاد، فيمكنهم اليقظة من نوم الجهالة والسير الى جنّة الوحدة، ومن بركات الاتفاق والاتحاد حفظ وحيازة منافع المسلمين الدنيوية والأخروية.

قال الأستاذ: «**وقال تعالى: ﴿إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾**[٢]، **وقال: ﴿ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾**[٣]، **وقال: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾**[٤]، **وقال: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾**[٥] **إلى غير ذلك من الآيات الآمرة ببناء المجتمع الإسلامي على الاتفاق والاتحاد في حيازة منافعها ومزاياها المعنوية والمادية والدفاع عنه...**»[٦].

الاتحاد مع الشيطان ثمرته السعير

كلّ ما ذكرنا كانت للوحدة التي تكون حول الحق وعلى أساس الدين الإلهي ومدار التقوى، ولكن إذا كانت الوحدة مع الشيطان ومَن تبعه وعلى أساس الباطل،

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ٩١.

٢ ـ الحجرات: ١٠.

٣ ـ الأنفال: ٤٦.

٤ ـ المائدة: ٢.

٥ ـ آل عمران: ١٠٤.

٦ ـ تفسير الميزان ٤: ٩٥.

فليس له من ثمرة إلّا النار. يقول السيّد في شرح قوله تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدواً فاتخذوه عدواً﴾ [١]:

«والمراد بعداوة الشيطان أنّه لا شأن له إلّا إغواء الانسان، وتحريمه سعادة الحياة وحسن العاقبة، والمراد باتخاذ الشيطان عدوا التجنّب من اتباع دعوته إلى الباطل، وعدم طاعته فيما يشير إليه في وساوسه وتسويلاته، ولذلك علل عداوته بقوله: ﴿إنّما يدعو حزبه﴾، فقوله: ﴿إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾، في مقام تعليل ما تقدمه، والحزب هو العدة من الناس يجمعهم غرض واحد، واللام في " ليكونوا " للتعليل، فكونهم من أصحاب السعير علّة غائية لدعوته...» [٢].

فإذا تنبّه المسلمون إلى شؤم الاختلاف والنزاع، وبركات الاتفاق والاتحاد، فيمكنهم اليقظة من نوم الجهالة والسير الي جنّة الوحدة. ومن بركات الاتفاق والاتحاد حفظ وحيازة منافع المسلمين الدنيوية والأخروية.

---

١ ـ فاطر: ٦.

٢ ـ تفسير الميزان ١٧: ١٨.

الفصل السابع

عوامل الفرقة والاختلاف في تفسير الميزان وسبل إزالتهما

مفهوم الاختلاف

للاختلاف معانٍ كثيرة، والمقصود منه هاهنا ما يقابل الاتفاق، وأنّ نوعاً منه لامناص منه في العالم الإنساني، وهو الاختلاف من حيث الطبائع المنتهية إلى اختلاف الأبدان، فإن التركيبات البدنية مختلفة في الأفراد، وهو يؤدي إلى اختلاف الاستعدادات البدنية والروحية، وبانضمام اختلاف الأجواء والظروف إلى ذلك، يظهر اختلاف السلائق والسنن والآداب والمقاصد والأعمال النوعية والشخصية في المجتمعات الإنسانية، وقد بيّن في الأبحاث الاجتماعية أن لولا ذلك لم يعش المجتمع الإنساني طرفة عين.

إنّ دين الإسلام قائم على نوعين من المعارف والأحكام:

أحدهما: إنّ المعارف والأحكام تكون ثابتة ويجب الإيمان بها، ولا يسوغ الاختلاف فيها،وليس من شأنها أن تتغير بتغير الزمان والمكان،ولا أن تخضع لبحث الباحثين واجتهاد المجتهدين، ذلك بأنها ثابتة عن الله تعالى بطريق يقيني لايحتمل الشك، واضحة في معانيها، ليس فيها شيء من الإبهام أو الغموض.

والثاني: إنّ المعارف والأحكام الاجتهادية تكون عادة نظرية وهي مرتبطة بالمصالح، التي تختلف باختلاف ظروفها وأحوالها، أو راجعة إلى الفهم والاستنباط

اللذين يختلفان باختلاف العقول والأفهام، أو واردة بطريق لايرقى إلى درجة العلم واليقين، ولاتتجاوز مرتبة الظن والرجحان.

والنوع الأول، وهو القطعي في أدلته، هو الأساس الذي أوجب الله على المسلمين أن يبنوا عليه صرح وحدتهم غير متنازعين، وربط به عزّهم وقوّتهم وهيبتهم في أعين خصومهم والمتربصين بهم، والمسلمون كلهم مؤمنون به إيماناً ثابتاً لايتزعزع، لا فرق في ذلك بين طائفة منهم وطائفة.

وإنّ جميع الآيات التي جاءت في النهي عن التفرق، وذم الاختلاف، والتحذير منه، وضرب الأمثال بما كان من الأمم السابقة، حين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، إنّما تعني الاختلاف والتفرق في هذا النوع من المعارف والأحكام، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3].

فهذا هو الاختلاف المذموم المنهى عنه في كتاب الله تعالى.

أمّا النوع الثاني من المعارف والأحكام، فإنّ الاختلاف فيه أمر طبيعي، لأنّ

---

١ ـ الأنعام: ١٥٩.

٢ ـ آل عمران: ١٠٥.

٣ ـ الروم: ٣٠ ـ ٣٢.

العقول تتفاوت، والمصالح تختلف، والأدلة تتعارض، ولايعقل في مثل هذا النوع أن يخلو مجتمع من الاختلاف، ويكون جميع أفراده على رأي واحد في جميع شؤونه، وهذا النوع من الاختلاف غير مذموم في الإسلام، ما دام المختلفون مخلصين في بحثهم، باذلين وسعهم في التعرّف على الحق واستبانته، بل إنه ليترتب عليه كثير من المصالح، وتتسع به دائرة الفكر، ويندفع به كثير من الحرج والعسر، وليس من شأنه أن يفضي، ولاينبغي أن يفضي، بالمسلمين إلى التنازع والتفرق، ويدفع بهم إلى التقاطع والتنابز.

ولقد كان الأئمة عليهم الرضوان، وأكثر أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعون لهم بإحسان في الصدر الأوّل يختلفون، ويدفع بعضهم حجة بعض، ويجادلون عن آرائهم بالتي هي أحسن، ويدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا أنّ هذا الاختلاف بينهم كان ذريعة للعدواة والبغضاء، ولا أنّ آراءهم فيما اختلفوا فيه قد اتُخِذت من قواعد الإيمان وأصول الشريعة،التي يعدّ مخالفها كافراً أو عاصياً لله تعالى، وقد كانوا يتحامون الخوض في النظريات، وفتح باب الآراء في العقائد وأصول الدين، ويحتمون الاعتصام فيها بالمحكم، سداً لذريعة الفتنة، وحرصاً على وحدة الأمة، وتفرغاً لما فيه عزهم وسعادتهم وارتفاع شأنهم، ولذلك كانوا أقوياء ذوي عزة ومهابة ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

ولكن غالب المسلمين لم يلبثوا أن انحرفوا عن هذه السبيل، واتخذوا من خلافاتهم عصبيات جامدة لاتعرف التفاهم، ولاتنزل على حكم البرهان والعقل، فكانوا باختلافهم المذهبي كالمختلفين في الدين، يتبادلون سوء الظن، ويتراشقون بالتهم جزافاً، وينظر بعضهم إلى بعض في حذر وحيطة، بل أفضى بهم ذلك في كثير من الأحيان إلى التضارب والتقاتل وسفك الدماء، وبذلك انحلّت عرى الأمة،

---

١ ـ الفتح: ٢٩.

وانفصمت وحدتها، وقدر عليها أعداؤها، ونزع الله هيبتها من القلوب، وأصبحت غثاء كغثاء السيل، وانقلب الخلاف الذي كان رحمة ونعمة إلى بلاء وشر وفتنة، وصار مثله كمثل الخلاف في الأصول، والنزاع على الأسس الأولى للإيمان.

ولقد كان رسول الله ﷺ يخشى هذا التفرّق، ويحذّر منه، وكان يشبّه المؤمنين بالجسد الواحد، ولم يكن شيء أبغض إليه ـ بعد الكفر بالله ـ من الاختلاف والتنازع ولو في الأمور العادية [١].

إنّ هذه الأمة لن تصلح إلّا إذا تخلصت من هذه الفرقة، واتحدت حول أصول الدين، وحقائق الإيمان، ووسعت صدرها فيما وراء ذلك للخلافات، ما دام الحكم فيها للحجة والبرهان.

وهناك نكات مهمة استفدناها من كلمات العلّامة الطباطبائي حول مسألة الاختلاف، يجب علينا ذكرها:

عوامل الاختلاف

يقول السيّد الطباطبائي: **«من المعلوم أنّ اختلاف العوامل الذهنية والخارجية مؤثرة في اختلاف الأفهام، من حيث تصورها وتصديقها ونيلها وقضائها، وهذا يؤدي إلى الاختلاف في الأصول التي بني على أساسها المجتمع الإسلامي. إلّا أنّ الاختلاف بين إنسانين في الفهم، على ما يقضي به فن معرفة النفس وفن الأخلاق وفن الاجتماع، يرجع إلى أحد أمور:**

(أ) إمّا إلى اختلاف الأخلاق النفسانية والصفات الباطنة، من الملكات الفاضلة والردية، فإنّ لها تأثيراً وافراً في العلوم والمعارف الإنسانية، من حيث الاستعدادات المختلفة التي تودعها في الذهن، فما إدراك الإنسان المنصف وقضاؤه الذهني كإدراك

---

١ ـ الكافي ٢: ١٦٦ح ١ ـ ١١.

الشموس المتعسف، ولا نيل المعتدل الوقور للمعارف كنيل العجول والمتعصب، وصاحب الهوى والهمجي الذي يتبع كل ناعق، والغوي الذي لايدري أين يريد ولا أنّى يراد به»[١].

هذا هو الداء، فكيف العلاج؟

يقول الأستاذ: «والتربية الدينية تكفي مؤونة هذا الاختلاف، فإنها موضوعة على نحو يلائم الأصول الدينية من المعارف والعلوم، وتستولد من الأخلاق ما يناسب تلك الأصول وهي مكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[٤]، وانطباق الآيات على مورد الكلام ظاهر».

(ب) وإمّا أن يرجع إلى اختلاف الأفعال، فإنّ الفعل المخالف للحق كالمعاصي وأقسام التهوسات الإنسانية، ومن هذا القبيل أقسام الإغواء والوساوس، يلقن الإنسان وخاصة العامي الساذج الأفكار الفاسدة، ويعد ذهنه لدبيب الشبهات وتسرّب الآراء الباطلة فيه، وتختلف إذ ذاك الأفهام وتتخلف عن اتباع الحق! هذا هو الداء، فكيف العلاج؟

يقول: «وقد كفى مؤونة هذا أيضاً الإسلام، حيث أمر المجتمع بإقامة الدعوة الدينية دائماً أولاً، وكلف المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثانياً، وأمر بهجرة أرباب الزيغ والشبهات ثالثاً. قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ١٢٨.

٢ ـ الأحقاف: ٣٠.

٣ ـ المائدة: ١٦.

٤ ـ العنكبوت: ٦٩.

بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [١] الآية فالدعوة إلى الخير تستثبت الاعتقاد الحق وتقرها في القلوب بالتلقين والتذكير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنعان من ظهور الموانع من رسوخ الاعتقادات الحقة في النفوس.

وقال تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما يُنسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين * وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون * وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت﴾ [٢] الآيات، ينهى الله تعالى عن المشاركة في الحديث الذي فيه خوض في شيء من المعارف الإلهية والحقائق الدينية بشبهة أو اعتراض أو استهزاء ولو بنحو الاستلزام أو التلويح، ويذكر أنّ ذلك من فقدان الإنسان أمر الجد في معارفه، وأخذه بالهزل واللعب واللهو، وأنّ منشأه الاغترار بالحياة الدنيا، وأنّ علاجه التربية الصالحة والتذكير بمقامه تعالى.

(ج) وإمّا أن يكون الاختلاف من جهة العوامل الخارجية، كبعد الدار وعدم بلوغ المعارف الدينية إلّا يسيرة أومحرفة، أوقصور فهم الإنسان عن تعقل الحقائق الدينية تعقلاً صحيحاً، كالجربزة والبلادة المستندتين إلى خصوصية المزاج، وعلاجه تعميم التبليغ والإرفاق في الدعوة والتربية، وهذان من خصائص السلوك التبليغي في الإسلام، قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ [٣].

ومن المعلوم أنّ البصير بالأمر يعرف مبلغ وقوعه في القلوب، وأنحاء تأثيراته المختلفة باختلاف المتلقين والمستمعين، فلايبذل أحد إلّا مقدار ما يعيه منه، وقد قال رسول الله ﷺ على ما رواه الفريقان: "إنا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم"،

---

١ ـ آل عمران: ١٠٤.

٢ ـ الأنعام: ٦٨ ـ ٧٠.

٣ ـ يوسف: ١٠٨.

وقال تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾[١]، فهذه جمل ما يتقى به وقوع الاختلاف في العقائد أو يعالج به إذا وقع»[٢].

هل الوحي السماوي يمكن أن يوجب الاختلاف؟

قال السيّد العلّامة في تفسيره آيات: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصى بِهِ نُوحاً والَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْك ومَا وَصيْنَا بِهِ إِبْرَهِيمَ ومُوسى وعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ... * ومَا تَفَرَّقُوا إِلّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ولَولَا كلِمَةٌ سبَقَت مِن رَّبِّك إِلى أَجَلٍ مُّسمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَب مِن بَعْدِهِمْ لَفِى شكٍ مِّنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَلِك فَادْعُ واستَقِمْ كمَا أُمِرْت ولَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ...﴾[٣]:

«وقد بيّن فيها بحسب مناسبة المقام، أنّ الشريعة المحمديّة أجمع الشرائع المنزلة، وأنّ الاختلافات الواقعة في دين الله على وحدته ليست من ناحية الوحي السماوي، وإنّما هي من بغي الناس بعد علمهم»[٤].

سبب اختلاف الشرائع وعلاقته باختلاف الأزمان

يقول الأستاذ في تفسير قوله تعالى: ﴿... لِكلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شرْعَةً ومِنْهَاجاً ولَوشاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكمْ أُمَّةً وَحِدَةً ولَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ فَاستَبِقُوا الْخَيرَتِ إِلى اللَّهِ مَرْجِعُكمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تخْتَلِفُونَ﴾[٥]:

---

١ ـ التوبة: ١٢٢.

٢ ـ تفسير الميزان ٤: ١٢٨ ـ ١٢٩.

٣ ـ الشورى: ١٣ ـ ١٥.

٤ ـ تفسير الميزان ١٨: ٢٨.

٥ ـ المائدة: ٤٨.

«بيان لسبب اختلاف الشرائع، وليس المراد بجعلهم أمة واحدة الجعل التكويني، بمعنى النوعية الواحدة... بل المراد أخذهم بحسب الاعتبار أمة واحدة، على مستوى واحد من الاستعداد والتهيؤ، حتى تشرّع لهم شريعة واحدة لتقارب درجاتهم الملحوظة...

وبالجملة: لما كانت العطايا الإلهية لنوع الإنسان من الاستعداد والتهيؤ مختلفة باختلاف الأزمان، وكانت الشريعة والسنة الإلهية الواجب إجراؤها بينهم لتتميم سعادة حياتهم وهي الامتحانات الإلهية، تختلف لا محالة باختلاف مراتب الاستعدادات وتنوّعها، أنتج ذلك لزوم اختلاف الشرائع...

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ لكل أمة جعلنا منكم جعلاً تشريعياً شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لأخذكم أمة واحدة، وشرّع لكم شريعة واحدة، ولكن جعل لكم شرائع مختلفة ليمتحنكم فيما آتاكم من النعم المختلفة، واختلاف النعم كان يستدعي اختلاف الامتحان، الذي هو عنوان التكاليف والأحكام المجعولة، فلا محالة ألقي الاختلاف بين الشرائع.

وهذه الأمم المختلفة هي أمم، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، كما يدل عليه ما يمتن الله به على هذه الأمة بقوله: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾[١]»[٢].

موقع التشريع الإسلامي في مسألة الاختلاف

يقول السيّد العلّامة بعد تبيين أنّ اختلاف الأغراض والأفعال، المنتج من الاختلاف الطبيعي يؤدي إلى اختلال النظام:

---

١ ـ الشورى: ١٣.

٢ ـ تفسير الميزان ٥: ٣٥٢.

«وظهور هذا الاختلاف هو الذي استدعى التشريع، وهو جعل قوانين كلية يوجب العمل بها ارتفاع الاختلاف، ونيل كل ذي حق حقه، وتحميلها الناس» [١].

وفي موضع آخر يقول: **«وقد قرر الإسلام لمجتمعه دستوراً اجتماعياً فوق ذلك، يقيه عن دبيب الاختلاف المؤدي إلى الفساد والانحلال، فقد قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾** [٢]**، فبين أنّ اجتماعهم على اتباع الصراط المستقيم، وتحذرهم عن اتباع سائر السبل، يحفظهم عن التفرق، ويحفظ لهم الاتحاد والاتفاق»** [٣].

ومن أبرز عوامل الاختلاف التي ذكرها العلّامة في تفسيره الكبير:

١ ـ الأهواء النفسية

يبيّن السيّد العلّامة أنّ التبعية للأهواء وبناء التعامل مع الدين على أساس الأهواء من اسباب التفرق؛ لأنّ هوى النفس يختلف باختلاف الأحوال، وإذا كان هو الأساس للدين لم يلبث دون أن يسير بسير الأهواء وينزل بنزولها، ولا فرق في ذلك بين الدين الباطل والدين الحق المبني على أساس الهوى.

ويقول على أساس هذا المبنا في تفسير الآية ٣٢ من سورة الروم: **﴿من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون﴾:**

«"مِن" للتبيين و﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ إلخ، بيان للمشركين، وفيه تعريفهم بأخصّ صفاتهم في دينهم، وهو تفرّقهم في دينهم، وعودهم شيعة شيعة وحزباً حزباً، يفرح ويسر كل شيعة وحزب بما عندهم من الدين، والسبب في ذلك ما ذكره قبيل هذا بقوله: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضلّ الله وما لهم من

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١١٨.

٢ ـ الأنعام: ١٥٣.

٣ ـ تفسير الميزان ٤: ١٢٩.

ناصرين﴾، فبيّن أنهم بنوا دينهم على أساس الأهواء، وأنّه هديهم ولا هادي غيره.

ومن المعلوم أنّ هوى النفس لايتفق في النفوس، بل ولايثبت على حال واحدة، دون أن يختلف باختلاف الأحوال، وإذاكان هو الأساس للدين لم يلبث دون أن يسير بسير الأهواء وينزل بنزولها، ولا فرق في ذلك بين الدين الباطل والدين الحق المبني على أساس الهوى.

ومن هنا يظهر أنّ النهي عن تفرّق الكلمة في الدين، نهي في الحقيقة عن بناء الدين على أساس الهوى دون العقل... وفي الآية ذم للمشركين بما عندهم من صفة التفرق في الكلمة، والتحزب في الدين»[١].

ويؤكّد الأستاذ في تفسير آيات أخر بأنّ طرق الأهواء الشيطانية التي لا ضابطة يضبطها، بخلاف سبيل الله، ولهذا لايمكن وحدة تبعة الشيطان. هذه نقطة يشير إليها الطباطبائي بعد بحث حول المراد من «صراطي» في الآية ١٥٣ من سورة الانعام، وأنّه صراط النبي ﷺ، أو صراط الله: «وكيف كان فهو تعالى في الآية يسمي ما ذكره من كليات الدين، بأنّه صراطه المستقيم الذي لاتخلف في هداية سالكيه وإيصالهم إلى المقصد، ولا اختلاف بين أجزائه ولا بين سالكيه، ما داموا عليه فلايتفرقون البتة، ثمّ ينهاهم عن اتباع سائر السبل، فإنّ من شأنها إلقاء الخلاف والتفرقة؛ لأنها طرق الأهواء الشيطانية التي لا ضابط يضبطها، بخلاف سبيل الله المبني على الفطرة والخلقة، ولاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »[٢].

ويؤكّد أيضاً بأنّ الاختلافات اختراعات الأهواء والهوسات. قال السيّد الأستاذ في قوله تعالى: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا...﴾[٣]:

---

١ ـ تفسير الميزان ١٦: ١٨٢.

٢ ـ المصدر السابق ٧: ٣٧٨.

٣ ـ البقرة: ١٣٥.

«لمّا بيّن تعالى (في آية ١٣٢ من سورة البقرة) أنّ الدين الحق الذي كان عليه أولاد إبراهيم، من إسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده كان هو الإسلام، الذي كان عليه إبراهيم حنيفاً، استنتج من ذلك أنّ الاختلافات والانشعابات التي يدعو إليها فرق المنتحلين من اليهود والنصارى، أمور اخترعتها هوساتهم، ولعبت بها أيديهم؛ لكونهم في شقاق، فتقطعوا بذلك طوائف وأحزاباً دينية، وصبغوا دين الله سبحانه وهو دين التوحيد ودين الوحدة، بصبغة الأهواء والأغراض والمطامع، مع أنّ الدين واحد، كما أنّ الإله المعبود بالدين واحد، وهو دين إبراهيم، وبه فليتمسك المسلمون وليتركوا شقاق أهل الكتاب.

فإنّ من طبيعة هذه الحياة الأرضية الدنيوية، التغير والتحول في عين الجري والاستمرار، كنفس الطبيعة التي هي كالمادة لها، ويوجب ذلك أن تتغير الرسوم والآداب والشعائر القومية بين طوائف الملل وشعباتها، وربما يوجب ذلك تغييرا وانحرافا في المراسم الدينية، وربما يوجب دخول ما ليس من الدين في الدين، أو خروج ما هو منه، والأغراض والغايات الدنيوية ربما تحل محل الأغراض الدينية الإلهية، وهي بلية الدين، وعند ذلك ينصبغ الدين بصبغة القومية، فيدعو إلى هدف دون هدفه الأصلي، ويؤدب الناس غير أدبه الحقيقي، فلايلبث حتى يعود المنكر ـ وهو ما ليس من الدين ـ معروفاً، يتعصّب له الناس لموافقته هوساتهم وشهواتهم، والمعروف منكراً ليس له حام يحميه ولا واق يقيه، الأمر إلى ما نشاهده اليوم.

وبالجملة: فقوله تعالى: ﴿وقالوا كونوا هوداً أونصارى﴾ إجمال تفصيل، معناه: وقالت اليهود كونوا هودا تهتدوا، وقالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا، كل ذلك لتشعبهم وشقاقهم»[1].

---

١ ـ تفسير الميزان ١: ٣١٠.

٢ ـ البغي

قال الطبري: «أصل البغي: التعدي ومجاوزة القدر والحد من كل شيء» [١].

وهذا المعنى أكّد عليه السيّد الطباطبائي بصور مختلفة في مواضع من كتابه، منها: «أصل البغي هو الطلب، ويكثر استعماله في مورد الظلم؛ لكونه طلبا لحق الغير بالتعدي عليه» [٢]. وقال ايضاً في موضع آخر: «البغي هو الطلب ويستعمل كثيرا في الشر، ومنه البغي بمعنى الظلم والبغي بمعنى الزنا» [٣]. وقال أيضاً: «والبغي الأصل في معناه الطلب، وكثر استعماله في طلب حق الغير بالتعدي عليه، فيفيد معنى الاستعلاء والاستكبار على الغير ظلماً وعتواً...» [٤].

ومن المعلوم إذا تعدّى أحد على غيره وأراد غصب حقوقه فلايمكن إتحادهما، وإذا شاعت هذه الرؤية في المجتمع، فبالقطع سوف تذهب الألفة والأخوة والوحدة من المجتمع حينما يبغي أحدهم على الآخر.

والإمام الصادق عليه السلام يقول: «من الذنوب التي تغيّر النعم البغي على الناس...» [٥].

ومن أعظم النعم الأخوة والألفة والاتحاد الاجتماعي، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ [٦]، فالبغي يغيّر نعمة الوحدة الى ما يعاكسها وهو الاختلاف.

---

١ ـ جامع البيان للطبري ١٤: ٢١٣.

٢ ـ تفسير الميزان ١٠: ٣٦ ـ ٣٧.

٣ ـ المصدر السابق ١١: ٢١٥.

٤ ـ المصدر نفسه ٢: ٣٢٣.

٥ ـ الكافي ٢: ٤٤٧ ح ١.

٦ ـ آل عمران: ١٠٣.

وأيضاً عنه عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: أيها الناس إن البغي يقود أصحابه إلى النار»[١].

وقد عبّر الله تبارك وتعالى عن الاختلاف والنزاع بالنار في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾[٢]، فبالنظر في كلام الصادق عليه السلام البغي جعلهم على شفا حفرة من نار الاختلاف والنزاع.

والبحث والتأمل في كلمات السيّد الأستاذ، يوضّح لنا تمام الوضوح سببيّة البغي لوقوع نائرة الاختلاف:

قال السيّد الطباطبائي: **«الاختلاف في الدين مستند إلى البغي دون الفطرة»**[٣]. وقال: **«والاختلاف في الحق والمعارف الإلهية الذي، كان عامله الأصلي بغى حملة الكتاب»**[٤].

وقال قدس سره في تبيين قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾: **«يومي إلى تسجيل البغي على أهل الكتاب، حسب ما نسبه الله تعالى إليهم، وأنهم يبغون باتخاذ الخلاف وإيجاد اختلاف الكلمة في الدين، فإنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب ـ كتاب الله ـ بينهم لم يسلموا له، وتولوا وأعرضوا عنه، وليس ذلك إلّا باغترارهم بقولهم: ﴿لن تمسنا﴾ الخ، وبما افتروه على الله في دينهم»**[٥].

فالبغي الذي سبب الاختلاف هو عدم قبول الدعوة الى التسليم لكتاب الله،

---

١ ـ الكافي ٢: ٣٢٧.

٢ ـ آل عمران: ١٠٣.

٣ ـ تفسير الميزان ٢: ١٢٢.

٤ ـ المصدر السابق: ١٢٩.

٥ ـ المصدر نفسه ٣: ١٢٤.

والتولي والإعراض عنه بالإغترار الوهمي.

وقال الأستاذ في بيان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]:

«وهذه الثلاثة، أعني الفحشاء والمنكز والبغي، وإن كانت متحدة المصاديق غالباً فكل فحشاء منكر، وغالب البغي فحشاء ومنكر، لكنّ النهي إنّما تعلّق بها بما لها من العناوين، لما أنّ وقوع الأعمال بهذه العناوين في مجتمع من المجتمعات، يوجب ظهور الفصل الفاحش بين الأعمال المجتمعة فيه الصادرة من أهله، فينقطع بعضها من بعض ويبطل الالتئام بينها، ويفسد بذلك النظم، وينحلّ المجتمع في الحقيقة، وإن كان على ساقه صورة، وفي ذلك هلاك سعادة الافراد. فالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي أمر بحسب المعنى، باتحاد مجتمع تتعارف اجزاؤه وتتلاءم أعماله، لايستعلي بعضهم على بعض بغياً، ولايشاهد بعضهم من بعض إلّا الجميل الذي يعرفونه، لا فحشاء ولا منكرا، وعند ذلك تستقر عليهم الرحمة والمحبة والألفة، وترتكز فيهم القوة والشدة، وتهجرهم السخطة والعداوة والنفرة، وكل خصلة سيئة تؤدّي إلى التفرق والتهلكة»[2].

وأعظم البغي وأشنعه التعدي على دين الناس وجعله عوجاً، وقد نعلم أنّ الطرقات المعوجة لاينطبق أحد منها على الآخر، وهو لايستطاع إلّا من العلماء وحملة الكتاب.

يقول السيّد العلّامة في بيان سبب وقوع الاختلاف في أمر الدين خلال تفسير ﴿كانَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾[3]:

«الآية تبين السبب في تشريع أصل الدين وتكليف النوع الإنساني به، وسبب وقوع

---

١ ـ النحل: ٩٠.

٢ ـ تفسير الميزان ١٢: ٣٣٣.

٣ ـ البقرة: ٢١٣.

الاختلاف فيه، ببيان: أنّ الإنسان ـ وهو نوع مفطور على الاجتماع والتعاون ـ كان في أول اجتماعه أمة واحدة، ثمّ ظهر فيه بحسب الفطرة الاختلاف في اقتناء المزايا الحيوية، فاستدعى ذلك وضع قوانين ترفع الاختلافات الطارئة، والمشاجرات في لوازم الحياة، فألبست القوانين الموضوعة لباس الدين، وشفعت بالتبشير والإنذار بالثواب والعقاب، وأصلحت بالعبادات المندوبة إليها ببعث النبيين، وإرسال المرسلين.

ثم اختلفوا في معارف الدين أو أمور المبدأ والمعاد، فاختل بذلك أمر الوحدة الدينية، وظهرت الشعوب والأحزاب، وتبع ذلك الاختلاف في غيره، ولم يكن هذا الاختلاف الثاني إلّا بغيا من الذين أوتوا الكتاب، وظلماً وعتواً منهم بعد ما تبين لهم أصوله ومعارفه، وتمت عليهم الحجة، فالاختلاف اختلافان: اختلاف في أمر الدين مستند إلى بغي الباغين دون فطرتهم وغريزتهم، واختلاف في أمر الدنيا وهو فطري وسبب لتشريع الدين، ثمّ هدى الله سبحانه المؤمنين إلى الحق المختلف فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[1].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿... وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ...﴾[2]:

«قد مرّ أنّ المراد به الاختلاف الواقع في نفس الدين من حملته، وحيث كان الدين من الفطرة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾[3]، نسب الله سبحانه الاختلاف الواقع فيه إلى البغي.

وفي قوله تعالى: ﴿إلّا الذين أوتوه﴾، دلالة على أن المراد بالجملة هو الإشارة إلى الأصل في ظهور الاختلاف الديني في الكتاب، لا أنّ كل من انحرف عن الصراط

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١١٢.

٢ ـ البقرة: ٢١٣.

٣ ـ الروم: ٣٠.

المستقيم أو تدين بغير الدين يكون باغياً، وإن كان ضالا عن الصراط السوي، فإنّ الله سبحانه لايعذر الباغي، وقد عذر من اشتبه عليه الأمر ولم يجد حيلة ولم يهتد سبيلاً، قال تعالى: ﴿إنّما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾ [١]، وقال تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ ـ إلى أن قال ـ: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله إمّا يعذبهم وإمّا يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾ [٢]،وقال تعالى: ﴿إلّا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفوعنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾ [٣].

على أنّ الفطرة لاتنافي الغفلة والشبهة، ولكن تنافي التعمّد والبغي، ولذلك خصّ البغي بالعلماء ومن استبانت له الآيات الإلهية، قال تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بأياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقد قيّد الكفر في جميعها بتكذيب آيات الله ثمّ أوقع عليه الوعيد، وبالجملة فالمراد بالآية أنّ هذا الاختلاف ينتهي إلى بغي حملة الكتاب من بعد علم» [٥].

ويبين لنا الأستاذ بأنّ الرسالة أيضا لايتمّ بها رفع الاختلاف؛ لأنها مستندة الى نفوس الناس وبغيهم:

«... أن الرسالة ـ على ما هي عليه من الفضيلة ـ مقام تنمو فيه الخيرات كلما انعطفت إلى جانب منه وجدت فضلاً جديداً، وكلما ملت إلى نحو من أنحائه ألفيت غضاً طرياً، وهذا المقام على ما فيه من البهاء والسناء والإتيان بالآيات البينات، لايتم به

---

١ ـ الشورى: ٤٢.

٢ ـ التوبة: ١٠٦.

٣ ـ النساء: ٩٩.

٤ ـ البقرة: ٣٩.

٥ ـ تفسير الميزان ٢: ١٢٨.

رفع الاختلاف بين الناس بالكفر والإيمان، فإنّ هذا الاختلاف إنّما يستند إلى أنفسهم؛ فهم أنفسهم أوجدوا هذا الاختلاف، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾[١]...

ولوشاء الله لمنع من هذا القتال الواقع بعدهم منعاً تكوينياً، لكنهم اختلفوا فيما بينهم بغيا، وقد أجرى الله في سنة الإيجاد سببية ومسببية بين الأشياء والاختلاف من علل التنازع، ولو شاء الله تعالى لمنع من هذا القتال منعاً تشريعياً، أو لم يأمر به، ولكنه تعالى أمر به، وأراد بأمره البلاء والامتحان؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن الكاذبين.

وبالجملة القتال بين أمم الأنبياء بعدهم لا مناص عنه؛ لمكان الاختلاف عن بغي، والرسالة وبيناتها إنّما تدحض الباطل وتزيل الشبه...»[٢].

وقال الاستاذ العلّامة أيضاً خلال بحثه في تفسير قوله تعالى: ﴿... وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ...﴾[٣]:

«نَسب (الله) الاختلاف إليهم لا إلى نفسه؛ لأنه تعالى ذكر في مواضع من كلامه: أنّ الاختلاف بالإيمان والكفر، وسائر المعارف الأصلية المبينة في كتب الله النازلة على أنبيائه إنّما حدث بين الناس بالبغي، وحاشا أن ينتسب إليه سبحانه بغي أو ظلم...»[٤].

٣ ـ قريحة الاستخدام

الانسان لايزال في صدد استخدام الغير لتحصيل منافعه انحصارا، ولذا يستفيد من قواه في هذا الطريق، ومادام كذلك لايمكن حصول الاتحاد الواقعي.

---

١ ـ آل عمران: ١٩.

٢ ـ تفسير الميزان ٢: ٣١١.

٣ ـ البقرة: ٢٥٣.

٤ ـ تفسير الميزان ٢: ٣١٣.

هذا ما نفهم من كلام السيّد العلّامة، حين يبحث عن سبب حدوث الاختلاف بين أفراد الإنسان:

«... أنّ قريحة الاستخدام في الإنسان، بانضمامها إلى الاختلاف الضروري بين الأفراد من حيث الخلقة ومنطقة الحياة، والعادات والأخلاق المستندة إلى ذلك، وإنتاج ذلك للإختلاف الضروري من حيث القوة والضعف، يؤدي إلى الاختلاف والانحراف عن ما يقتضيه الاجتماع الصالح من العدل الاجتماعي، فيستفيد القوي من الضعيف أكثر مما يفيده، وينتفع الغالب من المغلوب من غير أن ينفعه، ويقابله الضعيف المغلوب ما دام ضعيفا مغلوبا بالحيلة والمكيدة والخدعة، فإذا قوي وغلب، يقابل ظالمه بأشد الانتقام، فكان بروز الاختلاف مؤدياً إلى الهرج والمرج، وداعياً إلى هلاك الإنسانية، وفناء الفطرة، وبطلان السعادة.

وإلى ذلك يشير تعالى بقوله: ﴿وما كان الناس إلّا أمة واحدة فاختلفوا﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿ولايزالون مختلفين إلّا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [2]، وقوله تعالى في الآية المبحوث عنها: ﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ الآية» [3].

٤ ـ مشاقّة الرسولﷺ

يبيّن الأستاذ في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ [4]، بأنّ المخالفة والمشاقة مع رسول الله سبب لتضييع حافظ وحدة سبيل المؤمنين، حيث يقول:

---

١ ـ يونس: ١٩.

٢ ـ هود: ١١٩.

٣ ـ تفسير الميزان ٢: ١١٧.

٤ ـ نساء: ١١٥.

«المشاقة من الشق وهو القطعة المبانة من الشيء، فالمشاقة والشقاق كونك في شق غير شق صاحبك، وهو كناية عن المخالفة، فالمراد بمشاقة الرسول بعد تبيّن الهدى مخالفته وعدم إطاعته، وعلى هذا فقوله: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ بيان آخر لمشاقة الرسول، والمراد بسبيل المؤمنين إطاعة الرسول فإن طاعته طاعة الله، قال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [١].

فسبيل المؤمنين بما هم مجتمعون على الايمان هو الاجتماع على طاعة الله ورسوله ـ وإن شئت فقل على طاعة رسوله ـ فإنّ ذلك هو الحافظ لوحدة سبيلهم كما قال تعالى: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا﴾ [٢]، وقال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ [٣].

وإذا كان سبيله سبيل التقوى، والمؤمنون هم المدعوون إليه، فسبيلهم مجتمعين سبيل التعاون على التقوى، كما قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان﴾ [٤]، والآية ـ كما ترى ـ تنهى عن معصية الله وشق عصا الاجتماع الإسلامي، وهو ما ذكرناه من معنى سبيل المؤمنين» [٥].

٥ ـ اتّباع غير سبيل الله

يقول الأستاذ في بيان الآيات ١٥١ ـ ١٥٧ من سورة الأنعام: «تبيّن الآيات المحرّمات العامة التي لاتختص بشريعة من الشرائع الالهية، وهى الشرك بالله، واتباع

---

١ ـ النساء: ٨٠.

٢ ـ آل عمران: ١٠٣.

٣ ـ الأنعام: ١٥٣.

٤ ـ المائدة: ٢.

٥ ـ تفسير الميزان ٥: ٨٢.

غير سبيل الله المؤدي إلى الاختلاف في الدين...» [١].

٦ ـ فساد النّية وتبدّل سيرة التقوى

إنّ الأمة الإسلامي كانت في أول تكونها وظهورها للناس خير أمة ظهرت، لكونهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعتصمون بحبل الله، متفقين متحدين كنفس واحدة، ويجاهدون في سبيل الله، ويؤثرون على أنفسهم إخوانهم المؤمنين و... وحين يدعون الى المعروف والخير، كان ذلك يحفظهم عن الإنشعاب والتفرق. هو مادام التقوي كان سيرتهم ولكن حين فسد نياتهم وذهب الإخلاص منهم وجعلوا أكبر همّهم الدنيا و...، تفرّقت جموعهم وصاروا مغلوبين. لأنّ مع ذهاب التقوي يتوسع المجال لتحكم الأهواء والأهواء النفسانية مختلفة لا ضابط يضبطها ولا نظام يحكم عليها يجتمع فيه أهلها ولذلك لاتكاد ترى اثنين من أهل الأهواء يتلازمان في طريق أو يتصاحبان إلى غاية.

والنموذج الأبرز لفساد النيّة ما عمل المنافقين في بناء المسجد الضرار ومحاولاتهم لتفرق صفوف المؤمنين الذي أشار اليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢] والنموذج الآخر إقبال عدّة من المسلمين الى الدنيا وتركهم سيرة التقوى في غزوة أحد الذي صار سببا لتفرقهم وتبدّل غلبتهم إلى المغلوبية والهزيمة.

قال السيّد العلّامة في تفسيره عن قوله تعالى: **﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾** [٣]:

---

١ ـ تفسير الميزان ٧: ٣٧٢.

٢ ـ التوبة: ١٠٧.

٣ ـ المجادلة: ٢١.

«... ولم تقف الفتوحات الإسلامية ولاتفرقت جموع المسلمين أيادي سبأ بفساد نياتهم وتبديل سيرة التقوى والإخلاص لله وبسط الدين الحق من بسط السلطة وتوسعة المملكة ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [١]، وقد اشترط الله عليهم ـ حين أكمل دينهم وأمنهم من عدوهم ـ أن يخشوه، إذ قال: ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلاتخشوهم واخشون﴾ [٢].

٧ ـ كتمان العالم علمه عن الناس

يقول السيّد العلّامة في بيان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ﴾ [٣]:

«... أفاد أن كتمانهم إنّما هو بعد البيان والتبين للناس، لا لهم فقط... فالعالم يعد من وسائط البلوغ وأدواته، كاللسان والكلام، فإذا بُيّن الخبر للعالم المأخوذ عليه الميثاق بعلمه مع غيره من المشافهين فقد بُيّن للناس، فكتمان العالم علمه هذا كتمان العلم عن الناس بعد البيان لهم، وهو السبب الوحيد الذي عدّه الله سبحانه سبباً لإختلاف الناس في الدين وتفرقهم في سبل الهداية والضلالة، وقال تعالى: ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلّا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾ [٤]، فأفاد أنّ الاختلاف فيما يشتمل عليه الكتاب إنّما هو ناشٍ عن بغي العلماء الحاملين له، فالاختلافات الدينية والانحراف عن جادة الصواب معلول بغي العلماء بالاخفاء والتأويل والتحريف، وظلمهم، حتى أنّ الله عرف الظلم بذلك يوم القيامة كما قال: ﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل

---

١ ـ الأنفال: ٥٣.

٢ ـ تفسير الميزان ١٩: ١٩٥.

٣ ـ البقرة: ١٥٩.

٤ ـ البقرة: ٢١٣.

الله ويبغونها عوجاً﴾[1]. والآيات في هذا المعنى كثيرة»[2].

٨ ـ إشاعة الشبهات الدينية بين الناس

إنّ الناس مختلفون في استعداداتهم ووسعهم لإدراك العلوم والمعارف، وعامة الناس لايتجاوز فهمهم المحسوس، ولا يرقى عقلهم إلى مافوق عالم المادة والطبيعة، وكان ذلك موجباً لإختلاف الناس في فهم المعاني الخارجة عن الحس المحسوس، اختلافاً شديداً وذا عرض عريض على مراتب مختلفة، وهذا أمر لاينكره أحد.

وعلى هذا لو ذاع شبهة بين الناس لا سيّما إذا دُعوا إليها، يمكن أن يضلّ بعض من الناس الذين توهموه حقاً ويتبعوه، وإذاً تحدث بدعة أو فرقة على أساس شبهة باطلة، ويحدث بها اختلاف جديد بين المسلمين، كما وقع في الماضي.

والسيّد العلّامة لمّا كان حريصاً على وحدة المسلمين، يقول خلال بحثه عن معني قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً...﴾[3]:

«إنّ من الواجب على المسلمين أن يتفكروا في حقائق الدين ويجتهدوا في معارفه، تفكراً واجتهاداً بالاجتماع والمرابطة، وإن حصلت لهم شبهة في شيء من حقائقه ومعارفه، أو لاح لهم ما يخالفها فلا بأس به، وإنّما يجب على صاحب الشبهة أو النظر المخالف أن يعرض ما عنده على كتاب الله، بالتدبر في بحث اجتماعي، فإن لم يداو داءه، عرضه على الرسول أو مَن أقامه مقامه، حتى تنحل شبهته أو يظهر بطلان ما لاح له إن كان باطلاً... والحرية في العقيدة والفكر ـ على النحو الذي بيناه ـ غير الدعوة إلى هذا النظر وإشاعته بين الناس قبل العرض، فإنه مفضٍ إلى الاختلاف المفسد لأساس

---

١ ـ الأعراف: ٤٤.

٢ ـ تفسير الميزان ١: ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

٣ ـ آل عمران: ١٠٢.

المجتمع القويم...»[١].

وقد وجدنا في كلماته ﷺ ما يوضّح لنا هذه المقالة أكثر من ذلك، وذلك ما قاله في تفسير ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[٢]: «وهي لإطلاقها تشمل الاتباع اعتقاداً وعملاً، وتتحصل في مثل قولنا: لاتعتقد ما لا علم لك به، ولاتقل ما لا علم لك به، ولاتفعل ما لا علم لك به؛ لأن في ذلك كله اتباعاً.

وفي ذلك إمضاء لما تقضي به الفطرة الإنسانية، وهو وجوب اتباع العلم، والمنع عن اتباع غيره، فإنّ الإنسان بفطرته الموهوبةريد في مسير حياته ـ باعتقاده أو عمله ـ إلّا أصابة الواقع، والحصول على ما في متن الخارج والمعلوم، هو الذي يصحّ له أن يقول: إنّه هو، وأما المظنون المشكوك والموهوم فلايصحّ فيها إطلاق القول بأنّه هو، فافهم ذلك.

الإنسان بفطرته السليمة يتبع في اعتقاده ما يراه حقاً ويجده واقعاً في الخارج، ويتبع في عمله ما يرى نفسه مصيباً في تشخيصه، وذلك فيما تيسر له أن يحصل العلم به، وأما فيما لايتيسر له العلم ـ به كالفروع الاعتقادية بالنسبة إلى بعض الناس، وغالب الأعمال بالنسبة إلى غالب الناس ـ فإنّ الفطرة السليمة تدفعه إلى اتباع علم مَن له علم بذلك وخبرة، باعتبار علمه وخبرته علماً لنفسه، فيؤول اتباعه في ذلك بالحقيقة اتباعاً لعلمه بأنّ له علما وخبرة، كما يرجع السالك، وهو لايعرف الطريق إلى الدليل، لكن مع علمه بخبرته ومعرفته، ويرجع المريض إلى الطبيب، و مثله أرباب الحوائج إلى مختلف الصناعات المتعلقة بحوائجهم إلى أصحاب تلك الصناعات.

ويتحصل من ذلك أنّه لايتخطّى العلم في مسير حياته، بحسب ما تهدي إليه فطرته،

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ١٢٧.

٢ ـ الإسراء: ٣٦.

غير أنّه يعدّ ما يثق به نفسه ويطمئن إليه قلبه علماً، وإن لم يكن ذاك اليقين الذي يسمّى علماً في صناعة البرهان من المنطق. فله في كل مسألة ترد عليه: إمّا علم بنفس المسألة، وإمّا دليل علمي بوجوب العمل بما يؤديه ويدل عليه...»[١].

والتكملة لهذا البيان ما قاله ﷺ في بيان قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾: «الزيغ هو الميل عن الاستقامة، ويلزمه اضطراب القلب وقلقه... والمراد بابتغاء الفتنة طلب إضلال الناس، فإن الفتنة تقارب الإضلال في المعنى، يقول تعالى: يريدون باتباع المتشابه إضلال الناس في آيات الله سبحانه، وأمراً آخر هو أعظم من ذلك، وهو الحصول والوقوف على تأويل القرآن ومآخذ أحكام الحلال والحرام، حتى يستغنوا عن اتباع محكمات الدين، فينتسخ بذلك دين الله من أصله.

إذا تأملت في هذه وأمثالها، وهي لاتحصى كثرة، وتدبرت في قوله تعالى: ﴿... فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ الآية، لم تشك في صحة ما ذكرناه، وقضيت بأنّ هذه الفتن والمحن التي غادرت الإسلام والمسلمين، لم تستقر قرارها إلّا من طريق اتباع المتشابه، وابتغاء تأويل القرآن.

وهذا ـ والله أعلم ـ هو السبب في تشديد القرآن الكريم في هذا الباب، و إصراره البالغ على النهي عن اتباع المتشابه، وابتغاء الفتنة، والتأويل والإلحاد في آيات الله، والقول فيها بغير علم، واتباع خطوات الشيطان، فإنّ من دأب القرآن أنّه يبالغ في التشديد في موارد سينثلم من جهتها ركن من أركان الدين فتنهدم به بنيته، كالتشديد الواقع في تولي الكفار، ومودة ذوي القربى، وقرار أزواج النبي، ومعاملة الربا، واتحاد الكلمة في الدين وغير ذلك...

---

١ ـ تفسير الميزان ١٣: ٩٢.

إنّه لمّا كانت عامة الناس لايتجاوز فهمهم المحسوس، ولايرقى عقلهم إلى ما فوق عالم المادة والطبيعة، وكان من ارتقى فهمه منهم بالارتياضات العلمية إلى الورود في إدراك المعاني وكليات القواعدالقوانين، يختلف أمره باختلاف الوسائل التي يسرت له الورود في عالم المعاني والكليات، كان ذلك موجباً لإختلاف الناس في فهم المعاني الخارجة عن الحس والمحسوس، اختلافاً شديداً ذا عرض عريض على مراتب مختلفة، وهذا أمر لاينكره أحد...»[1].

٩ ـ موالاة الكافرين

النفاق وموالاة الكفار يفرّق جمع المؤمنين، والاعتصام بكتاب الله وسنّة رسوله يجمعهم، يقول السيّد الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿بشّر المنافقين بأنّ لهم عذاباً أليماً * الّذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين...﴾[2]:

«تهديد للمنافقين، وقد وصفهم بموالاة الكافرين دون المؤمنين، وهذا وصف أعم مصداقاً من المنافقين الذين لم يؤمن قلوبهم، وإنّما يتظاهرون بالإيمان، فإنّ طائفة من المؤمنين لايزالون مبتلين بموالاة الكفار، والانقطاع عن جماعة المؤمنين، والاتصال بهم (الكفار) باطناً، واتخاذ الوليجة منهم حتى في زمن الرسول ﷺ.

وهذا يؤيّد بعض التأييد أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين طائفة من المؤمنين، يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ويؤيده ظاهر قوله في الآية اللاحقة ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب ان إذا سمعتم ـ إلى قوله ـ إنّكم إذا مثلهم﴾، فإنّ ذلك تقرير لتهديد المنافقين، والخطاب فيه للمؤمنين، ويؤيده ايضا ما سيصف تعالى حالهم في نفاقهم بقوله: ﴿ولايذكرون الله الا قليلاً﴾ فأثبت لهم شيئاً من ذكر الله تعالى، وهو بعيد

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ٢٣.

٢ ـ النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩.

الانطباق على المنافقين، الذين لم يؤمنوا بقلوبهم قط» [١].

وهنا سؤال: ما هو السبب لانقطاع المنافقين عن جماعة المؤمنين، وتركهم موالاتهم واتصالهم بالكفار؟

يجيب القرآن على هذا التساؤل بقوله تعالى: **﴿أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾ وقال الطباطبائي: «استفهام انكاري ثمّ جواب بما يقرر الانكار، فإن العزة من فروع الملك، والملك لله وحده، قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾** [٢]**»** [٣]. ولكن هذه الفرقة لايفقهون ذلك.

ثمّ إنّ الأستاذ يوضّح وجه إتيان قوله تعالى: **﴿إنّكم إذا مثلهم﴾** في تفسير الآية: **«تعليل للنهي، أي بما نهيناكم، لانكم إذا قعدتم معهم ـ والحال هذه ـ تكونون مثلهم»** [٤].

أي: أنّ موالاة الكفار توجب المثلية، ففي الواقع ونفس الأمر هؤلاء كفّار وملحقون بجماعتهم وعليهم عواقبها.

وقال ﷺ في موضع آخر: **«اتخاذ الكافرين أولياء هو الامتزاج الروحي بهم، بحيث يؤدي إلى مطاوعتهم والتأثر منهم في الاخلاق، وسائر شؤون الحياة، وتصرفهم في ذلك، ويدل على ذلك تقييد هذا النهي بقوله: ﴿من دون المؤمنين﴾ فإن فيه دلالة على ايثار حبهم على حب المؤمنين، وإلقاء أزمة الحياة إليهم دون المؤمنين، وفيه الركون إليهم والاتصال بهم والانفصال عن المؤمنين... فإنّ الولاية يوجب الاتحاد والامتزاج، وهاتان الصفتان (ولاية الكفار والاتصال بهم والانفصال عن المؤمنين)**

---

١ ـ تفسير الميزان ٥: ١١٥.

٢ ـ آل عمران: ٢٦.

٣ ـ تفسير الميزان ٥: ١١٥.

٤ ـ المصدر السابق.

توجبان التفرق والبينونة، وإذا قويت الولاية كما إذا كان من دون المؤمنين، أوجب ذلك فساد خواصّ الايمان وآثاره ثمّ فساد أصله، ولذلك عقبه بقوله: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله...﴾ »[١].

١٠ ـ زيغ القلب

ربما يقع الاختلاف بين الناس من جهة اختلاف باطنهم، ومواجهتم مع كتاب الله بحسب باطنهم، وهذا هو مبدأ الفساد والفتنة؛ يقول السيّد في بيان قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٢]:

«والمعنى أنّ الناس في الأخذ بالكتاب قسمان: فمنهم من يتبع ما تشابه منه، ومنهم من يقول إذا تشابه عليه شيء منه: آمنا به كل من عند ربنا، وإنّما اختلفا لاختلافهم من جهة زيغ القلب ورسوخ العلم»[٣].

«فإنّك إذا تأملت جريان الأمر في طروق الفساد في شؤون الدين الإسلامي بين هذه الأمة، وأمعنت النظر فيه من أين شرع وفي أين ختم، وجدت أنّ الفتنة ابتدأت من الاجتماعيات، ثمّ توسطت في العباديات، ثمّ انتهت إلى رفض المعارف، وقد ذكرناك فيما مرّ أنّ الفتنة شرعت باتباع المتشابهات وابتغاء تأويلها، ولم يزل الأمر على ذلك حتى اليوم»[٤].

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ١٥١.

٢ ـ آل عمران: ٧.

٣ ـ تفسير الميزان ٣: ٢٧.

٤ ـ المصدر السابق: ٥٩.

١١ ـ اليهود

يقول العلّامة في تفسير الآيات ٩٨ الى ١٠١ من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَبِ... قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَبِ لِمَ تَصدُّونَ عَن سبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونهَا عِوَجاً وأَنتُمْ شهَدَاءُ ومَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ...﴾:

«الآيات ـ كما ترى باتصال السياق ـ تدلّ على أنّ أهل الكتاب فريق منهم وهم اليهود أو فريق من اليهود كانوا يكفرون بآيات الله، ويصدون المؤمنين عن سبيل الله بإرائته إياهم عوجاً غير مستقيم، وتمثيل سبيل الضلال المعوّج المنحرف سبيلاً لله، وذلك بإلقاء شبهات إلى المؤمنين يرون بها الحق باطلاً، والباطل الذي يدعونهم إليه حقاً، والآيات السابقة تدل على ما انحرفوا فيه من إنكار حلية كل الطعام قبل التوراة، وإنكار نسخ استقبال بيت المقدس، فهذه الآيات متممات للآيات السابقة، المتعرضة لحل الطعام قبل التوراة، وكون الكعبة أول بيت وضع للناس، فهي تشتمل على الإنكار والتوبيخ لليهود في إلقائهم الشبهات، وتفتينهم المؤمنين في دينهم، وتحذير للمؤمنين أن يطيعوهم فيما يدعون إليه، فيكفروا بالدين، وترغيب وتحريض لهم أن يعتصموا بالله، فيهتدوا إلى صراط الإيمان وتدوم هدايتهم»[1].

ثمّ يؤيّد بيانه وما استفاده من الآيات بما ورد عن زيد بن أسلم في سبب نزول الآيات: **«وقد ورد عن زيد بن أسلم كما رواه السيوطي في لباب النقول، على ما قيل: أنّ شاش بن قيس وكان يهودياً مرّ على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون، فغاظه ما رأى من تألفهم بعد العداوة، فأمر شاباً معه من اليهود أن يجلس بينهم فيذكرهم يوم بعاث، ففعل، فتنازعوا وتفاخروا حتى وثب رجلان: أوس بن قرظي من الأوس، وجبار ابن صخر من الخزرج فتقاولا وغضب الفريقان، وتواثبوا للقتال فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فجاء حتى وعظهم وأصلح بينهم، فسمعوا وأطاعوا، فأنزل الله في أوس وجبار:**

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٦٣.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب﴾ الآية، وفي شاش بن قيس: ﴿يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله﴾ الآية.

والرواية مختصرة مستخرجة مما رواه في الدر المنثور، عن زيد بن أسلم مفصلاً، وروي ما يقرب منها عن ابن عباس وغيره.

وكيف كان، الآيات أقرب انطباقا على ما ذكرنا منها على الرواية، كما هو ظاهر، على أنّ الآيات يذكر الكفر والإيمان، وشهادة اليهود، وتلاوة آيات الله على المؤمنين، ونحو ذلك، وكل ذلك لما ذكرناه أنسب، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم...﴾ الآية [1]» [2].

١٢ ـ المنافقون

يوجد في المجتمع الإسلامي عناصر ظاهرهم مع المسلمين وباطنهم مع غيرهم وهؤلاء هم المنافقون، وهم بصدد تفريق المؤمنين، هذه الفِرقة المضارّة هم الذين افشا الله نياتهم في قوله: ﴿...وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [3].

قال السيّد الطباطبائي في تفسير الآية: «وقد بين الله غرض هذه الطائفة من المنافقين في اتخاذ هذا المسجد، وهو الضرار بغيرهم، والكفر والتفريق بين المؤمنين، والإرصاد لمن حارب الله ورسوله، والأغراض المذكورة خاصة ترتبط إلى قصة خاصة بعينها، وهي على ما اتفق عليه أهل النقل أنّ جماعة من بني عمرو بن عوف بنوا مسجد قبا، وسألوا النبي أن يصلي فيه، فصلى فيه، فحسدهم جماعة من بني غنم بن عوف وهم منافقون، فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا؛ ليضروا به ويفرقوا المؤمنين منه،

---

١ ـ البقرة: ١٠٩.

٢ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٦٣.

٣ ـ التوبة: ١٠٧.

وينتظروا لأبي عامر الراهب الذي وعدهم أن يأتيهم بجيش من الروم؛ ليخرجوا النبيﷺ من المدينة، وأمرهم أن يستعدوا للقتال معهم.

ولمّا بنوا المسجد أتوا النبيﷺ وهو يتجهّز إلى تبوك، وسألوه أن يأتيه ويصلّي فيه ويدعو لهم بالبركة، فوعدهم إلى الفراغ من أمر تبوك والرجوع إلى المدينة، فنزلت الآيات.

فكان مسجدهم لمضارة مسجد «قبا»، وللكفر بالله ورسوله، ولتفريق المؤمنين المجتمعين في «قبا»، ولإرصاد أبي عامر الراهب المحارب لله ورسوله من قبل، وقد أخبر الله سبحانه عنهم إنهم ليحلفن إن أردنا من بناء هذا المسجد إلّا الفعلة الحسنى، وهو التسهيل للمؤمنين بتكثير معابد يعبد فيها الله، وشهد تعالى بكذبهم بقوله: ﴿وليحلفن إن أردنا إلّا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون﴾»[1].

ويقول في موضع آخر: «والذي يهدينا إليه البحث بالتحليل والتجزية أنّ أصل هذا الاختلاف (المذكور في آيات سورة آل عمران، ١٠٣ ـ ١٠٥وغيرها) ينتهي إلى المنافقين، الذين يغلظ القرآن القول فيهم وعليهم، ويستعظم مكرهم وكيدهم، فإنك لوتدبرت ما يذكره الله تعالى في حقهم في سور البقرة والتوبة والأحزاب والمنافقين وغيرها لرأيت عجباً، وكان هذا حالهم في عهد رسول اللهﷺ ولما ينقطع الوحي، ثمّ لما توفاه الله غاب ذكرهم وسكنت أجراسهم دفعة.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ولم يلبث الناس دون أن وجدوا أنفسهم وقد تفرقوا أيادي سبأ، وباعدت بينهم شتى المذاهب، واستعبدتهم حكومات التحكم والاستبداد، وأبدلوا سعادة الحياة بشقاء الضلال والغي»[2].

---

١ ـ تفسير الميزان ٩: ٣٨٩.

٢ ـ المصدر السابق ٣: ٣٧٤.

ويقول في تفسير ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ و﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[1]: «قوله تعالى: ﴿والله لايحب الفساد﴾، المراد بالفساد ليس ما هو فساد في الكون والوجود (الفساد التكويني)... وانما هو الفساد المتعلق بالتشريع، فإنّ الله إنّما شرع ما شرعه من الدين ليصلح به أعمال عباده، فيصلح اخلاقهم وملكات نفوسهم، فيعتدل بذلك حال الانسانية والجامعة البشرية، وعند ذلك تسعد حياتهم في الدنيا وحياتهم في الآخرة... فهذا الذي يخالف ظاهر قوله باطن قلبه إذا سعى في الارض بالفساد، فإنما يفسد بما ظاهره الاصلاح بتحريف الكلمة عن موضعها، وتغيير حكم الله عما هو عليه، والتصرف في التعاليم الدينية، بما يؤدي إلى فساد الاخلاق واختلاف الكلمة، وفي ذلك موت الدين، وفناء الانسانية، وفساد الدنيا، وقد صدق هذه الآيات ما جرى عليه التاريخ من ولاية رجال وركوبهم اكتاف هذه الامة الإسلامية، وتصرفهم في أمر الدين والدنيا بما لم يستعقب للدين إلّا وبالا، وللمسلمين إلّا انحطاطاً، وللأمة إلّا اختلافا، فلم يلبث الدين حتى صار لعبة لكل لاعب، ولا الانسانية إلّا خطفة لكل خاطف، فنتيجة هذا السعي فساد الارض، وذلك بهلاك الدين أولاً، وهلاك الانسانية ثانياً، ولهذا فسر قوله ويهلك الحرث والنسل في بعض الروايات بهلاك الدين والانسانية»[2].

١٣ ـ المبتدعون

يعتقد السيد الطباطبائي بأنّ المبتدعين ضموا الى الدين ضمائم، نتيجتها الاختلافات بين المتدينين، ولذا قال في تفسير قوله تعالى: ﴿... قل بل ملة إبراهيم

---

١ ـ البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

٢ ـ تفسير الميزان ٢: ٩٦.

حنيفا وما كان من المشركين﴾ [١]:

«(هذا) جواب عن قولهم أي قل: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً، فإنّها الملة الواحدة التي كان عليها جميع أنبيائكم، إبراهيم فمن دونه، وما كان صاحب هذه الملة وهو إبراهيم من المشركين، ولو كان في ملته هذه الانشعابات، وهي الضمائم التي ضمها إليها المبتدعون، من الاختلافات لكان مشركاً بذلك، فإنّ ماليس من دين الله لايدعو إلى الله سبحانه، بل إلى غيره وهو الشرك، فهذا دين التوحيد الذي لايشتمل على ما ليس من عند الله تعالى» [٢].

١٤ ـ تفشّي الربا في المجتمع

قد ذكرنا أسباباً متعددة للإختلاف، وهناك سبب يرتبط بالنظام المالي والإقتصادي، وهو تفسي الربا في المجتمع، وترك الصدقة، والقرض الحسن بين المؤمنين.

قال السيّد الأستاذ علّامة الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّـهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [٣]:

«... من خاصة الصدقات... أنها تنشر الرحمة، وتورث المحبة وحسن التفاهم وتآلف القلوب، وتبسط الأمن والحفظ... وتدعو إلى الاتحاد والمساعدة والمعاونة... كذلك الربا من خاصته أنّه يمحق المال ويفنيه تدريجا، من حيث أنّه ينشر القسوة والخسارة، ويورث البغض والعداوة وسوء الظن، ويفسد الأمن والحفظ، ويهيج النفوس على الانتقام بأي وسيلة أمكنت، من قول أو فعل مباشرة أو تسبيباً، وتدعو إلى التفرق والاختلاف» [٤].

---

١ ـ البقرة: ١٣٥.

٢ ـ تفسير الميزان ١: ٣١٠.

٣ ـ البقرة: ٢٧٦.

٤ ـ تفسير الميزان ٢: ٤١٨ ـ ٤١٩.

سبل منع وإزالة عوامل الاختلاف

ثمة أمور كلّية مهمة يجب ذكرها هنا قبل الخوض في البحث:

١ ـ إلغاء المعارف الدينية وهلاك الانسانية

يرى العلّامة الطباطبائي بأنّ إلغاء المعارف الدينية من التوحيد والأخلاق الفاضلة التى تساهم في رفع الاختلافات الاجتماعية من الإنسان، يتبعها من المفاسد ما فيه بوار هذا النوع، وهلاك الحقيقة الإنسانية. يقول قدست نفسه الزكية: «والطريق المتخذ اليوم لتحميل القوانين المصلحة لإجتماع الإنسان أحد طريقين:

الأول: إلجاء الاجتماع على طاعة القوانين الموضوعة؛ لتشريك الناس في حق الحياة وتسويتهم في الحقوق... مع إلغاء المعارف الدينية من التوحيد والأخلاق الفاضلة، وذلك بجعل التوحيد ملغى غير منظور إليه ولا مرعي، وجعل الأخلاق تابعة للإجتماع وتحوله...

والثاني: إلجاء الاجتماع على طاعة القوانين بتربية ما يناسبها من الأخلاق واحترامها، مع إلغاء المعارف الدينية في التربية الاجتماعية.

وهذان طريقان مسلوكان في رفع الاختلافات الاجتماعية، وتوحيد الأمة المجتمعة من الإنسان... لكنهما على ما يتلوهما من المفاسد مبنيان على أساس الجهل، فيه بوار هذا النوع وهلاك الحقيقة الإنسانية، فإنّ هذا الإنسان موجود مخلوق لله، متعلق الوجود بصانعه، بدأ من عنده وسيعود إليه، فله حياة باقية بعد الارتحال من هذه النشأة الدنيوية،

حياة طويلة الذيل، غير منقطع الأمد، وهي مرتبة على هذه الحياة الدنيوية، وكيفية سلوك الإنسان فيها، واكتسابه الأحوال والملكات المناسبة للتوحيد، الذي هو كونه عبداً لله سبحانه، بادئاً منه عائداً إليه، وإذا بنى الإنسان حياته في هذه الدنيا على نسيان توحيده، وستر حقيقة الأمر فقد أهلك نفسه، وأباد حقيقته»[١].

٢ ـ ضرورة النبوة

يقول السيّد ﷺ: «تأدية الفطرة إلى الاجتماع المدني من جهة، وإلى الاختلاف من جهة أخرى، وعنايته تعالى بالهداية إلى تمام الخلقة، مبدأ حجة على وجود النبوة، وبعبارة أخرى دليل النبوة العامة.

تقريره: إنّ نوع الإنسان مستخدم بالطبع، وهذا الاستخدام الفطري يؤديه إلى الاجتماع المدني، وإلى الاختلاف والفساد في جميع شؤون حياته، الذي يقضي التكوين والإيجاد برفعه، ولايرتفع إلّا بقوانين تصلح الحياة الاجتماعية برفع الاختلاف عنها، وهداية الإنسان إلى كماله وسعادته بأحد أمرين: إما بفطرته، وإمّا بأمر وراءه، لكن الفطرة غير كافية، فإنها هي المؤدية إلى الاختلاف فكيف ترفعها؟ فوجب أن يكون بهداية من غير طريق الفطرة والطبيعة، وهو التفهيم الإلهي غير الطبيعي المسمى بالنبوة والوحي، وهذه الحجة مؤلفة من مقدمات مصرح بها في كتاب الله تعالى، كما عرفت فيما تقدم، وكل واحدة من هذه المقدمات تجربية، بينتها التجربة للإنسان في تاريخ حياته، واجتماعاته المتنوعة التي ظهرت وانقرضت في طي القرون المتراكمة الماضية، إلى أقدم أعصار الحياة الإنسانية التي يذكرها التاريخ.

فلا الإنسان انصرف في حين من أحيان حياته عن حكم الاستخدام، ولا استخدامه لم يؤد إلى الاجتماع وقضى بحياة فردية، ولا اجتماعه المكون خلا عن الاختلاف، ولا الاختلاف ارتفع بغير قوانين اجتماعية، ولا أنّ فطرته وعقله الذي يعده عقلاً سليما

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١١٩.

قدرت على وضع قوانين، تقطع منابت الاختلاف وتقلع مادة الفساد، وناهيك في ذلك ما تشاهده من جريان الحوادث الاجتماعية، وما هونصب عينيك من انحطاط الأخلاق، وفساد عالم الإنسانية، والحروب المهلكة للحرث والنسل، والمقاتل المبيدة للملايين بعد الملايين من الناس، وسلطان التحكّم ونفوذ الاستعباد في نفوس البشر وأعراضهم وأموالهم، في هذا القرن الذي يسمى عصر المدنية والرقي والثقافة والعلم، فما ظنك بالقرون الخالية، أعصار الجهل والظلمة؟

وأمّا أنّ الصنع والإيجاد يسوق كل موجود إلى كماله اللائق به، فأمر جار في كل موجود بحسب التجربة والبحث، وكذاكون الخلقة والتكوين إذا اقتضى أثراً لم يقتض خلافه بعينه، أمر مسلم تثبته التجربة والبحث، وأما أنّ التعليم والتربية الدينيين الصادرين من مصدر النبوة والوحي، يقدران على دفع هذا الاختلاف والفساد، فأمر يصدقه البحث والتجربة معاً.

أما البحث: فلأنّ الدين يدعو إلى حقائق المعارف، وفواضل الأخلاق، ومحاسن الأفعال، فصلاح العالم الإنساني مفروض فيه.

وأما التجربة: فالإسلام أثبت ذلك في اليسير من الزمان، الذي كان الحاكم فيه على الاجتماع بين المسلمين هو الدين،وأثبت ذلك بتربية أفراد من الإنسان صلحت نفوسهم، وأصلحوا نفوس غيرهم من الناس، على أن جهات الكمال والعروق النابضة في هيكل الاجتماع المدني اليوم، التي تضمن حياة الحضارة والرقي،مرهونة التقدم الإسلامي وسريانه في العالم الدنيوي، على ما يعطيه التجزية والتحليل من غير شك...»[1].

٣ ـ مجتمع التوحيد وعوامل الاختلاف

قال الطباطبائي في بيان قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾[2]:

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١٣١.

٢ ـ البقرة: ٢١٣.

«إنّ الذي كانت تندب إليه جماعة الأنبياء عليهم السلام، أن يسير النوع الإنساني فرادى ومجتمعين على ما تنطق به فطرتهم من كلمة التوحيد، التي تقضي بوجوب تطبيق الأعمال الفردية والاجتماعية على الإسلام لله، وبسط القسط والعدل، أعني بسط التساوي في حقوق الحياة، والحرية في الإرادة الصالحة والعمل الصالح.

ولايتأتى ذلك إلّا بقطع منابت الاختلاف، والبغي بغير الحق، واستخدام القوي واستعباده للضعيف وتحكمه عليه، وتعبد الضعيف للقوي، فلا إله إلّا الله، ولا رب إلّا الله، ولا حكم إلّا لله سبحانه.

وهذا هو الذي تدل عليه الآية: ﴿ألا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله﴾ الآية، وقال تعالى فيما يحكيه عن يوسف عليه السلام: ﴿يا صاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلّا لله أمر ألا تعبدوا إلّا إياه ذلك الدين القيم﴾[١]، وقال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلّا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلّا هو﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وفيما حكاه القرآن عن الأنبياء السالفين، كنوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى وعيسى عليهم السلام، مما كلموا به أممهم شيء كثير من هذا القبيل، كقول نوح: ﴿ربّ إنّهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلّا خسارا﴾[٣]، وقول هود لقومه: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾[٤]، وقول صالح لقومه: ﴿ولاتطيعوا أمر المسرفين﴾[٥]، وقول إبراهيم لأبيه

---

١ ـ يوسف: ٤٠.

٢ ـ التوبة: ٣١.

٣ ـ نوح: ٢١.

٤ ـ الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠.

٥ ـ الشعراء: ١٥١.

وقومه: ﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ [١]، وقوله تعالى لموسى وأخيه: ﴿اذهبا إلى فرعون إنّه طغى ـ إلى أن قال ـ: فأتياه فقولا إنّا رسولاً ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولاتعذبهم﴾ [٢]، وقول عيسى لقومه: ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون﴾ [٣].

فالدين الفطري هو الذي ينفي البغي والفساد، وهذه المظالم والسلطات بغير الحق، الهادمة لأساس السعادة والمخربة لبنيان الحق والحقيقة...» [٤].

وأمّا سبل منع عوامل الاختلاف، فهي:

١ ـ الالتفاف حول النبوّة والدين الإلهي

قال السيّد في بيان قوله تعالى: ﴿... فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق...﴾ [٥]:

«بيان لما اختلف فيه، وهو الحق الذي كان الكتاب نزل بمصاحبته، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق﴾، وعند ذلك عنى الهداية الإلهية بشأن الاختلافين معا: الاختلاف في شأن الحياة، والاختلاف في الحق والمعارف الإلهية، الذي كان عامله الأصلي بغي حملة الكتاب... وقد تبين من الآية (٢١٣ من سورة البقرة):

أولاً: حد الدين ومعرفه، وهو أنّه نحو سلوك في الحياة الدنيا، يتضمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي، والحياة الدائمة الحقيقية عند الله سبحانه، فلابدّ في الشريعة

---

١ ـ الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٤.

٢ ـ طه: ٤٣ ـ ٤٧.

٣ ـ الزخرف: ٦٣.

٤ ـ تفسير الميزان ٣: ٢٤٨.

٥ ـ البقرة: ٢١٣.

من قوانين تتعرض لحال المعاش على قدر الاحتياج.

وثانياً: أنّ الدين أول ما ظهر، ظهر رافعا للإختلاف الناشيء عن الفطرة، ثمّ استكمل رافعاً للإختلاف الفطري وغير الفطري معاً...».

وبعد كلمات يقول: «السبب في بعث الأنبياء وإنزال الكتب، وبعبارة أخرى العلة في الدعوة الدينية، وهو أنّ الإنسان بحسب طبعه وفطرته سائر نحو الاختلاف، كما أنّه سالك نحو الاجتماع المدني، وإذا كانت الفطرة هي الهادية إلى الاختلاف لم تتمكن من رفع الاختلاف، وكيف يدفع شيء ما يجذبه إليه نفسه، فرفع الله سبحانه هذا الاختلاف بالنبوة والتشريع، بهداية النوع إلى كماله اللائق بحالهم المصلح لشأنهم، وهذا الكمال كمال حقيقي داخل في الصنع والإيجاد، فما هو مقدمته كذلك، وقد قال تعالى: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثمّ هدى﴾ [١].

فبين أنّ من شأنه وأمره تعالى أن يهدي كل شيء إلى ما يتم به خلقه، ومن تمام خلقه الإنسان أن يهتدي إلى كمال وجوده في الدنيا والآخرة، وقد قال تعالى أيضاً: ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربّك محظوراً﴾ [٢]، وهذه الآية تفيد أنّ شأنه تعالى هو الإمداد بالعطاء يمدّ كل من يحتاج إلى إمداده في طريق حياته ووجوده، ويعطيه ما يستحقه، وأنّ عطاءه غير محظور ولا ممنوع من قبله تعالى، إلّا أنْ يمتنع ممتنع بسوء حظ نفسه، من قبل نفسه لا من قبله تعالى.

ومن المعلوم أنّ الإنسان غير متمكن من تتميم هذه النقيصة من قبل نفسه، فإن فطرته هي المؤدية إلى هذه النقيصة، فكيف يقدر على تتميمها وتسوية طريق السعادة والكمال في حياته الاجتماعية؟

وإذا كانت الطبيعة الإنسانية هي المؤدية إلى هذا الاختلاف، العائق للإنسان عن

---

١ ـ طه: ٥٠.

٢ ـ الإسراء: ٢٠.

الوصول إلى كماله الحري به، وهي قاصرة عن تدارك ما أدت إليه وإصلاح ما أفسدته، فالإصلاح لوكان يجب أن يكون من جهة غير جهة الطبيعة، وهي الجهة الإلهية التي هي النبوة بالوحي، ولذا عبّر تعالى عن قيام الأنبياء بهذا الإصلاح ورفع الاختلاف بالبعث، ولم ينسبه في القرآن كله إلّا إلى نفسه، مع أنّ قيام الأنبياء كسائر الأمور له ارتباطات بالمادة بالروابط الزمانية والمكانية.

فالنبوة حالة إلهية وإن شئت قل غيبية، نسبتها إلى هذه الحالة العمومية من الإدراك والفعل، نسبة اليقظة إلى النوم، بها يدرك الإنسان المعارف التي بها يرتفع الاختلاف والتناقض في حياة الإنسان، وهذا الإدراك والتلقي من الغيب هو المسمى في لسان القرآن بالوحي، والحالة التي يتخذها الإنسان منه لنفسه بالنبوة» [1].

وفي تكملة تفسير الآية ٢١٣ من سورة البقرة يأتي بعنوان "بحث فلسفي" ويُثبت فيه: لولا بعث الأنبياء لبقي الإنسان في قوته الشهويّة والغضبيّة، المؤديّة الى الاختلاف، ويبذل الطباطبائي جهده العلمي الفلسفي لإثبات، أنّ انسياق الاجتماع الإنساني إلى التمدن والاختلاف، وأنّ هذا الاختلاف القاطع لطريق سعادة النوع لايرتفع ولن يرتفع بما يضعه العقل الفكري من القوانين المقررة؛ وأنّ رافع هذا الاختلاف إنّما هو الشعور النبوي، الذي يُوجده الله سبحانه في بعض آحاد الإنسان لا غير، يقول السيّد العلّامة بهذا الصدد:

«... العقل (العملي) بعينه هو الداعي إلى الاختلاف، وإذا كان هذا شأنه لم يقدر من حيث هو كذلك على رفع الاختلاف، واحتاج فيه إلى متمم يتمم أمره، وقد عرفت أنّه يجب أن يكون هذا المتمم نوعاً خاصاً من الشعور، يختص به بحسب الفعلية بعض الآحاد من الإنسان، وتهتدي به الفطرة إلى سعادة الإنسان الحقيقية في معاشه ومعاده.

ومن هنا يظهر أنّ هذا الشعور من غير سنخ الشعور الفكري، بمعنى أنّ ما يجده

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١٢٩.

الإنسان من النتائج الفكرية من طريق مقدماتها العقلية، غير ما يجده من طريق الشعور النبوي، والطريق غير الطريق.

ولايشك الباحثون في خواص النفس، في أنّ في الإنسان شعوراً نفسياً باطنياً، ربما يظهر في بعض الآحاد من أفراده، يفتح له باباً إلى عالم وراء هذا العالم، ويعطيه عجائب من المعارف والمعلومات، وراء ما يناله العقل والفكر، صرح به جميع علماء النفس من قدمائنا، وجمع من علماء النفس من أوروبا، مثل جمز الإنجليزي وغيره.

فقد تحصّل أنّ باب الوحي النبوي غير باب الفكر العقلي، وأنّ النبوة وكذا الشريعة والدين والكتاب والملك والشيطان، لاينطبق عليها ما اختلقوه من المعاني...

وقد تبين بما ذكرنا أنّ الأمر الذي يرفع فساد الاختلاف عن الاجتماع الإنساني، وهو الشعور الباطني الذي يدرك صلاح الاجتماع ـ أعني القوة التي يمتاز بها النبي من غيره ـ أمر وراء الشعور الفكري، الذي يشترك فيه جميع أفراد الإنسان...

فإن قلت: هب أنّ هذا الاختلاف ارتفع بهذا الشعور الباطني المسمّى بوحي النبوة، وأثبتها النبي بالإعجاز، وكان على الناس أن يأخذوا بآثاره، وهو الدين المشرّع الذي جاء به النبي، لكن ما المؤمّن عن الغلط؟ وما الذي يصون النبي عن الوقوع في الخطأ في تشريعه، وهو إنسان طبعه طبع سائر الأفراد في جواز الوقوع في الخطأ.

ومن المعلوم أنّ وقوع الخطأ في هذه المرحلة ـ أعني مرحلة الدين ـ ورفع الاختلاف عن الاجتماع، يعادل نفس الاختلاف الاجتماعي في سد طريق استكمال النوع الإنساني، وإضلاله هذا النوع في سيره إلى سعادته، فيعود المحذور من رأس!

قلت: الأبحاث السابقة تكفي مؤونة حل هذه العقدة، فإنّ الذي ساق هذا النوع نحو هذه الفعلية أعني الأمر الروحي الذي يرفع الاختلاف، إنّما هو الناموس التكويني، الذي هو الإيصال التكويني لكل نوع من الأنواع الوجودية إلى كماله الوجودي وسعادته الحقيقية، فإنّ السبب الذي أوجب وجود الإنسان في الخارج، وجوداً حقيقياً كسائر الأنواع الخارجية، هو الذي يهديه هداية تكوينية خارجية إلى سعادته، ومن المعلوم أنّ

الأمور الخارجية من حيث إنها خارجية لاتعرضها الخطأ والغلط، أعني الوجود الخارجي لايوجد فيه الخطأ والغلط؛ لوضوح أنّ ما في الخارج هو ما في الخارج! وإنّما يعرض الخطأ والغلط في العلوم التصديقية، والأمور الفكرية من جهة تطبيقها على الخارج، فإنّ الصدق والكذب من خواص القضايا، تعرضها من حيث مطابقتها للخارج وعدمها، وإذا فرض أنّ الذي يهدي هذا النوع إلى سعادته ورفع اختلافه العارض على اجتماعه، هو الإيجاد والتكوين، لزم أنعرضه غلط ولا خطأ في هدايته، ولا في وسيلة هدايته التي هي روح النبوة وشعور الوحي، فلا التكوين يغلط في وضعه هذا الروح والشعور في وجود النبي، ولا هذا الشعور الذي وضعه يغلط في تشخيصه مصالح النوع عن مفاسده، وسعادته عن شقائه، ولوفرضنا له غلطاً وخطأ في أمره، وجب أن يتداركه بأمر آخر مصون عن الغلط والخطأ، فمن الواجب أن يقف أمر التكوين على صواب لا خطأ فيه ولا غلط ...

فقد تبيّن مما مرّ أمور:

أحدها: انسياق الاجتماع الإنساني إلى التمدن والاختلاف.

ثانيها: أنّ هذا الاختلاف القاطع لطريق سعادة النوع، لايرتفع ولن يرتفع بما يضعه العقل الفكري من القوانين المقررة.

ثالثها: أن رافع هذا الاختلاف إنّما هو الشعور النبوي، الذي يوجده الله سبحانه في بعض آحاد الإنسان لا غير...»[1].

ويقول في موضع آخر: «والقرآن الكريم يخبر أنّ أول ما نبه الإنسان بالاجتماع تفصيلاً واعتنى بحفظه استقلالاً، نبهته به النبوة، قال تعالى: ﴿وما كان الناس إلّا أمة واحدة فاختلفوا﴾[2]، وقال: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١٥٣.

٢ ـ يونس: ١٩.

وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ [١]، حيث ينبئ أنّ الإنسان في أقدم عهوده، كان أمة واحدة ساذجة لا اختلاف بينهم، حتى ظهرت الاختلافات وبانت المشاجرات، فبعث الله الأنبياء وأنزل معهم الكتاب ليرفع به الاختلاف، ويردهم إلى وحدة الاجتماع محفوظة بالقوانين المشرعة.

وقال تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه﴾ [٢]، فأنبأ أنّ رفع الاختلاف من بين الناس وإيجاد الاتحاد في كلمتهم إنّما كان في صورة الدعوة إلى إقامة الدين وعدم التفرق فيه، فالدين كان يضمن اجتماعهم الصالح.

والآية ـ كما ترى ـ تحكي هذه الدعوة، دعوة الاجتماع والاتحاد عن نوح عليه السلام وهو أقدم الأنبياء أولي الشريعة والكتاب، ثمّ عن إبراهيم، ثمّ عن موسى ثمّ عيسى عليهما السلام وقد كان في شريعة نوح وإبراهيم النزر اليسير من الأحكام، وأوسع هؤلاء الأربعة شريعة موسى، وتتبعه شريعة عيسى، على ما يخبر به القرآن وهو ظاهر الأناجيل، وليس في شريعة موسى ـ على ما قيل ـ إلّا ستمائة حكم تقريباً. فلم تبدأ الدعوة إلى الاجتماع دعوة مستقلة صريحة، إلّا من ناحية النبوة في قالب الدين، كما يصرح به القرآن، والتأريخ يصدقه على ما سيجيء» [٣].

٢ ـ التدبّر الجماعي في آيات القرآن

يقول السيّد العلّامة: «قال (الله تعالى): ﴿يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلّا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا...﴾ [٤]،... إنّ المراد

---

١ ـ البقرة: ٢١٣.

٢ ـ الشورى: ١٣.

٣ ـ تفسير الميزان ٤: ٩٣.

٤ ـ آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣.

بحبل الله هو القرآن المبيّن لحقائق معارف الدين، أو هو والرسول ﷺ على ما يظهر من قوله تعالى قبله: ﴿يا أيها الذين ءامنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم ءايات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾[1].

تدل الآيات على لزوم أن يجتمعوا على معارف الدين، ويرابطوا أفكارهم ويمتزجوا في التعليم والتعلم، فيستريحوا في كل حادث فكري أو شبهة ملقاة إلى الآيات المتلوة عليهم، والتدبر فيها لحسم مادة الاختلاف، وقد قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرءان ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[2]، وقال: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون﴾[3]، وقال: ﴿فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾[4]، فأفاد أنّ التدبر في القرآن أو الرجوع إلى من يتدبر فيه يرفع الاختلاف من البين...

ويرجع محصله إلى أنّ من الواجب على المسلمين أن يتفكروا في حقائق الدين، ويجتهدوا في معارفه، تفكراً واجتهاداً بالاجتماع والمرابطة، وإن حصلت لهم شبهة في شيء من حقائقه ومعارفه، أو لاح لهم ما يخالفها فلا بأس به، وإنّما يجب على صاحب الشبهة أو النظر المخالف أن يعرض ما عنده على كتاب الله، بالتدبر في بحث اجتماعي، فإن لم يداوِ داءه عرضه على الرسول أو من أقامه مقامه، حتى تنحل شبهته أو يظهر بطلان ما لاح له إن كان باطلاً، قال تعالى: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾[5].

---

١ ـ آل عمران: ١٠١.

٢ ـ النساء: ٨٢.

٣ ـ العنكبوت: ٤٣.

٤ ـ النحل: ٤٣.

٥ ـ الزمر: ١٨.

والحرية في العقيدة والفكر ـ على النحو الذي بيناه ـ غير الدعوة إلى هذا النظر، وإشاعته بين الناس قبل العرض، فإنه مفضٍ إلى الاختلاف المفسد لأساس المجتمع القويم...»[١].

٣ ـ الرجوع الى الله والرسول في الخصومات

يقول العلّامة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَاَأَيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّـهَ وأَطِـيعُوا الرَّسولَ وأُولى الأَمْرِ مِنكمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شىْءٍ فَـرُدُّوهُ إِلى اللَّـهِ والرَّسـولِ إِن كُـنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِك خَيرٌ وأَحْسنُ تَأْوِيلاً﴾[٢]:

«ولا ينبغي أن يرتاب في أنّ قوله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾، جملة سيقت تمهيداً وتوطئة، للأمر بردّ الأمر إلى الله ورسوله عند ظهور التنازع، وإن كان مضمون الجملة أساس جميع الشرائع والأحكام الإلهية...».

وللعلّامة قبل هذا الكلام جملة يبيّن فيها المقصد من الآية وهي: أنّ هذا الرجوع «... يتفرّع عليه فروع أخر، بها يستحكم أساس المجتمع الإسلامي، وهو التحضيض والترغيب في أخذهم بالائتلاف والاتفاق، ورفع كل تنازع واقع بالرّد إلى الله ورسوله».

وهنا سؤال: هل الرجوع الى الله والرسول يفيد هذا الأثر فقط، فإذا كان كذلك، فبعد رسول الله إلى مَن نرجع لرفع التنازع وحفظ الوحدة؟

يجيب الأستاذ الطباطبائي: «وأمّا أولوا الأمر فهم ـ كائنين من كانوا ـ لا نصيب لهم من الوحي، وإنّما شأنهم الرأي الذي يستصوبونه، فلهم إفتراض الطاعة نظير ما للرسول في رأيهم وقولهم، ولذلك لما ذكر وجوب الرد والتسليم عند المشاجرة لم يذكرهم، بل خص الله والرسول فقال: ﴿فإن تنازعتم في شيء فـردوه إلى الله والرســول إن كـنتم

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ١٢٧.

٢ ـ النساء: ٥٩.

تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾... والكتاب والسنّة حجتان قاطعتان في الأمر لمن يسعه فهم الحكم منهما، وقول أولي الأمر في أنّ الكتاب والسنّة يحكمان بكذا أيضا حجة قاطعة، فإن الآية تقرر افتراض الطاعة من غير أي قيد أو شرط، والجميع راجع بالآخرة إلى الكتاب والسنة...

وبالجملة لما لم يكن لأولي الأمر هؤلاء خيرة في الشرائع، ولا عندهم إلّا ما لله ورسوله من الحكم أعني الكتاب والسنة، لم يذكرهم الله سبحانه ثانيا عند ذكر الرد بقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾، فلله تعالى إطاعة واحدة، وللرسول وأولي الأمر إطاعة واحدة، ولذلك قال: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم»[1].

ولتتميم الكلام يقول في معنى قوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾: «تفريع على الحصر المستفاد من المورد، فإنّ قوله: ﴿أطيعوا الله﴾ الآية حيث أوجب طاعة الله ورسوله، وهذه الطاعة إنّما هي في المواد الدينية، التي تتكفل رفع كل اختلاف مفروض، وكل حاجة ممكنة، لم يبق مورد تمس الحاجة الرجوع إلى غير الله ورسوله...»[2].

يعني: أنّ الرسول وأولو الأمر متكفلّون لرفع كلّ اختلاف وتنازع، ولكن مع هذا نرى بعض الناس يردّون أمرهم إلى الطاغوت، وفيه مزيد الأسف.

يقول الطباطبائي في هذا المجال في بيان قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾[3]:

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ٣٨٧.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ النساء: ٦٠.

«وقوله: ﴿ألم تر﴾ الآية الكلام بمنزلة دفع الدخل، كأنّه قيل ما وجه ذكر قوله ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ الآية؟ فقيل: ألم تر إلى تخلفهم من الطاعة، حيث يريدون التحاكم إلى الطاغوت؟ والاستفهام للتأسف، والمعنى من الأسف ما رأيته أنّ بعض الناس ـ وهم معتقدون أنهم مؤمنون بما أنزل إليك من الكتاب، وإلى سائر الانبياء والكتب السماوية، إنّما انزلت لتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وقد بينه الله تعالى لهم بقوله: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ [١] ـ يتحاكمون عند التنازع إلى الطاغوت...» [٢].

ويقول في موضع آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلّا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا...﴾ [٣]: «... أنّ المراد بحبل الله هو القرآن المبيّن لحقائق معارف الدين، أو هو والرسولﷺ على ما يظهر من قوله تعالى قبله: ﴿يا أيها الذين ءامنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم ءايات الله وفيكم رسوله...﴾ [٤].

تدلّ الآيات على لزوم أن يجتمعوا على معارف الدين، ويرابطوا أفكارهم ويمتزجوا في التعليم والتعلم، فيستريحوا في كل حادث فكري أو شبهة ملقاة إلى الآيات المتلوة عليهم، والتدبر فيها لحسم مادة الاختلاف... فإن لم يداو داءه عرضه على الرسول أو مَن أقامه مقامه، حتى تنحل شبهته، أو يظهر بطلان ما لاح له إن كان باطلا... وتدلّ على أنّ

---

١ ـ البقرة: ٢١٣.

٢ ـ تفسير الميزان ٤: ٤٠٣.

٣ ـ آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣.

٤ ـ آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠١.

الإرجاع إلى الرسول ـ وهو الحامل لثقل الدين ـ يرفع من بينهم الاختلاف ويبين لهم الحق، الذي يجب عليهم أن يتبعوه...»[١].

٤ ـ التديّن

ولمّا لم يمكن اتحاد البشر ـ مع إلغاء المعارف الدينية ـ في وضع القوانين والتربية الاجتماعية، يقول السيّد العلّامة:

«ولذلك شرع الله سبحانه ما شرعه من الشرائع والقوانين، واضعاً ذلك على أساس التوحيد، والاعتقاد والأخلاق والأفعال، وبعبارة أخرى: وضع التشريع مبني على أساس تعليم الناس، وتعريفهم ما هو حقيقة أمرهم من مبدئهم إلى معادهم، وأنهم يجب أن يسلكوا في هذه الدنيا حياة تنفعهم في غد، ويعملوا في العاجل ما يعيشون به في الآجل، فالتشريع الديني والتقنين الإلهي هو الذي بني على العلم فقط دون غيره، قال تعالى: ﴿إنّ الحكم إلّا لله أمر ألا تعبدوا إلّا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس علمون﴾[٢]، وقال تعالى في هذه الآية المبحوث عنها: ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ الآية، فقارن بعثة الأنبياء بالتبشير والإنذار بإنزال الكتاب، المشتمل على الأحكام والشرائع الرافعة لإختلافهم.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وقالوا ما هي إلّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلّا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلّا يظنون﴾[٣]، فإنهم إنّما كانوا يصرون على قولهم ذلك، لا لدفع القول بالمعاد فحسب، بل لأن القول بالمعاد والدعوة إليه، كان يستتبع تطبيق الحياة الدنيوية على الحياة بنحو العبودية، وطاعة قوانين دينية مشتملة

---

١ ـ تفسير الميزان ٤: ١٢٧.

٢ ـ يوسف: ٤٠.

٣ ـ الجاثية: ٢٤.

على مواد وأحكام تشريعية، من العبادات والمعاملات والسياسات.

وبالجملة: القول بالمعاد كان يستلزم التدين بالدين، واتباع أحكامه في الحياة، ومراقبة البعث والمعاد في جميع الأحوال والأعمال، فردوا ذلك ببناء الحياة الاجتماعية على مجرد الحياة الدنيا، من غير نظر إلى ما ورائها.

وكذا قوله تعالى: ﴿إنّ الظنّ لايغني من الحق شيئاً * فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم﴾ [١]، فبين تعالى أنهم يبنون الحياة على الظن والجهل، والله سبحانه يدعو إلى دار السلام، ويبني دينه على الحق والعلم، والرسول يدعو الناس إلى ما يحييهم، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ [٢]، وهذه الحياة هي التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ [٣]، وقال تعالى: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنّما يتذكر أولوا الألباب﴾ [٤]، وقال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ [٥]، وقال تعالى: ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكر أولوا الألباب﴾ [٦]، وقال تعالى: ﴿يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾ [٧]، إلى غير ذلك، والقرآن مشحون بمدح العلم والدعوة إليه والحث به، وناهيك فيه أنّه يسمي العهد السابق على ظهور الإسلام عهد الجاهلية، كما قيل.

---

١ ـ النجم: ٢٨ ـ ٣٠.

٢ ـ الأنفال: ٢٤.

٣ ـ الأنعام: ١٢٢.

٤ ـ الرعد: ١٩.

٥ ـ يوسف: ١٠٨.

٦ ـ الزمر: ٩.

٧ ـ البقرة: ١٢٩.

فما أبعد من الإنصاف قول مَن يقول: إنّ الدين مبني على التقليد والجهل، مضاد للعلم ومباهت له، وهؤلاء القائلون أناس اشتغلوا بالعلوم الطبيعية والاجتماعية، فلم يجدوا فيها ما يثبت شيئا مما وراء الطبيعة، فظنوا عدم الإثبات إثباتاً للعدم، وقد أخطأوا في ظنهم، وخبطوا في حكمهم، ثمّ نظروا إلى ما في أيدي أمثالهم من الناس المتهوسين، من أمور يسمونه باسم الدين، ولا حقيقة لها غير الشرك، والله بريء من المشركين ورسوله، ثمّ نظروا إلى الدعوة الدينية بالتعبد والطاعة فحسبوها تقليدا، وقد أخطأوا في حسبانهم، والدين أجلّ شأناً من أن يدعو إلى الجهل والتقليد، وأمنع جانباً من أن يهدي إلى عمل لا علم معه، أو يرشد إلى قول بغير هدى ولاكتاب منير، ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أوكذب بالحق لما جاءه﴾...

وبالجملة: فهو تعالى يخبرنا أنّ الاختلاف في المعاش وأمور الحياة ـ إنّما رفع أول ما رفع ـ بالدين، فلوكانت هناك قوانين غير دينية فهي مأخوذة بالتقليد من الدين»[1].

٥ ـ اتّباع الإسلام

يقول السيّد عند قوله تعالى: ﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾:

«(إنّ هذا) استشهاد، بأنّهم ـ وهم النبي ﷺ ومَن اتّبعه ـ على الدين المرضي عند الله تعالى وهو الإسلام، قال: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾[2]، فينقطع بذلك خصامهم وحجاجهم إذ لا حجة على الحق وأهله»[3].

٦ ـ التشريع الالهي

قال السيّد في بيان قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هو الْوَلِيُّ وهو يُحْيِ الْمَوْتَى وهو عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * ومَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١٢٠.

٢ ـ آل عمران: ١٩.

٣ ـ تفسير الميزان ٣: ٢٥٠.

اللَّهُ رَبِي عَلَيْهِ تَوَكلْت وإِلَيْهِ أُنِيبِ﴾[1]:

«حكم الحاكم بين المختلفين، هو أحكامه وتثبيته الحق المضطرب بينهما، بسبب تخالفهما بالإثبات والنفي، والاختلاف ربما كان في عقيدة، كالاختلاف في أن الإله واحد أو كثير، وربما كان في عمل أو ما يرجع إليه، كالاختلاف في أمور المعيشة وشؤون الحياة، فهو ـ أعني الحكم ـ يساوق القضاء مصداقاً، وإن اختلفا مفهوماً...

ثم إنّ اختلاف الناس في عقائدهم وأعمالهم اختلاف تشريعي، لايرفعه إلّا الأحكام والقوانين التشريعية، ولولا الاختلاف لم يوجد قانون، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلّا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾[2].

وقد تبيّن أنّ الحكم التشريعي لله سبحانه، فهو الولي في ذلك، فيجب أن يتخذ وحده ولياً، فيعبد ويدان بما أنزله من الدين.

وهذا معنى قوله: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾، ومحصل الحجة: أنّ الولي الذي يعبد ويدان له يجب أن يكون رافعاً لإختلافات من يتولونه، مصلحا لما فسد من شؤون مجتمعهم، سائقاً لهم إلى سعادة الحياة الدائمة، بما يضعه عليهم من الحكم وهو الدين، والحكم في ذلك إلى الله سبحانه، فهو الولي الذي يجب أن يتخذ ولياً لا غير»[3].

٧ ـ القيام بالحق والقتال في سبيل الله

إنّ السيّد العلّامة يبيّن مسألة مهمّة في تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ

---

١ ـ الشورى: ٩ ـ ١٠.

٢ ـ البقرة: ٢١٣.

٣ ـ تفسير الميزان ١٨: ٢٢.

الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[1]، وهي علّة تشريع الجهاد والقتال في سبيل الدين الإلهي:

«... فإنّ الاختلاف بين الانبياء اختلاف في المقامات وتفاضل في الدرجات، مع اتحادهم في أصل الفضل وهو الرسالة، واجتماعهم في مجمع الكمال وهو التوحيد، وهذا بخلاف الاختلاف الموجود بين أمم الانبياء بعدهم، فإنه اختلاف بالإيمان والكفر، والنفي والاثبات، ومن المعلوم أن لا جامع في هذا النحو من الاختلاف...

ولما كان ذيل الآية متعرضاً لمسألة القتال مرتبطاً بها، والآيات المتقدمة على الآية أيضا راجعة إلى القتال بالأمر به والاقتصاص فيه، لم يكن مناص من كون هذه القطعة من الكلام ـ أعني قوله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا﴾ إلى قوله: ﴿بروح القدس﴾ مقدمة لتبيين ما في ذيل الآية من قوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾.

وعلى هذا فصدر الآية لبيان أنّ مقام الرسالة ـ على اشتراكه بين الرسل عليهم السلام ـ مقام تنمو فيه الخيرات والبركات، وتنبع فيه الكمال والسعادة ودرجات القربى والزلفى، كالتكليم الإلهي وإيتاء البينات والتأييد بروح القدس، وهذا المقام ـ على ما فيه من الخير والكمال ـ لم يوجب ارتفاع القتال؛ لاستناده إلى اختلاف الناس أنفسهم.

وبعبارة أخرى: محصل معنى الآية: أنّ الرسالة ـ على ما هي عليه من الفضيلة ـ مقام تنمو فيه الخيرات، كلّما انعطفت إلى جانب منه وجدت فضلاً جديداً، وكلّما ملت إلى نحو من انحائه ألفيت غضاً طرياً، وهذا المقام ـ على ما فيه من البهاء والسناء والاتيان بالآيات البينات ـ لايتم به رفع الاختلاف بين الناس بالكفر والايمان، فإنّ هذا الاختلاف

---

١ ـ البقرة: ٢٥٣.

إنّما يستند إلى انفسهم، فهم انفسهم أوجدوا هذا الاختلاف، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جائهم العلم بغيا بينهم﴾ [١]، وقد مر بيانه في قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ [٢].

ولو شاء الله لمنع من هذا القتال الواقع بعدهم منعاً تكوينياً، لكنهم اختلفوا فيما بينهم بغياً وقد أجرى الله في سنّة الايجاد سببية ومسببية بين الاشياء، والاختلاف من علل التنازع، ولو شاء الله تعالى لمنع من هذا القتال منعاً تشريعياً، أو لم يأمر به، ولكنّه تعالى أمر به وأراد بأمره البلاء والامتحان؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن الكاذبين.

وبالجملة: القتال بين أمم الأنبياء بعدهم لا مناص عنه؛ لمكان الاختلاف عن بغي، والرسالة وبيناتها إنّما تدحض الباطل وتزيل الشبه. وأما البغي واللجاج وما يشابههما من الرذائل، فلا سبيل إلى تصفية الأرض منها، وإصلاح النوع فيها إلّا القتال، فإنّ التجارب يعطي أنّ الحجة لم تنجح وحدها قط إلّا إذا شفع بالسيف، ولذلك كان كلما اقتضت المصلحة، أمر الله سبحانه بالقيام للحق والجهاد في سبيل الله، كما في عهد إبراهيم وبني إسرائيل، وبعد بعثة رسول الله ﷺ» [٣].

---

١ ـ آل عمران: ١٩.

٢ ـ البقرة: ٢١٣.

٣ ـ تفسير الميزان ٢: ٣١٠ ـ ٣١١.

آثار الاختلاف وانعكاساته الفردية والاجتماعية

إنّ الاختلاف والتفرّق من أعمال الإنسان له أثر بلا شك. ونحن نعلم أنّ المجتمع الذي بني على تشتت القلوب واختلاف المقاصد والأهواء، فهو لا محالة لايسير ـ مثل هذا المجتمع ـ على واحد يهديهم إلى غاية واحدة، بل بأدلّة شتى تختلف باختلاف الميول الشخصية والتحكمات الفردية، التي تهديهم إلى أشد الخلاف والاختلاف، يوردهم إلى أردء التنازع، ويهددهم دائماً بالقتال والنزال، ويعدهم الفناء والزوال وعواقب ومشئومات أخرى.

والتأريخ يحدثنا أنّ التفرق بين الناس أمر يعود أثره المشؤوم إلى جميع البشر وكافّة الناس، كما نراه اليوم في المجتمع الإسلامي. ففي الفتن الواقعة بين المسلمين التي انهدمت بها الوحدة الدينية، وبدت الفرقة ونفدت القوة، وذهبت الشوكة، على ما اشتملت عليه من القتل والسبي والنهب،وهتك الأعراض والحرمات، وهجر الكتاب، وإلغاء السنّة.

وللتنبّه والتذكّر نذكر ما وجدناه في كلمات العلّامة الطباطبائي في تفسيره الكبير من عواقب الاختلاف والتفرق:

١ ـ القتال والفناء والزوال

إنّ السيّد العلّامة يؤكد بأنّ الخلاف والاختلاف يورد المجتمع إلى أردء التنازع، ويهددهم دائماً بالقتال والنزال، ويعدهم الفناء والزوال، وهذا ما قاله في تفسير قوله

تعالى: ﴿... وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا...﴾[1]، بعد بيان معنى ﴿شفا حفرة﴾ بأنّها: طرفها الذي يشرف على السقوط فيها من كان بجانبها، حيث يقول:

«... إن كان المراد بيان حالهم في مجتمعهم الفاسد، الذي كانوا فيه قبل إيمانهم وتآلف قلوبهم، وكان المراد بالنار هي الحروب والمنازعات ـ وهو من الاستعمالات الشائعة بطريق الاستعارة ـ فالمقصود أنّ المجتمع الذي بني على تشتت القلوب واختلاف المقاصد والأهواء، ولا محالة لايسير مثل هذا المجتمع بدليل واحد يهديهم إلى غاية واحدة، بل بأدلة شتى تختلف باختلاف الميول الشخصية والتحكمات الفردية اللاغية، التي تهديهم إلى أشد الخلاف والاختلاف يشرفهم إلى أردء التنازع، ويهددهم دائماً بالقتال والنزال، ويعدهم الفناء والزوال، وهي النار التي لاتبقي ولاتذر على حفرة الجهالة، التي لا منجا ولا مخلص للساقط فيها.

فهؤلاء، وهم طائفة من المسلمين كانوا آمنوا قبل نزول الآية بعد كفرهم، وهم المخاطبون الأقربون بهذه الآيات، لم يكونوا يعيشون مدى حياتهم قبل الإسلام في حال تهددهم الحروب والمقاتلات آنا بعد آن، فلا أمن ولا راحة ولا فراغ، ولم يكونوا يفقهون ما حقيقة الأمن العام، الذي يعمّ المجتمع بجميع جهاتها، من جاه ومال وعرض ونفس وغير ذلك.

ثم لما اجتمعوا على الاعتصام بحبل الله، ولاحت لهم آيات السعادة، وذاقوا شيئاً من حلاوة النعم، وجدوا صدق ما يذكرهم به الله، من هنئ النعمة ولذيذ السعادة، فكان الخطاب أوقع في نفوسهم ونفوس غيرهم. ولذلك بني الكلام ووضعت الدعوة على أساس المشاهدة والوجدان، دون مجرد التقدير والفرض، فليس العيان كالبيان ولا التجارب كالفرض والتقدير، ولذلك بعينه أشار في التحذير الآتي في قوله: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ الآية إلى حال من قبلهم، فإنّ مآل حالهم بمرأى

---

١ ـ آل عمران: ١٠٣.

ومسمع من المؤمنين، فعليهم أن يعتبروا بهم وبما آل إليه أمرهم، فلايجروا مجراهم ولايسلكوا مسلكهم، ثمّ نبههم الله على خصوصية هذا البيان فقال: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾»[١].

٢ ـ إلقاء النفوس في التهلكة

بقاء الاختلاف بين الناس سبب لإلقاء النفوس في التهلكة. يقول العلّامة الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢]:

«ولاتكونوا كالذين تفرقوا بالأبدان أولا، وخرجوا من الجماعة، وأفضاهم ذلك إلى اختلاف العقائد والآراء أخيراً، وقد نسب تعالى هذا الاختلاف في موارد من كلامه إلى البغي، قال تعالى: ﴿وما اختلف فيه إلّا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم﴾[٣]، مع أنّ ظهور الاختلاف في العقائد والآراء ضروري بين الأفراد؛ لإختلاف الأفهام، لكن كما أنّ ظهور هذا الاختلاف ضروري، كذلك دفع الاجتماع لذلك، ورده المختلفين إلى ساحة الاتحاد أيضا ضروري، فرفع الاختلاف ممكن مقدور بالواسطة، وإعراض الأمة عن ذلك بغي منهم، وإلقاء لأنفسهم في تهلكة الاختلاف»[٤].

٣ ـ الإضرار بالناس

دعا الله تبارك وتعالى المسلمين إلى الوحدة والتمسك بحبل الله، وأمرهم بالإجتناب عن التفرقة في الآية ١٠٣ من سورة آل عمران، ثمّ ذكر بركات الوحدة ومشؤومات

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧١.

٢ ـ آل عمران: ١٠٥.

٣ ـ البقرة: ٢١٣.

٤ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٤.

التفرقة في نفس الآية والآيات التالية بعدها،وقد ذكرنا في المباحث الماضية المستفاد من الآيات بقدر المجال والوسع، ولكن في الآية ١٠٨ نكتة بمنزلة النتيجة للآيات السابقة وهي: أنّ التفرقة ظلم، وأثرها المشئوم يعود إلى جميع العالمين وكافّة الناس؛ لأنّ الظلم إذا شاع في مجتمع تفسد أركانه،ومع فساد الأركان لايمكن إحقاق حقوق الناس، لاسيما المستضعفين والرعايا.

وقد تنبّه العلّامة الطباطبائي إلى هذه النكتة في بيان تلك الآية، وهي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ﴾ [١]: **«تنكير الظلم وهو في سياق النفي يفيد الاستغراق، وظاهر قوله: ﴿للعالمين﴾ وهو جمع محلى باللام، يفيد الاستغراق أيضاً، والمعنى على هذا: إنّ الله لايريد ظلماً، أيّ ظلم فُرض لجميع العالمين، وكافة الجماعات، وهو كذلك، فإنما التفرق بين الناس أمر يعود أثره المشئوم إلى جميع العالمين وكافّة الناس»** [٢].

٤ ـ عدم إمكان تحصيل التقوى

نعلم أنّ الاختلاف والتفرق في المجتمع يشوّش مجال التدبّر وتحصيل المعارف الحقّة، والعوام لايمكنهم تحصيل التقوى الدينية في هذا الجوّ، والعلماء إذا شاعت الاختلافات إمّا أن يشتغلوا بإثبات آرائهم، أو بردّ آراء مخالفيهم، وهذا يأخذ منهم مجال التوجه إلى الأخلاق والدراسات الإخلاقية. ومن الواضحات أنّ في جوّ الخصومة والعداوة والاختلاف، لايبقى مجال للمحاولة في تربية الناس وتوسعة المعارف التربويّة، فكيف يمكن الوصول إلى التقوى الدينية؟

وذلك أنّ التقوى الدينية إنّما تحصل بالتبصر في النواهي الإلهية، والورع عن

---

١ ـ آل عمران: ١٠٨.

٢ ـ تفسير الميزان ٣: ٣٧٥.

محارمه بالتعقل والتذكر، وبالتزام الفطرة الإنسانية التي بني عليها الدين. فهو على صراط التقوى مادام ملازماً لطريق التعقّل والتذكّر، جارياً على مجرى الفطرة، وإذا انحرف خارج هذا الصراط، فليس له إلّا اتباع الأهواء، والإخلاد إلى الأرض، والاغترار بزينة الحياة الدنيا، فقد جذبته الأهواء والعواطف إلى الاسترسال والعكوف على مخالفة العقل السليم، وترك التقوى الدينية من غير مبالاة بما يهدده من شؤم العاقبة، كالسكران لايدري ما يفعل، ولا ما يفعل به، وبالجملة: التقوى الدينية لاتحصل بالتفرق والاختلاف.

يقول السيّد في معنى الآية ١٥٣ من سورة الانعام: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

«والغرض المسوق له الآية هو النهي عن التفرق والاختلاف في الدين، باتباع سبل غير سبيل الله، واتباع هاتيك السبل من شأنه أنّ التقوى الديني لايتم إلّا بالاجتناب عنه.

وذلك أنّ التقوى الديني إنّما يحصل بالتبصر في المناهي الإلهية والورع عن محارمه بالتعقل والتذكر، وبعبارة أخرى بالتزام الفطرة الإنسانية التي بني عليها الدين، وقد قال تعالى: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ [١]، وقد وعد الله المتقين إن اتقوا يمددهم بما يتضح به سبيلهم ويفرق به بين الحق والباطل عندهم، فقال: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ [٢]، وقال: ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ [٣].

فهو على صراط التقوى مادام ملازماً لطريق التعقل والتذكر، جاريا على مجرى الفطرة، وإذا انحرف إلى الخارج من هذا الصراط، وليس إلّا اتّباع الأهواء، والإخلاد إلى الأرض، والاغترار بزينة الحياة الدنيا، جذبته الأهواء والعواطف إلى الاسترسال

---

١ ـ الشمس: ٨.

٢ ـ الطلاق: ٢.

٣ ـ الأنفال: ٢٩.

والعكوف على مخالفة العقل السليم، وترك التقوى الديني، من غير مبالاة بما يهدده من شؤم العاقبة، كالسكران دري ما يفعل ولا ما يفعل به.

والأهواء النفسانية مختلفة لا ضابط يضبطها، ولا نظام يحكم عليها يجتمع فيه أهلها، ولذلك لاتكاد ترى اثنين من أهل الأهواء يتلازمان في طريق أو يتصاحبان إلى غاية، وقد عدّ الله سبحانه لهم في كلامه سبلاً شتى، كقوله: ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ [1]، وقوله: ﴿ولاتتبع سبيل المفسدين﴾ [2]، وقوله: ﴿ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون﴾ [3] وقوله في المشركين:﴿إن يتبعون إلّا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ [4] وأنت إن تتبعت آيات الهدى والضلال، والاتباع والإطاعة، وجدت في هذا المعنى شيئاً كثيراً.

وبالجملة: التقوى الديني لايحصل بالتفرق والاختلاف، والورود في أي مشرعة شرعت، والسلوك من أي واد لاح لسالكه، بل بالتزام الصراط المستقيم الذي لاتخلف فيه ولا اختلاف، فذلك هو الذي يرجى معه التلبس بلباس التقوى، ولذلك عقّب الله سبحانه قوله: ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ بقوله: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾» [5].

٥ ـ الضعف والذلّ

قال العلّامة في معنى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [6]:

---

١ ـ الأنعام: ٥٥.

٢ ـ الأعراف: ١٤٢.

٣ ـ يونس: ٨٩.

٤ ـ النجم: ٢٣.

٥ ـ تفسير الميزان ٧: ٣٧٩.

٦ ـ الأنفال: ٤٦.

«أي اختلفوا بالنزاع فيما بينكم، حتى يورث ذلكم ضعف إرادتكم وذهاب عزتكم ودولتكم أو غلبتكم، فإنّ اختلاف الآراء يخلّ بالوحدة ويوهن القوة»[١].

وقال أيضاً: «للتفرقة بين الأمة أثر سوء... وهو طرو الضعف ونفاد القوة وتبعّض القدرة»[٢].

وقال في موضع آخر من تفسيره: «ففي الفتن الواقعة في صدر الإسلام... وقد انهدمت بها الوحدة الدينية، وبدت الفرقة ونفدت القوة وذهبت الشوكة، على ما اشتملت عليه من القتل والسبي والنهب، وهتك الأعراض والحرمات، وهجر الكتاب وإلغاء السنّة، ﴿وقال الرسول: يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾»[٣].

٦ ـ اختلال النظام الاجتماعي

بعد أن بيّن بأنّ السيّد العلّامة اختلاف أفراد المجتمع من حيث الشكل والمنطقة الجغرافية الخاصة بهم، واثباته أنّ العادات والتقاليد تختلف من منطقة إلى أُخرىٰ، وأنّ الأقوياء يستغلون الضعفاء ويسيطرون عليهم لتنفيذ مأربهم الخاصة، لذلك ظهرت حالات الاختلاف، ونشبت الصدامات بين الضعفاء والأقوياء، محا أدى الى حالة من الفوضى داخل المجتمعات، ويقول:

«وهذا الاختلاف كما عرفت ضروري الوقوع بين أفراد المجتمعين من الإنسان، لإختلاف الخلقة باختلاف المواد، وإن كان الجميع إنساناً بحسب الصورة الإنسانية الواحدة، والوحدة في الصورة تقتضي الوحدة من حيث الأفكار والأفعال بوجه، واختلاف المواد يؤدي إلى اختلاف الإحساسات والإدراكات والأحوال، في عين أنها

---

١ ـ تفسير الميزان ٩: ٩٥.

٢ ـ المصدر السابق ٧: ١٣٧.

٣ ـ المصدر نفسه ٩: ٥١.

متحدة بنحو، واختلافها يؤدي إلى اختلاف الأغراض والمقاصد والآمال، واختلافها يؤدي إلى اختلاف الأفعال، وهو المؤدي إلى اختلال نظام الاجتماع»[1].

٧ ـ القتال الباطل

يقول السيّد العلّامة في خلاصة ما استفاد من الآية ٢٥٣ من سورة البقرة: ﴿تِلْكَ الرُّسلُ فَضلْنَا بَعْضهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كلَّمَ اللَّهُ ورَفَعَ بَعْضهُمْ دَرَجَتٍ وءَاتَيْنَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَتِ وأَيَّدْنَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ولَوشاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَت ولَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ ومِنهُم مَّن كَفَرَ ولَوشاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ولَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾:

«الآية في مقام دفع ما ربما يتوهم أنّ الرسالة، وخاصة من حيث كونها مشفوعة بالآيات البينات، الدالة على حقية الرسالة، ينبغي أن يختم بها بلية القتال، إمّا من جهة أنّ الله سبحانه لما أراد هداية الناس إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية، بإرسال الرسل وإيتاء الآيات البينات، كان من الحري أن يصرفهم عن القتال بعد، ويجمع كلمتهم على الهداية، فما هذه الحروب والمشاجرات بعد الأنبياء في أممهم، وخاصة بعد انتشار دعوة الإسلام، الذي يُعدُّ الاتحاد والاتفاق من أركان أحكامه وأصول قوانينه؟

والذي يجيب تعالى به: أن القتال معلول الاختلاف الذي بين الأمم، إذ لولا وجود الاختلاف لم ينجر أمر الجماعة إلى الاقتتال، فعلّة الاقتتال الاختلاف الحاصل بينهم، ولو شاء الله لم يوجد اختلاف، فلم يكن اقتتال رأساً، ولو شاء لأعقم هذا السبب بعد وجوده، لكن الله سبحانه يفعل ما يريد، وقد أراد جري الأمور على سنّة الأسباب، فوجد الاختلاف فوجد القتال، فهذا إجمال ما تفيده الآية...»[2].

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١١٨.

٢ ـ المصدر السابق: ٣٠٩.

ثم يقول بعد ذلك: «إنّ القرآن يقضي بكون جميع الرسل رسلاً إلى جميع الناس، قال تعالى: ﴿لانفرق بين أحد منهم﴾[1]، فإتيان الرسل جميعاً بالآيات البينات، كان ينبغي أن يقطع دابر الفساد والقتال بين الذين بعدهم، لكن اختلفوا بغياً بينهم، فكان ذلك أصلاً يتفرع عليه القتال، فأمر الله تعالى به حين تقتضيه المصلحة، ليحق الحق بكلماته ويقطع دابر المبطلين...».

وأيضاً يؤكد هذا المعنى في تفسير ذيل الآية ۲٥۳ من سورة البقرة: ﴿ولو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ ويقول: «أي ولو شاء الله لم يؤثر الاختلاف في استدعاء القتال، ولكن الله يفعل ما يريد، وقد أراد أن يؤثر هذا الاختلاف في سوقه الناس إلى الاقتتال، جريا على سنة الأسباب»[2].

۸ ـ ظهور الآراء الباطلة

نعلم أنّ العلماء إذا صاروا تابعين لأهوائهم فسوف يختلفون؛ لأنّ هوى أحد لايتّحد مع هوى الآخر، وسيبتدعون آراءً للتغلب على رقبائهم، ويظهرون الآراء الباطلة وكأنّها هي الحق؛ للوصول الى أهدافهم الشريرة.

هذا ما أكد عليه العلّامة الطباطبائي في تتمة تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[3]:

«... فالمراد باختلافهم إيجادهم أقوالاً وآراءً يتفرقون بها عن الحق، ويظهر بها الريب، فهم لاتّباعهم أهواءهم المخالفة للحق، يظهرون آراءهم الباطلة في صور متفرقة تضاهي صورة الحق؛ ليحجبوه عن أفهام الناس بغياً وعدواناً بعد علمهم بالحق، فهو

---

۱ ـ البقرة: ۱۳٦.

۲ ـ تفسير الميزان ۲: ۳۱٤.

۳ ـ هود: ۱۱۸.

اختلافهم في الحق بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم.

ويتبين... أنّ الإشارة بقوله: "ولذلك خلقهم" إلى الرحمة المدلول عليه بقوله: ﴿إلّا من رحم ربك﴾... ذلك لأنك عرفت أنّ هذا الاختلاف بغي منهم يفرقهم عن الحق ويستره، ويظهر الباطل، ولايجوز كون الباطل غاية حقيقية للحق تعالى في خلقه، ولا معنى لأن يوجد الله سبحانه العالم الإنساني ليبغوا، ويميتوا الحق ويحيوا الباطل، فيهلكهم ثمّ يعذبهم بنار خالدة، فالقرآن الكريم يدفع هذا بجميع بياناته...».

ثمّ يقول في التلخيص: «أنّ المراد بقوله: ﴿ولايزالون مختلفين﴾ دوامهم على الاختلاف في الدين، ومعناه التفرق عن الحق وستره، بتصويره في صور متفرقة باطلة تشبه الحق...» [1].

٩ ـ الانشقاق والتّحزب الباطل

قال الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿... وما تفرقوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ [2]:

«ضمير ﴿تفرقوا﴾ للناس المفهوم من السياق، والبغي الظلم أو الحسد، وتقييده بقوله: ﴿بينهم﴾ للدلالة على تداوله، والمعنى وما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعة باختلافهم وتركهم الاتفاق، إلّا حال كون تفرقهم آخذا ـ أو ناشئاً ـ من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق، ظلماً أو حسدا تداولوه بينهم. وهذا هو الاختلاف في الدين المؤدي إلى الانشعابات والتحزبات، الذي ينسبه الله سبحانه في مواضع من كلامه إلى البغي».

وبعد هذا البيان يبيّن العلّامة أنّ هناك اختلاف آخر، راجع للطبيعة ولا بأس به؛

١ ـ تفسير الميزان ١١: ٦٣.

٢ ـ الشورى: ١٤.

لأنّ الله خلق البشر بحيث يحتاجون في تنظيم روابطهم الاجتماعية الى قوانين وأحكام، ولذلك بعث الله الرسل وأنزل الكتب، يقول الأستاذ في تتمة كلامه في هذا المجال: «وأمّا الاختلاف المؤدي إلى نزول الشريعة، وهو الاختلاف في شؤون الحياة والتفرق في أمور المعاش، فهو أمر عائد إلى اختلاف طبائع الناس في مقاصدهم، وهو الذريعة إلى نزول الوحي وتشريع الشرع لرفعه، كما يشير إليه قوله: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين﴾ [1] »[2].

١٠ ـ الهرج والمرج

يقول السيّد الطباطبائي ﷺ: «إنّ الإنسان لما وجد سائر الأفراد من نوعه، وهم أمثاله، يريدون منه ما يريده منهم، صالحَهم ورضي منهم أن ينتفعوا منه وزان ما ينتفع منهم، وهذا حكمه بوجوب اتخاذ المدنية، والاجتماع التعاوني، ويلزمه الحكم بلزوم استقرار الاجتماع بنحو ينال كل ذي حق حقه، ويتعادل النسب والروابط، وهو العدل الاجتماعي...

كلما قوي إنسان على آخر ضعف حكم الاجتماع التعاوني وحكم العدل الاجتماعي أثرا، فلايراعيه القوي في حق الضعيف، ونحن نشاهد ما يقاسيه ضعفاء الملل من الأمم القوية، وعلى ذلك جرى التاريخ أيضا إلى هذا اليوم، الذي يدعى أنّه عصر الحضارة والحرية...

وإعمال القدرة والغلبة: تحميل القويّ العزيز مطالبَه الضعيف، واستدلال الغالب للمغلوب واستعباده في طريق مقاصده ومطامعه.

... فإذا قوي وغلب (الضعيفُ والمقهورُ)، يقابل ظالمه بأشد الانتقام، فكان بروز

---

١ ـ البقرة: ٢١٣.

٢ ـ تفسير الميزان ١٨: ٣١.

الاختلاف مؤدياً إلى الهرج والمرج، وداعيا إلى هلاك الإنسانية، وفناء الفطرة، وبطلان السعادة»[١].

١١ ـ انحلال الإيمان

قال العلّامة الطباطبائي: «إتخاذ الكافرين أولياء هو الامتزاج الروحي، بهم بحيث يؤدي إلى... والانفصال عن المؤمنين... فإنّ الولاية يوجب الاتحاد والامتزاج، وهاتان الصفتان (ولاية الكفار والاتصال بهم والانفصال عن المؤمنين) توجبان التفرق والبينونة، وإذا قويت الولاية كما إذا كان من دون المؤمنين، أوجب ذلك فساد خواص الايمان وآثاره ثم فساد أصله، ولذلك عقبه بقوله: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله...﴾ »[٢].

١٢ ـ الإعراض عن الحق

ذكرنا أنّ الناس مختلفون في الاستعداد وقوّة الإدراك، وعامّة الناس ليس لهم مجال التفكر والتأمل في المعارف الغامضة، وما هو المستفاد من كتاب الله، ولذلك يقلّدون في أكثر أمورهم فيما تبتني عليه أعمالهم. يقول الأستاذ:

«أنّه لما كانت عامة الناس لايتجاوز فهمهم المحسوس، ولايرقى عقلهم إلى ما فوق عالم المادة والطبيعة، وكان من ارتقى فهمه منهم بالارتياضات العلمية إلى الورود في إدراك المعاني وكليات القواعد والقوانين، يختلف أمره باختلاف الوسائل التي يسرت له الورود في عالم المعاني والكليات، كان ذلك موجباً لإختلاف الناس في فهم المعاني الخارجة عن الحس والمحسوس اختلافاً شديداً، ذا عرض عريض على مراتب مختلفة،

---

١ ـ تفسير الميزان ٢: ١١٧.

٢ ـ المصدر السابق ٣: ١٥١.

وهذا أمر لاينكره أحد»[١].

على هذا إذا اختلف العلماء وأدعياء العلم والمعرفة، والذين يتّبعهم العوام إلى أفواههم، في الحق أو كانوا على الباطل، عندها سوف تضطرب أفكار عوام الناس وتشوّش أذهانهم ويعرض عليهم الأرتياب فيما هو الحق، وسوف يبعدهم هذا عن الحق ويوهن أعتقاداتهم. نظير تمسك أهل الزيغ بالمتشابهات لابتغاء الفتنة. والفتنة الكبرى هي انحراف الناس عن الحق والطريق المستقيم، ووقوع التفرق والنزاع في المجتمع في الحق والباطل، وعدم تمييز أحدهما عن الآخر.

وعلى هذا الأساس يقول السيّد العلّامة ﷺ في هذا المجال في تفسير قوله تعالى: ﴿... ولَا يَزَالُونَ مخْتَلِفِينَ﴾[٢]:

«الاختلاف المذكور في هذه الآية ﴿... ولَا يَزَالُونَ مخْتَلِفِينَ﴾[٣] وسائر الآيات المتعرضة له، الذامة لأهله، إنّما هو الاختلاف في الحق ومخالفة البعض للبعض في الحق، وإن كانت توجب كون بعض منهم على الحق وعلى بصيرة من الأمر، لكنه إذا نسب إلى المجموع وهو المجتمع، كان لازمه ارتياب المجتمع وتفرقهم عن الحق، وعدم اجتماعهم عليه، وتركهم إياه بحياله، ومقتضاه اختفاء الحق عنهم وارتيابهم فيه.

والله سبحانه إنّما يذم الاختلاف من جهة لازمه هذا، وهو التفرق والإعراض عن الحق والآيات تشهد بذلك، فإنّه تعالى يذم فيها جميع المختلفين باختلافهم، لا المبطلين من بينهم، فلولا أنّ المراد بالمختلفين أهل الآراء أو الأعمال المختلفة التي تفرقهم عن الحق لم يصحّ ذلك.

ومن أحسن ما يؤيده قوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي

---

١ ـ تفسير الميزان ٣: ٢٣.

٢ و ٣ ـ هود: ١١٨.

أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه﴾ [١]، حيث عبّر عن الاختلاف بالتفرق، وكذا قوله: ﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [٢]، وهذا أوضح دلالة من سابقه، فإنه يجعل أهل الحق الملازمين لسبيله خارجاً من أهل التفرق والاختلاف.

ولذلك ترى أنّه سبحانه في غالب ما يذكر اختلافهم في الكتاب، يردفه بارتيابهم فيه، كقوله فيما مرت من الآيات: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنّهم لفي شك منه مريب﴾ [٣]، وقال تعالى: ﴿عمّ يتساءلون * عن النبأ العظيم * الذي هم فيه مختلفون﴾ [٤]، أي يأتي فيه كل بقول يبعدهم من الحق فيتفرقون» [٥].

١٣ ـ الذم من الله تعالىٰ خاصة

وقال الأستاذ عند قوله تعالى: ﴿من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون﴾:

«... بيان للمشركين، وفيه تعريفهم بأخص صفاتهم في دينهم، وهو تفرقهم في دينهم وعودهم شيعة شيعة وحزبا حزبا، يفرح ويسر كل شيعة وحزب بما عندهم من الدين، والسبب في ذلك ما ذكره قبيل هذا بقوله: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾، فبين أنهم بنوا دينهم على أساس الاهواء،

---

١ ـ الشورى: ١٣.

٢ ـ الأنعام: ١٥٣.

٣ ـ هود: ١١٠.

٤ ـ النبأ: ١ ـ ٣.

٥ ـ تفسير الميزان ١١: ٦٢.

وأنّه لايهديهم ولا هادى غيره... وفى الآية ذم للمشركين بما عندهم من صفة التفرق في الكلمة والتحزب في الدين»[١].

١٤ ـ عذاب الدنيا والآخرة

الأمة الإسلامية أمة من الأمم. فلا محالة أن يكون لها أجل كسائر الأمم الأخرىٰ إذا جاء لايستأخر ساعة ولايستقدم. فإذا تمعّنّا في هذا الكلام وتدبّرنا فيه عرفنا أنّ لكل أمة حياة اجتماعية وراء الحياة الفردية، التي لكل واحد من أفرادها، ولحياتها من البقاء والعمر ما قضى به الله سبحانه لها، ولها من السعادة والشقاوة، والتكليف، والرشد والغي، والثواب والعقاب نصيبها. وهذا مما اعتنى به التدبير الإلهي، نظير الفرد من الانسان حذو النعل بالنعل، ويدلنا على ذلك ما يحدثنا به التاريخ وتفصح عنه الآثار، من ديارهم الخربة ومساكنهم الخالية. فهؤلاء أمم منقرضة سكنت أجراسهم وخمدت أنفاسهم، ولم ينقرضوا إلّا بعذاب أو هلاك، ولم يعذبوا إلّا بعد ما جاءتهم رسلهم بالبينات، ولم يأت قوما منهم رسوله إلّا واختلفوا في الحق الذى جاءهم به، فمنهم مَن آمن به ومنهم من كذب به وهم الاكثرون. فهذا يدلنا على ما نحن عليه ـ أعني به امتنا الاسلامية ـ وقد اختلفنا في الحق لما جاءنا، وسيقضي الله بين رسولنا وبيننا، فيأخذنا بما أخذ به الأمم التي خلت من قبلنا وإنّ الله لبالمرصاد. فيجب علينا الحذر من الاختلاف المهلك.

يقول السيّد العلّامة في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٢] إلى آخر الآية: «لما كان قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في معنى

---

١ ـ تفسير الميزان ١٦: ١٨٢.

٢ ـ يونس: ٤٩.

قولنا: أيّ وقت يفي ربك بما وعدك، أو يأتي بما أوعدنا به، أنّه يقضي بيننا وبينك، فيهلكنا وينجيك والمؤمنين بك، فيصفو لكم الجو، ويكون لكم الأرض، وتخلصون من شرنا؟

ثم يجيب عن سؤالهم عن أصل تعيين الوقت جواباً إجمالياً، بالإعراض عن تعيين الوقت والاقبال على ذكر ضرورة الوقوع، أما الأول فإنه من الغيب الذى لايعلمه الله...

وأمّا الثاني ـ أعني ذكر ضرورة الوقوع ـ فقد بيّن ذلك بالإشارة إلى حقيقة، هي من النواميس العامة الجارية في الكون، تنحلّ بها العقدة وتندفع بها الشبهة، وهي أنّ لكل أمة أجلاً لايتخطاهم ولايتخطونه، فهو آتيهم لا محالة، وإذا أتاهم لم يخبط في وقوعه موقعه ولا ساعة، وهو قوله تعالى: ﴿لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلايستأخرون ساعة ولايستقدمون﴾، أي وأنتم أمة من الامم، فلا محالة لكم أيضا أجل كمثلهم، إذا جاءكم لاتستأخرون ساعة ولاتستقدمون.

فإذا فقهوا هذا الكلام وتدبّروه، بان لهم أنّ لكل أمة حياة اجتماعية وراء الحياة الفردية، التى لكل واحد من أفرادها، ولحياتها من البقاء والعمر ما قضى به الله سبحانه لها، ولها من السعادة والشقاوة والتكليف والرشد والغي والثواب والعقاب نصيبها، وهي مما اعتنى بها التدبير الالهي نظير الفرد من الانسان حذوالنعل بالنعل.

ويدلّهم على ذلك ما يحدثهم به التاريخ ويفصح عنه الآثار، من ديارهم الخربة ومساكنهم الخالية، وقد قص عليهم القرآن أخبار بعضهم، كقوم نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وكلدة قوم ابراهيم، وأهل سدوم وسائر المؤتفكات قوم لوط، والقبط قوم فرعون وغيرهم. فهؤلاء أمم منقرضة سكنت أجراسهم وخمدت أنفاسهم، ولم ينقرضوا إلّا بعذاب وهلاك، ولم يعذبوا إلّا بعد ما جاءتهم رسلهم بالبينات، ولم يأت قوما منهم رسوله إلّا واختلفوا في الحق الذى جاءهم، فمنهم مَن آمن به ومنهم من كذب به، وهم الاكثرون.

فهذا يدلهم على أن هذه الامة ـ وقد اختلفوا في الحق لما جاءهم ـ سيقضى الله بين رسوله وبينهم، فيأخذهم بما أخذ به من خلت من قبلهم من الامم، وإنّ الله لبالمرصاد.

وعلى الباحث المتدبّر أن يتنبه، لأنّ الله سبحانه وإن بدء في وعيده بالمشركين، غير أنّه هدد في أثناء كلامه المجرمين فتعلق الوعيد بهم، ومن أهل القبلة مجرمون كغيرهم، فلينتظروا عذاباً واصباً يفصل به الله بينهم وبين نبيه ﷺ، ولينسوا ما يلقيه الشيطان في روعهم أنّ أمتهم هذه أمة مرحومة، رفع الله عنهم عذاب الدنيا إكراماً منه لنبيهم نبي الرحمة، فهم في أمن من عذاب الله، وإن انهمكوا في كل إثم وخطيئة وهتكوا كل حجاب، مع أنّه لا كرامة عند الله إلّا بالتقوى وقد خاطب المؤمنين من هذه الامة بمثل قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾[١].

وربّما تعدى المتعدي فعطف عذاب الآخرة على عذاب الدنيا، فذكر أنّ الامة مغفور لهم محسنهم ومسيئهم، فلايبقى لهم في الدنيا إلّا كرامة أن لهم أن يفعلوا ما شاءوا، فقد أسدل الله عليهم حجاب الأمن، ولا في الآخرة إلّا المغفرة والجنة.

ولا يبقى على هذا للملة والشريعة إلّا أنها تكاليف وأحكام جزافية، لعب بها رب العالمين، ولايسأل عما يفعل وهم يسألون، تعالى عما يقولون علواً كبيراً. فهذا كله من الإعراض عن ذكر الله وهجر كتابه، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾[٢] »[٣].

وقال الأستاذ في موضع آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ

---

١ ـ النساء: ١٢٣.

٢ ـ الفرقان: ٣٠.

٣ ـ تفسير الميزان ١٠: ٧٢.

بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [١]:

«... والشيع الفرق، وكل فرقة شيعه على حدة، وشيعة فلان تبعته، والتشيع الاتباع على وجه التدين والولاء، انتهى. وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ أن يضرب البعض بالبعض، ويخلط حال كونهم شيعاً وفرقاً مختلفة...

وفي العذاب اقتضاء أن ينبعث عليهم، إن لم يجتمعوا على الايمان بالله وآياته... على أنّه تعالى يهدد هذه الأمة صريحاً بالعذاب، في موارد مشابهة لهذا المورد من كلامه، كقوله تعالى:... ﴿إنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون، وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ [٢] إلى آخر الآيات، وقوله تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفاً ـ إلى أن قال ـ ولاتكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ [٣] إلى آخر الآيات.

فإنّ الانذار إنّما وقع في كلامه تعالى، وهو أعلم بما كان سيحدث في مملكته... والمحتد الأصلي لهذه الوقائع الذي مهد لها الطريق هو اختلاف الكلمة والتفرق، الذي بدأت به الأمة وجبهت به النبي ﷺ فيما كان يدعوهم إليه من الاتفاق على كلمة الحق: ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم﴾.

وقوله تعالى: ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ ظاهره أنّه أريد به التحزبات التي نشأت بعد النبي صلى الله عليه وآله، فأدى ذلك إلى حدوث مذاهب متنوعة، ألبست لباس العصبية والحمية الجاهلية، واستتبعت حروبا ومقاتل يستبيح كل فريق من غيره كل حرمة، ويطرده بمزعمته من حرمة الدين وبيضة الإسلام، وعلى هذا فقوله: ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق﴾ الخ، عذاب واحد لا عذابان، وإن أمكن بوجه عدّ كل من إلقاء التفرق في الكلمة وإذاقة البعض بأس بعض عذاباً مستقلاً برأسه، فللتفرقة بين

---

١ ـ الأنعام: ٦٥.

٢ ـ الأنبياء: ٩٣ ـ ٩٧.

٣ ـ الروم ٣٠ ـ ٤٥.

الأمة أثر سوء آخر، وهو طرو الضعف ونفاد القوة وتبعض القدرة.

فبالجملة: معنى الآية: قل يا رسول الله، مخاطباً لهم، منذرا لهم عاقبة استنكافهم عن الاجتماع تحت لواء التوحيد واستماع دعوة الحق، إنّ لشأنكم هذا عاقبة سيئة في قدرة الله سبحانه أن يأخذكم بها، وهو أن يبعث عليكم عذابا لا مفرّ لكم منه ولا ملاذ تلوذون به، وهو العذاب من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو أن يضرب بعضكم ببعض، فتكونوا شيعا وفرقا مختلفين متنازعين ومتحاربين، فيذيق بعضكم بأس بعض»[١].

وأعظم العذاب في يومنا هذا هو سلب حق الحياة من المسلمين في ديارهم، كما يراه ويعتقده الأستاذ أنّه بسبب الاختلاف: «ولم يسلب حق الحياة وسعادة الجد عن قوم إلّا عن اختلاف»[٢].

ويقول ﷺ في بيان قوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم﴾[٣]:

«وقد قضى الله سبحانه أن يوفي الناس أجر ما عملوه وجزاء ما اكتسبوه، وكان مقتضاه أن يحكم بينهم فيما اختلفوا، فيه حينما اختلفوا لكنه تعالى قضى قضاء آخر أن يمتعهم في الأرض إلى يوم القيامة ليعمروا به الدنيا، ويكتسبوا في دنياهم لأخراهم، كما قال: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾[٤]، ومقتضى هذين القضاءين أن يؤخر القضاء بين المختلفين في دين الله وكتابه بغياً، إلى يوم القيامة»[٥].

ونعلم بأنّ كلّ ماأوعد الله عليه العذاب والهلاك، فهو حرام ارتكابه ويجب الإحتراز عنه، ونرى أنّ الله تهدد المختلفين والمتفرقين بالهلاك، على ما قال الطباطبائي في

---

١ ـ تفسير الميزان ٧: ١٣٥ ـ ١٣٧.

٢ ـ المصدر السابق ٢: ١٠١.

٣ ـ هود: ١١٠.

٤ ـ البقرة: ٣٦.

٥ ـ تفسير الميزان ١١: ٤٥.

بيان قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ...﴾[1]: «والمعنى: ولولا أنّ الله قضى فيهم الاستقرار والتمتع في الأرض، إلى أجل سمّاه وعيّنه لقضي بينهم، إثر تفرقهم في دينه وانحرافهم عن سبيله، فأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم»[2].

١ ـ الشورى: ١٤.

٢ ـ تفسير الميزان ١٨: ٣٢.

فهرس المصادر

١. القرآن الكريم

٢. الأمالي، الشيخ الصدوق، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية لمؤسسة البعثة بقم، ط ١، قم.

٣. بحار الأنوار، العلّامة محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفا، بيروت، لبنان.

٤. بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار، الطبعة المصححة، منشورات الأعلمي، طهران، ايران.

٥. تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي، تحقيق: الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، ايران.

٦. تفسير روح الجنان، أبو الفتوح الرازي، مركز التحقيقات الإسلامي لآستان القدس الرضوي، مشهد، ايران.

٧. جامع البيان، ابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٨. الخصال، الشيخ الصدوق، تحقيق: علي اكبر الغفاري، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ايران.

٩. الدر المنثور، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

١٠. سنن أبي داود، ابن الأشعث السجستاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.

١١. سنن الترمذي، الترمذي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت، لبنان.

١٢. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، الجوهري، تحقيق: أحمد العطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

١٣. صحيح البخاري، البخاري، (الأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستانبول)، دار الفكر، بيروت.

١٤. صحيح المسلم، مسلم النيسابوري، دار الفكر، بيروت، لبنان.

١٥. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان.

١٦. قضايا المجتمع والأسرة والزواج على ضوء القرآن الكريم، محمد حسين الطباطبائي، دار الصفوة، بيروت.

١٧. الكافي، الشيخ الكليني، تصحيح وتعليق: علي اكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ايران.

١٨. كتاب العين، خليل بن أحمد الفراهيدي، مؤسسة دار الهجرة، قم، ايران.

١٩. كنز العمّال، المتقي الهندي، تحقيق: الشيخ بكري حياني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٢٠. لسان العرب، ابن المنظور، نشر أدب الحوزة، قم، ايران.

٢١. مجمع البحرين، الشيخ الطريحي، تحقيق: أحمد الحسيني، مركز نشر الثقافة الإسلامية، طهران، ايران.

٢٢. مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

٢٣. مسند أحمد، أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت، لبنان.

٢٤. مسند الحميدي، عبد الله بن الزبير الحميدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٥. مفردات غريب القرآن، الراغب الإصفهاني، مطبعة الميمنية، مصر.

٢٦. مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، عراق.

٢٧. الميزان، العلّامة السيّد محمد حسين الطباطبائي، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ايران.

٢٨. نهج البلاغة، شرح محمد عبده، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٢٩. وسائل الشيعة، الشيخ الحرّ العاملي، مؤسسة آل البيت، بيروت، لبنان.

٣٠. ينابيع المودّة لذوي القربى، الشيخ القندوزي الحنفي، دار الأسوة، طهران، ايران.

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

العلّامة الطباطبائي ومنهج التقارب في التفسير

الفصل الثاني
مفهوم الوحدة وأهميتها في تفسير الميزان

الفصل الثالث

أقسام الوحدة والاختلاف في تفسير الميزان

الفصل الرابع

أصول الوحدة الإسلامية والانسانية في تفسير الميزان

الفصل الخامس

عوامل الوحدة ومقوماتها في تفسير الميزان

الفصل السادس

آثار الوحدة والاختلاف في الميزان وانعكاستهما الفردية والاجتماعية

الفصل السابع

عوامل الفرقة والاختلاف في تفسير الميزان وسبل إزالتهما